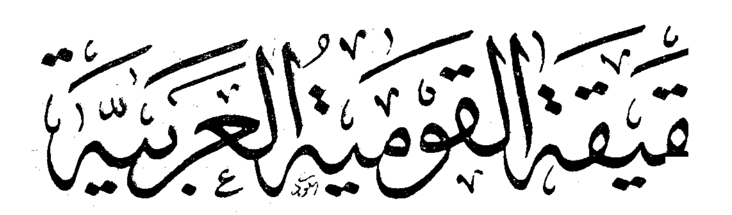
محمد الغزالى



دراسات علمية فى المجتمع العربى

الناشر
مكتبة دار العروبة
٢٢ شارع الجمهورية بالقاهرة

مَطْبَعَةُ المَدَنِي
المؤسسة السعودية بمصر
٢٩٥ شارع العباسية القاهرة ت ٤٠٨٥١

تمهيد

قرأت جملة من المقالات ، والكتب التى تعرضت لموضوع « القومية العربية » ، وشعرت بالسخط على الطريقة الغريبة المريبة التى عولج بها هذا الموضوع ، بل شعرت بأن من حق المؤمنين الصادقين أن يُجفلوا من هذه المقالات والكتب ، وأن يرفضوا بقوة كل ما جاء بها من آراء وأحكام . . .

ذلك أن هؤلاء الناس أبرزوا « القومية العربية » على أنها وليد أجنبى احتضنته بيئات نافرة من الإسلام ، أو مبغضة له ، وأن هذا الوليد يستمد نماءه من الثقافات الدخيلة ، وتتسع دائرته على أنقاض مواريثنا الروحية والخلقية ، وتقاليدنا الاجتماعية والقانونية ، وأوضاعنا الاقتصادية والسياسية .

وتفسير القومية العربية على هذا الأساس نعده نحن استجابة صريحة للغزو الاستعمارى بكل ما يحمله فى طواياه من أحقاد وأطماع .

ونرى الوقوف فى وجهه ضرورة يمليها الإخلاص للعرب ، والحماس لحاضرهم ومستقبلهم ، والدفاع عن كيانهم المادى والمعنوى .

ولقد عجبنا أشد العجب لمؤلف[1] يقول : (وكان أول من بشر برسالة القومية بين العرب هم أبناء « الرعايا » أى المسيحيون الذين وجدوا فى القومية أداة صالحة ليس فقط للتخلص من السيادة العثمانية ، بل للخروج كذلك من

---

(١) الدكتور على حسنى الخربوطلى فى كتاب « القومية العربية من الفجر إلى الظهر » .

حدود الدائرة الإسلامية إلى وسط أرحب حيث يستطيع المسلمون وغير المسلمين من العرب أن يذيبوا أنفسهم فى ولاء شامل) .

ويقول : كانت حملة «نابليون بونابرت» على مصر والشام من عوامل ضعف (الجامعة الإسلامية العثمانية) وظهور (القومية العربية) .

قدم الفرنسيون مُزودين بمدنيتهم الحديثة التى تقوم على العلم والاختراع والحرية والمبادئ الديمقراطية ، وتقابلوا بهذا كله مع مدنية الأتراك فكانت الغلبة للمدنية الحديثة .

ويقول : أيقظ « نابليون » الشعور القومى العربى ، وبعث فكرة استقلال العرب عن العثمانيين .

ويقول : عملت الحملة الفرنسية على نهضة الثقافة العربية ، ثم أكملت هذا العمل العظيم الجمعيات التبشيرية المسيحية . ونتج عن هذا كله اهتمام العرب بتراثهم القومى ، مما أدى إلى بعث القومية العربية ! ! .

ويقول : وقد وجدت اللغة العربية موئلا فى المدارس الأجنبية والمدارس المسيحية الطائفية ، وانتشر تعليمها بين المسيحيين أكثر من انتشارها بين المسلمين) .

هذا التفكير المغشوش الهازل هو معنى القومية العربية عند بعض المؤلفين والصحافيين[1] ، الذين تطفلوا على موائد البحث العلمى ، وأقحموا أنفسهم فى ميادين لا ناقة لهم فيها ولا جمل .

---

(١) يتابع ما ينشره عن مقومات القومية العربية الصحافيون الآتية أسماؤهم : الدكتور محمد مندور ، الأستاذ كمال الملاخ ، الأستاذ أحمد بهاء الدين ، الأستاذ أنيس منصور .

والحق أن هذا الكلام – إن أجدى شيئاً – فهو حجب العروبة الصحيحة عن أذهان بنيها، وتضليلهم وسط متاهات تخطفهم فيها زبانية الاستعمار.

وشىء آخر يجب كشفه، ما معنى هذا الربط المفتعل بين القومية العربية، والتبشير المسيحى، والغزو الفرنسى، مع الإصرار البادى على نبذ الإسلام ظهريا وحسم كل علاقة قريبة أو بعيدة به؟

إن هؤلاء الكتاب الهازلين يغضون من مواقف رجل مثل جمال الدين الأفغانى له آلاؤه على النهضات الحديثة فى ربوع الشرق أجمع، ولا يستحون من إبراز اسم نكرة لخائن انضم إلى الفرنسيين وساعد على استبقائهم فى مصر، ورحل معهم لما طردوا من هذه البلاد؛ لأنه كان يعلم يقيناً أن القتل جزاء أمثاله. فترى مؤلف القومية العربية يقول: « وكما ظهرت فكرة إجلاء الفرنسيين ظهرت فكرة الاستقلال حتى عن تركيا، فتكوّن وفد مصر بزعامة المعلم « يعقوب حنا » وغادر البلاد للمطالبة بالاستقلال عن الدولة العثمانية.

ورغم أن المعلم « يعقوب » نفسه كان ممن مالأ الفرنسيين، وكون الفرق التى تعمل بزعامته تحت إمرتهم، إلا أنه وضع مشروعاً للاستقلال عن تركيا، وهى فكرة جديدة تستحق التسجيل ».

ما الذى يستحق التسجيل فى هذه الفكرة؟

أن يمالىء المحتلَّ الكفور رجلٌ من أبناء مصر، مهما كانت نحلته، وأن يؤلف عصابات تستبقيه فى ربوع هذا الوادى المحروب، ليضرب القاهرة بالقنابل، ويدخل الجامع الأزهر بالخيل؟

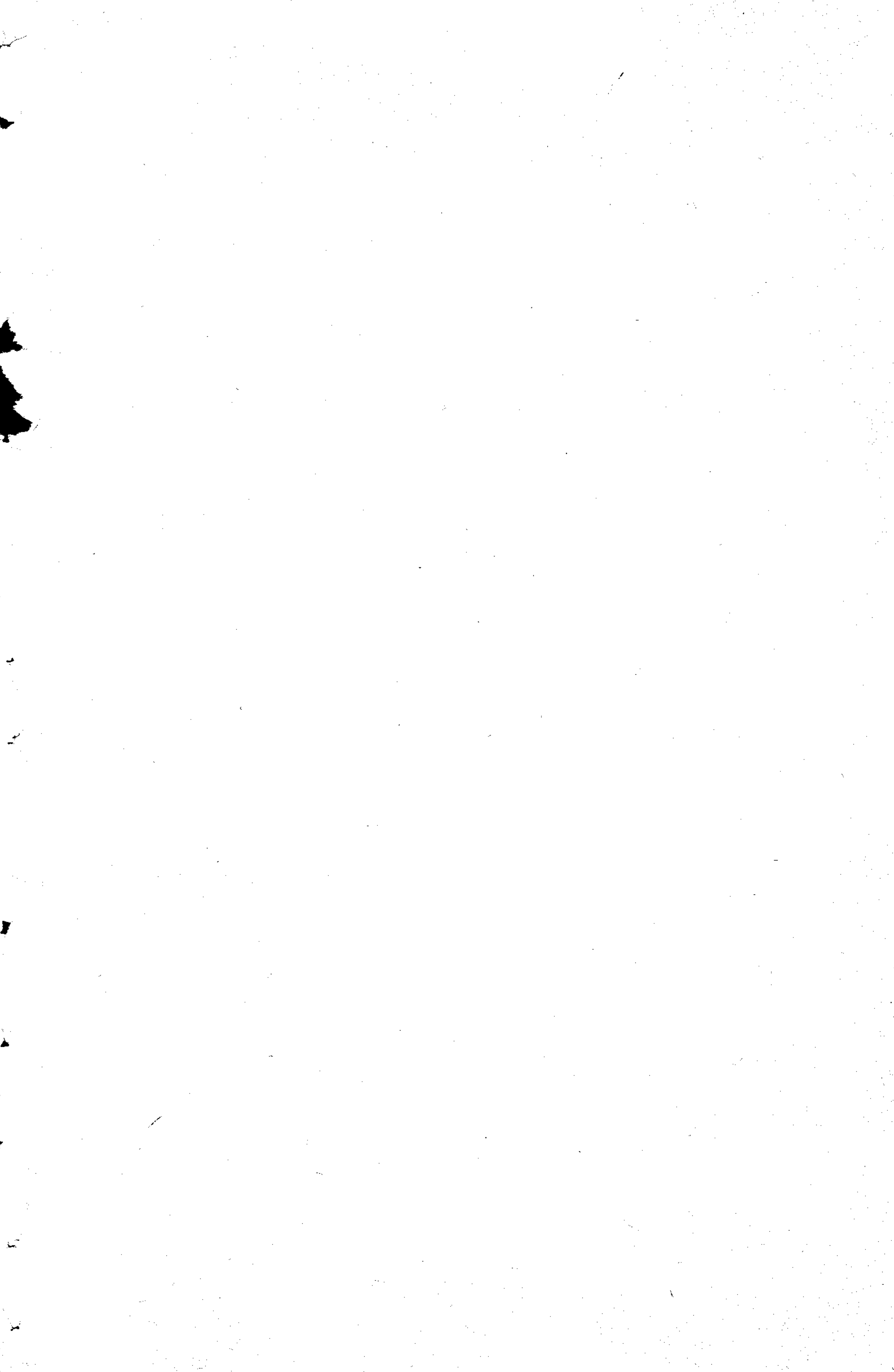
أهذا المسلك يستحق التنويه ، فيدفن ما ينطوى عليه من خيانة وغدر على حين تطوى صحائف الأبطال من قادة العروبة الحقيقيين ، ورجالات الإسلام الكبار ؟

إن ذلك ما دعانا لإخراج هذا الكتاب فى حقيقة المجتمع العربى ، وبيان الدعائم العتيدة التى تنهض عليها العروبة ، وتعتز بها أمة العرب فى القديم والحديث .

محمد الغزالى

— ١ —

لماذا ننوّه بالعروبة ونعلي منارها؟...



١ — العروبة وعاء الإسلام :

فى تاريخ الأمة العربية فترتان متميزتان منفصلتان أتم الانفصال ؛ فترة ما قبل الإسلام ؛ وفترة ما بعد الإسلام .

و بين هاتين الفترتين خط عليه ظلال من بقايا ليل مدبر ، ولمعات من مطالع نهار مقبل ؛ خط يشبه ما يعترض الأفق قبل انفجار الضوء وزحف الشروق . .

هذا الخط الفاصل يضع الخاتمة لعهد عاشه العرب كأى جنس من أجناس البشر ؛ و يضع الفاتحة لعهد يُعتبر ولادة جديدة لهذا الجنس ، و إبرازاً له فى أنحاء الوجود . .

ذلك أنه بظهور الإسلام ، و باختيار العرب حملة له ، واختيار لغتهم لساناً للوحى الأعلى ، وانتهاء صلة السماء بالأرض فى هذه الرسالة الخاتمة ، بهذا كله أصبح للعرو بة شأن آخر ، شأن ضمن لها الكرامة والخلود .

وسواء أكان العرب هم الجنس السامىّ كله ، كما يميل إلى ذلك بعض الباحثين ، أم هم قبيل محدود منه .

وسواء أكانوا منتشرين أصلا بين المحيط الأطلسى والخليج الفارسى ، أم كانت جزيرة العرب هى وطنهم الواسع .

فإن الطور الذى دخل فيه العرب باحتضانهم الإسلام قد أنشأهم خلقاً آخر ، وأدخلهم التاريخ من أبواب شتى ، لا من باب واحد ، ثم استحكمت

الوشائج بين العرب وهذا الإسلام ، فأصبح يعرف بهم ويعرفون به ، لا يغض من ذلك أن بقية ضئيلة من العرب ظلوا على دياناتهم الأولى هوداً أو نصارى .

نعم اقترنت العروبة والإسلام من أمد بعيد ، فى حضارة واحدة وتاريخ مشترك ، وشعر العالم كله بهذا الرباط القوى الجامع ، فهو إذا تصور الإسلام لا يستطيع أن ينسى العرب الذين آمنوا به وطوّفوا أرجاء العالمين برسالته . .

وهو إذا تصور العروبة لا يستطيع أن ينسى الدين الذى أعلى شأنها ، وخلّد أدبها ، وجمع من شتاتها دولة قدمت للإنسانية أزكى المثل وأرجح القيم .

إن الإسلام لا ينفك عن العروبة أبدا ، ذلك أن القرآن الكريم قد اختارت الأقدار له لغة معينة ينزل بها ، وتكون وعاء لهداياته ، وهى العربية .

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِين ، نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِين ﴾ .

وقال : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ، وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ .

وأى قرآن يترجم إلى لسان آخر فهو قرآن على المجاز لا على الحقيقة ، إذ هو تفسير أجنبى للوحى العربى ، أو نقلٌ لما تيسر من معانى القرآن نفسه إلى اللغات الأخرى . . .

أما القرآن نفسه ــ أصل الإسلام ومعجزة نبيه وسياج دعوته ــ فإن الأسلوب العربى بخصائصه الثابتة جزء لا ينفصم عن جوهره ، ولا يمكن التجاوز عنه بتة .

ومقتضى هذا ، أن العرب أدنى الناس إلى فقه الرسالة و إدراك مراميها ، ولعل ذلك معنى الآية : ﴿ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ﴾ ، سواء كان الحكم بمعنى الحكمة أو بمعنى السلطة .

ولا أعنى بالعرب دماً مخصوصاً ، بل أعنى كل مجيد للعربية ضليع فى آدابها خبير بأسرار البلاغة وفنون الكتابة .

فمن أعوزته هذه المواهب ، ولو وُلد فى بطحاء مكة ، فليس بأهل للعروبة .

ومن استجمعها من الزنوج فهو عربى أصيل لا يعيبه لون ولا يؤخره جنس .

روى الحافظ بن عساكر قال : جاء قيس بن مطاطية إلى حلقة فيها سلمان الفارسى ، وصهيب الرومى ، و بلال الحبشى ، فقال : هؤلاء الأوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل (يعنى النبى صلى الله عليه وسلم) فما بَالُ هذا وهذا ؟ (مشيراً إلى غير العرب من الجالسين) فقام إليه معاذ بن جبل رضى الله عنه ، فأخذ بتلابيبه ، ثم أتى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره بمقاله .

فقام النبى صلى الله عليه وسلم مغضباً يجر رداءه حتى أتى المسجد ، ثم نودى الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس فخطبهم قائلا : « يا أيها الناس إن الرب واحد ، و إن الدين واحد ، وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، و إنما هى اللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربى » .

* * *

ليست العروبة إذن تعصباً جنسياً لدم من الدماء أو لون من الألوان . .

كما أنها ليست تعصباً ضد دين أو مذهب ؛ فإن الإسلام يعتمد فى قيامه و بقائه على الحرية المطلقة ، وهو يكافح لمنع الفتنة ، والإكراه ، والاستبداد . . . ولا يحارب ألبتة لنصرة عقيدة أو إرغام أحد على اعتناقها

وقد مات النبى العربى – ودرعه مرهونة عند تاجر يهودى كان يحيا فى المدينة آمناً على نفسه ودمه وعرضه ، بل بلغ من أمانه العجيب أن طلب من سيد العرب رهناً كى يسلفه ما يشاء . . . ولم ير الرسول العربى فى ذلك غضاضة مع اختلاف الدين ، وضعف اليهود ، وسبقهم القديم بالعدوان . . .

* * *

وقد شاء الله أن تكون الجمهورية العربية المتحدة بإقليميها العريقين موئل الإسلام والعروبة ، وحصنهما السامق منذ أجيال بعيدة . . .

ولن ينسى التاريخ مواقف البطولة التى وقفها أجدادنا عندما كادت حضارة العالم تزول ، ومدنيته تطمس ، بعدما انطلق التتار من الشرق ، والصليبيون من الغرب ، يدمِّرون أمامهم كل شىء ، ويخرِّبون كل ما شادت الإنسانية من فضائل ومعالم ، ويطوون تحت أقدامهم العواصم الزاهرة والمدائن العامرة .

إن أجدادنا فى هذه الفترة العصيبة هم وحدهم الذين انتصبوا أمام المردة المنطلقين ، واستطاعوا أن يكسروا السيل الجائح ، وأن يردوه على أعقابه ، فانهزم الهمج المقبلون من الشرق ، وأدبر القراصنة الهاجمون من الغرب .

وبقيت حضارة العالم آمنة فى ربوعنا ، ووديعة احتفظ بها الأسلاف للأخلاف . . .

وكأن العناية العليا تأبى إلا أن نقوم بالدور نفسه ، وأن تجعل منا ـ نحن أبناء الجمهورية العربية المتحدة ـ امتداداً لصنيع آبائنا فى حماية الحضارة والتاريخ .

والثورة التى قامت فى مصر من بضع سنين تعرف هذا الواجب حق المعرفة . .

وفى شرح الدور الذى كتب علينا أداؤه يقول الرئيس جمال عبد الناصر فى كتابه فلسفة الثورة :

« لم يعد مفر أمام كل بلد من أن يدير البصر حوله ، وخارج حدوده ليعلم من أين تجيئه التيارات التى تؤثر فيه ، وكيف يمكن أن يعيش مع غيره » .

وقال : « ليس عبثاً أن التراث الإسلامى الذى أغار عليه المغول وا كتسحوا فى غارتهم عواصم الإسلام القديمة ـ تراجع إلى مصر وأوى إليها ، فحمته ، وأنقذته عندما ردت غزو المغول على أعقابه فى « عين جالوت » .

وقال : « ما من شك فى أن الدائرة العربية هى أهم هذه الدوائر وأوثقها ارتباطا بنا ، فلقد امتزجت معنا بالتاريخ ، وعانينا معها نفس المحن ، وعشنا فى نفس الأزمات ، وحين وقعنا تحت سنابك خيل الغزاة ، كانوا معنا تحت هذه السنابك .

وامتزجت هذه الدائرة معنا أيضاً بالدين ، فنقلت مراكز الإشعاع الدينى ، فى حدود عواصمها من مكة إلى الكوفة . . ثم إلى القاهرة . ثم جمعها الجوار فى إطار ربطته كل هذه العوامل التاريخية والمادية والروحية » .

وقال : « ثم تبقى الدائرة الثالثة . . الدائرة التى تمتد عبر قارات ومحيطات ،

والتى قلت : إنها دائرة إخوان العقيدة الذين يتجهون معنا أينما كان مكانهم تحت الشمس إلى قبلة واحدة ، وتهمس شفاهم الخاشعة بنفس الصلوات .

ولقد ازداد إيمانى بمدى الفاعلية الإيجابية التى يمكن أن تترتب على تقوية الرباط الإسلامى بين جميع المسلمين أيام ذهبت مع البعثة المصرية إلى المملكة العربية لتقديم العزاء فى وفاة عاهلها الراحل الكبير .

لقد وقفت أمام الكعبة وأحسست بخواطرى تطوف بكل ناحية من العالم وصل إليها الإسلام » .

ثم قال : « أخيراً أعود إلى الدور التائه الذى يبحث عن بطل يقوم به . .

ذلك هو الدور ، وتلك هى ملامحه ، وهذا هو مسرحه . . .

ونحن وحدنا بحكم (المكان) الذين نستطيع القيام به » .

هذه الفقرات من كلام السيد رئيس الحكومة تجلو نقطة الانبعاث فى نشاطنا العام ، وتجلو ـ فى غير تعصب ـ الأواصر القائمة بين العروبة والإسلام .

* * *

وقيادة المسلمين لا يصلح لها إلا العرب ، وما ينبغى أن ينازعهم عليها أحد .

فإن الإسلام يقوم على دعامتين جليلتين ؛ هما الكتاب الكريم ؛ والسنة المطهرة . .

والكتاب الكريم ـ كما رأينا ـ نزل بلغة العرب ، والرسول عربى الحياة والتراث . .

وما يفقه حقيقة الوحى ، ومنهج الرسالة إلا خبير بأدب العروبة ، راسخ القدم فى بيانها ، ذواقة لطبيعة البلاغة العربية ، بصير بدلالات الكلام القريبة والبعيدة ، وبمعانيه الأصلية والثانوية . .

يستطيع كل امرىء أن يكون مسلماً عادياً ، ولكن لا يستطيع أن يكون فقيهاً فى الإسلام ، أو أميناً على دعوته ، أو موجهاً لسياسته إلا امرؤ عربى . .

ولا نعنى بالعروبة هنا الجنس ، بل نعنى اللسان .

لا نعنى النسب القريب أو البعيد ، ولا الدم النقى أو المختلط ؛ بل نعنى العرب جميعاً سواء فيهم الصريح الأصل أو المستعرب الذى كان ينتمى إلى أى جنس آخر فى أى قارة من قارات الدنيا .

فما دام قد انسلخ من جلدته الأولى ، ودخل فى هذه الأمة الجديدة مذيبا نفسه فى كيانها ، مندمجاً بأفكاره ومشاعره فيها ، فقد أصبح منها دون نكير ولا غرابة . . .

ونحن نرى أبا حنيفة فقيها عربياً ، وصلاح الدين قائداً عربياً ، وسيبويه ، والزمخشرى ، والرازى ، علماء عربا .

والألوف المؤلفة من الرجال الذين خدموا الإسلام فى شتى آفاق السياسة والثقافة والأدب والتشريع مهما كانت منابتهم الأولى هم عرب ، لا يفترقون فى قليل أو كثير عن العرب الأصلاء من بيت النبوة نفسه . . .

وفى عصرنا هذا نلمح دولة تعد من أضخم دول الأرض ، إن لم تكن أسناها وأقواها ، وهى الولايات المتحدة الأمريكية .

إنه فى بوتقة هذه الدولة الناشئة من قرابة ثلاثة قرون فحسب نشأت جنسية جديدة من أخلاط بشرية بعيدة المناسب والدين واللغة .

ومع ذلك فهذه الجنسية الأمريكية الجديدة تفردت بخصائصها ووجهتها ، وأصبحت وطناً واحداً لشعب واحد .

إن هذا مثل صغير للعمل الضخم الهائل الذى صهر الإسلام به شتى الأجناس والألوان فى دين واحد ولغة واحدة ، فأصبحت هذه الأمة بتكوينها الجديد طوراً آخر للعروبة بعدما اتسعت دائرتها وتحددت وظيفتها فى العالم .

ونرى لزاماً علينا هنا أن نقول : إن هذا الشرف المتاح للعروبة لم يجئها من نسبها الأرضى ؛ بل جاءها من رسالتها السماوية .

فإن أجناس البشر لا يرجح بعضها البعض الآخر بشىء .

وما يظنه جنس ما من أنه أرقى من جنس آخر محض هراء . .

ونحن العرب ما نعطى أنفسنا الحق فى قيادة روحية أو سياسية لأحد من الناس إلا لأن الله اصطفى لغتنا للحق الذى أوحاه ، وبعث منا النبى الذى ارتضاه .

ويوم نفخر بأننا عرب وحسب ، فإننا نسقط عن المكانة التى رشحنا لها ، ونعطى الآخرين الحق فى الابتعاد عنا ، ونخون بذلك الأمانة التى وكلها الله إلينا . . .

إن مطالبتنا بحق العروبة فى قيادة العالم الإسلامى كله ؛ وبحقها فى إرشاد الجنس البشرى أجمع يعود إلى تلك المواريث المقدسة التى آلت إلينا ، فخلدنا بها ، وسمت بسموّها مكانتنا . . .

والأخوة الإسلامية التى تجمع بين مختلف الأجناس الداخلة فى الإسلام لاتخدش هذا المبدأ ؛ فإن للقيادة فى أى ميدان خواص لابد أن تتوفر لذويها .

وقيادة المسلمين من خواصها الأولى ، عروبة الشعور والتفكير واللغة والآراء .

وقد حاول ناس من الترك والفرس وأشباههم أن يقودوا الإسلام مع بقائهم على تركيتهم وفارسيتهم ، أو مع إرتداء لباس العروبة على جلدة فارسية وتركية ، فكانت هذه المحاولات سبب بلبلة علمية وسياسية لايزال الإسلام يتعثر إلى اليوم فى عقابيلها .

وعجز هؤلاء الأعاجم عن القيادة الصحية لايرجع إلى دَخَلٍ فى إيمانهم فإن حبهم للإسلام مكين ، وولاءهم له ظاهر .

بيد أن العاطفة الحارة لاتغنى عن الفهم الحصيف والبصر النفاذ .

يحكى أن تركيا نام فى فراشه على عادته كل يوم . ثم تذكر بغتة أنه وضع المصحف فى نافذة عند قدميه ، فنهض مذعوراً وانتضى سيفه ، ووقف إلى جوار النافذة وهو يهتف : مصحف شريف ..!!

لكن هذه العاطفة النبيلة تجاه المصحف لم تمكن الأتراك من غرس الإسلام على أسس صحيحة فى شرق أوربا ، ولا من استبقائه صحيحاً فى بلاده نفسها .

وأنت تعرف أن عمر لما فتح بيت المقدس أبى أن يصلى فى كنيستها مخافة أن يتخذ المسلمون مصلاه مسجداً .

أما محمد الفاتح فعندما دخل القسطنطينية ، حول كنيستها الكبرى (أياصوفيا) إلى مسجد جامع .

وقد يعتذر البعض للسلطان التركى بأن مسلكه كان على مبدأ المعاملة بالمثل .

ولسنا بصدد مناقشة هذه السياسة . ولكننا نريد أن نؤكد الحقيقة التى نقررها هنا : وهى أن العرب وحدهم هم بيئة القيادة الصحيحة للمسلمين ، وأن على الحكومة الإسلامية أن تحافظ على خصائص هذه البيئة ، إذا أرادت أن تبقى ينابيع الإسلام صافية لا يشوبها كدر ، وأن تبقى دعايته مجدية لا يعتريها عوج .

* * *

الحرص على بقاء الإسلام نقى الجوهر قريب المأخذ ، مستجمعاً أسباب القبول التى أتى بها من عند الله هو السر فى جعل قيادته عربية واضحة العروبة .

فإن الأعجمين قد يدركون مظاهره وحدها ، وقد تدق عليهم حكمة التشريع فى أغلب الأحكام ، فيتشددون حيث يمكن التيسير ، أو يشتطون حيث ينبغى الوقوف . .

وقد ثار النزاع قديماً بين بيوت عربية خالصة و بيوت مستعربة من أصول شتى ، وسجل التاريخ بعضا من أدوار هذا الصراع فى تنازع بين العرب والفرس ، أو فى النزعات الشعوبية الأخرى . وسنفرد لذلك الموضوع فصلا خاصاً .

ولكن الذى نسارع إلى بيان خطره ، ونراه شديد اللصوق ببحثنا هذا ، هو انفراد الترك بقيادة العالم الإسلامى أحقاباً طوالا مع حرصهم الشديد على بقائهم كما هم . .

ونحن نكره التحامل ، ونرفض تجريد جنس ما من فضائله ، ونحفظ للترك مواقف أحسنوا بها إلى أنفسهم ودينهم .

بيد أننا نذكر آسفين أن فترة القيادة التركية للإسلام كانت وبالا على الإسلام وأمته الكبيرة ، وأن العرب والعجم والهنود والسودان فى ظل هذا الحكم المغلق جمدوا جمود الموت ، وإن العلل التى أصابت المسلمين فى القارات القديمة كلها ، وطوت أعلامهم ، ونشرت الجهالة فى ربوعها وغلقت أبواب المدارس ، وطوت مجالس البحث ، وقضت على مظاهر العمران .. هذه العلل بدت واستفحلت فى ظل الترك .

ثم سقط العالم الإسلامى بقضه وقضيضه فى قبضة الاستعمار نتيجة الركود التام الذى أماته مادياً وأدبيا طول هذا العهد الأشأم .

ونحن ـ وقد وعينا تجارب الماضى ـ نحب أن نبنى النهضة الإسلامية على دعائم عربية خالصة ، وأن نتيح للأمة أداء واجبها العتيد ورسالتها الكبرى .

وبذلك يستعيد العرب أمجادهم ، وتتهيأ للإسلام ـ بهم ـ قيادة أحكم وأبصر

والربط بين العروبة والإسلام قضية بديهية ، وللأستاذ إسماعيل مظهر كلام فى هذا الرباط من الخير أن نثبته .

فإن هذا الأديب بدأ صدر شبابه داعية لمذهب النشوء والارتقاء ، وكانت مجلته « العصور » تخاصم الدين كله ، وتصرف الشباب عنه بإلحاح .

ثم شاء الله أن يعود صاحبها إلى الإسلام ، وأن يتعرف على ربه تعرف الباحث اليقظ ، ولم يجد الرجل عسرا فى أن يلمح الصلة بين العروبة والإسلام ، فكتب يقول تحت عنوان « الإسلام والقومية العربية » :

ينبغى لكل عربى أن يكون فى دخيلة نفسه عربيا روحا وعقلا ، مثله

الأعلى آداب العرب وآداب الإسـلام ؛ سياسته الدنيوية سياسة العرب وسياسة الإسلام . . .

وإنما أقرن الـكلام فى العروبة بالإسلام ؛ لأن الثابت الذى لا لجاج معه ولاريب بداخله . أن القرآن إذا نزل بلغة العرب . فقد نزل بأخلاقهم وصفاتهم الروحية العليا ، فالعربى النصرانى مسلم بصفاته العربية والمسلم الهندى أو الفارسى عربى بما فى الإسلام من روح العرب (١) .

ليس فى مستطاعنا أن نفصل الإسلام عن العروبة أو نفصل العروبة عن الإسلام ، فإن الرابطة التى تربطهما رابطة طبيعية كالرابطة بين نظام الأجرام السماوية وقوة الجاذبية .

وإنما كان الواجب علينا أن ندرك الوضع الإسلامى الصحيح من حيث إنه دين جعل من أجل الإنسان ولم يجعل الإنسان من أجله . ومن هنا ندرك أن الإسلام أنزل لصلاح البشر جميعاً ، وإنه من ناحية أنه دين فهو عقائد يتقيد بها المسلم ؛ وأما من حيث إنه أخلاق ومعاملات فهو يعم الناس أجمعين .

فالمسلم ينبغى له أن يعتقد أن حريته مساوية فى القيمة لحرية غيره ، وأن

---

(١) الزعم بأن الإسلام دين عربى الخصائص والوجهة لانصيب له من الصحة ، والصحيح أن يوصف الإسلام بأنه دين إنسانى الخصائص والوجهة ، وأنه يسوى بين أجناس البشر قاطبة فى الحقوق والواجبات والتكاليف والأجزية .

وقد روج دعاة البعث العربى القول بأن الإسلام نهضة عربية خالصة ، وبالتالى يعدون محمداً زعيما عربياً فحسب لاصلة له بالوحى ، ولا تربطه بالسماء شريعة ، وهذا هو الـكفر عينه .

إن الإسلام شرف العرب يوم نزل فيهم وسار بهم .

وسترى فى الفصل المقبل طبيعة هذا الاختصاص .

استقلاله مساو فى القيمة لاستقلال غيره من غير تفرقة بين الناس على اختلاف عقائدهم ونحلهم .

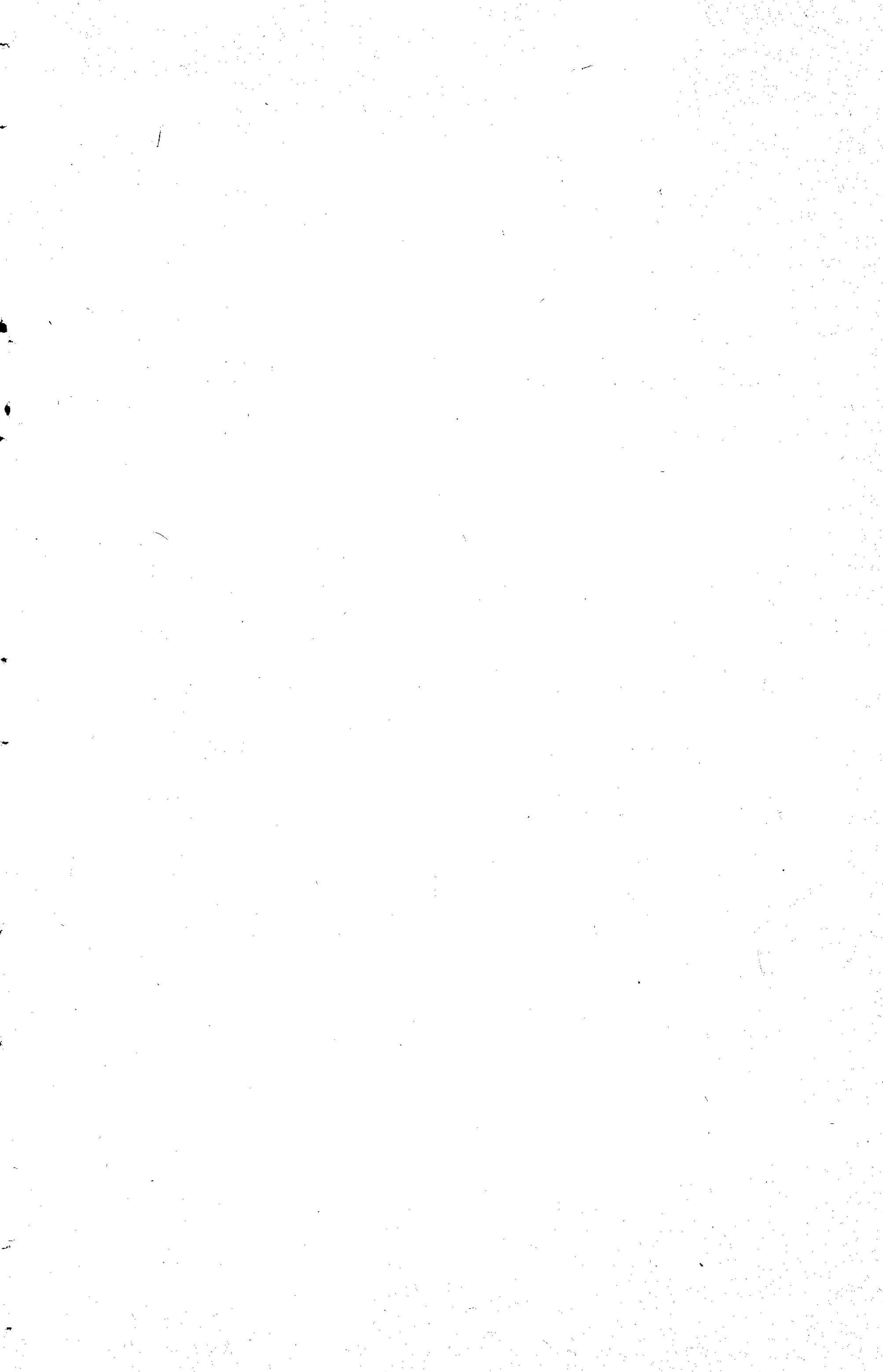
وأى شىء يطلب من دين أو شريعة أكثر من هذا ؟

على هذه الصورة ندرك من الإسلام أنه دين تطور ، مادام من مقتضياته أن يتابع الفطرة ، ويلاحظ نشوء الأنظمة الاجتماعية ، بما فيه من روح المرونة والطواعية لحاجات البشر على مختلف العصور .

فالإسلام مثلا لايعادى الاشتراكية بل إنه يدعو إليها ، ويستجيب لها

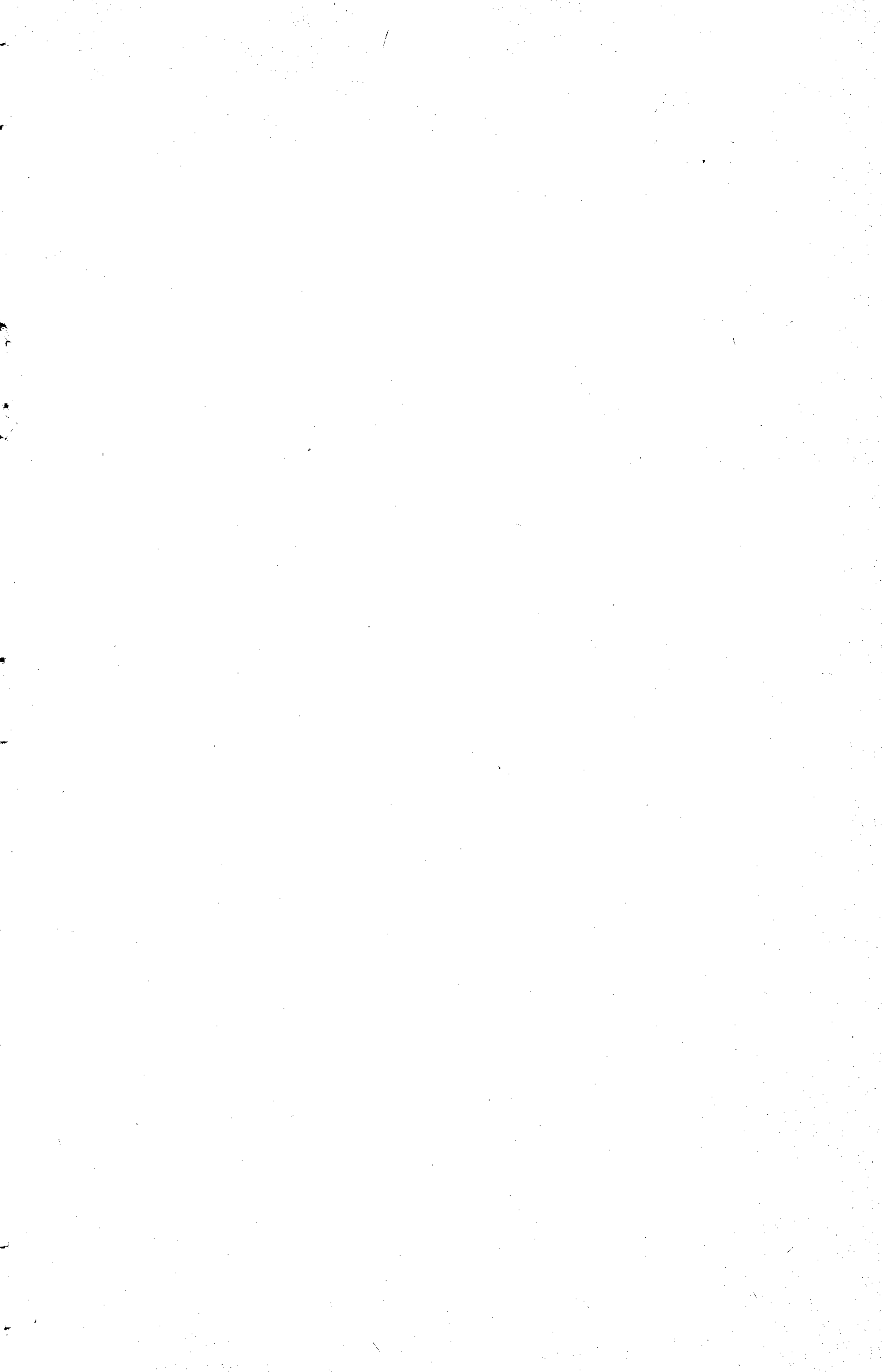
إذا أصبح النظام الاشتراكى صالحاً لنظام المجتمع البشرى ، ولكنه إلى جانب هذا يحترم حرية الفرد والكرامة الإنسانية . لايدعو إلى حرب الطبقات وما إلى حرب الطبقات من نظريات لم يقرها إسلام ولو اعترف بها واقع .

أما الأسس الإنسانية التى نطلبها للقومية العربية فأرى أنها مكفولة بمبادىء الإسلام منظوراً إليه من الزاوية التى شرحتها قبلا . وأعتقد أنها الحق وأنها الواقع .



— ٢ —

خصائص العروبة التي رشحتها لاحتضان الرسالة الخاتمة



اصطفى الله العرب لأداء رسالته العظمى ، وتبليغها للناس مابقيت الحياة والأحياء ، ومنحهم بهذا الاصطفاء فضلا غير منكور .

ونحن عندما نتأمل فى أحوال هذه الأمة عند ترشيحها للبعثة نجدها أحق من غيرها بوراثة الكتاب الكريم والقيام على هداياته .

وقد كان العرب يأنسون من أنفسهم نقاء المعدن وصفاء الطبيعة ، ويرمقون غيرهم من أتباع الديانات والحضارات الأخرى ، فلا يرون لديهم مايبعث على الإعجاب أو الإحترام ، أفكان هذا الشعور غروراً لايستند إلى واقع ؟
سنرى حقيقة ذلك فى هذا الفصل من كتابنا ..

والذى نؤكده الآن أن العرب كانوا يرون أنفسهم أقوم طباعاً وأنفذ أفكاراً ، وأعصى على الضيم ، وأنأى عن الدنية ، وأقدر على عظائم الأمور ونيل الأمجاد .. وقد نوه الله ـ جل شأنه ـ بذلك الاعتداد العربى فقال ـ يستثير الهمم لحمل رسالته ـ : ﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُون ، أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ، أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾ .

وقال ـ يوبخهم على تراخيهم فى الإجابة ومكرهم بالداعية : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ

نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُورًا . اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّءِ وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ .

وهذه الآيات واضحة الدلالة فى أن العرب كانوا يعتبرون كفتهم أرجح فى ميزان المواهب والملكات من اليهود والنصارى والمجوس ، أو بتعبير آخر من الروم والفرس ومن دخل فى سلطانهم أو خرج عنهم .

ويصور الجاحظ نظرة العرب إلى أنفسهم فيقول :

للعرب من صدق الحس ، وصواب الحَدْسِ ، وجودة النظر ، وصحة الرأى مالا يعرف لغيرهم ، ولهم العزم الذى لايشبهه عزم ، والصبر الذى لايشبهه صبر ، والجود والأنفة والحمية التى لايدانيهم أحد فيها ، ولا يتعلق بها رومى ولا هندى ولا فارسى .

وفيهم أيضاً خصلة لا تصاب إلا فيهم .

وذلك أن سفلة كل جيل ، وغفلة كل صنف إذا اشتد تشاجرهم وطالت ملاحاتهم ، وكثر مزاحهم ، وشاعت الدعابة بينهم . وجدتهم يخرجون إلى ذكر الحرمات ، وشتيمة الأمهات ، واللفظ السىء والسفه الفاحش . ولست بسامع من هذا حرفاً فى البادية ، لا فى صغيرهم ولا فى كبيرهم ، ولا جاهلهم ولا عالمهم .

وليس فى الأرض صبيان فى عقول الرجال غير صبيانهم ، وكل شىء تقوله العرب هو سهل عليها أو كطبيعة فيها . وكل شىء تقوله العجم فهو تكلف واستكراه .. »

والعرب شعب ذكى قوى ، وقد استجمعوا على عهد البعثة كل الخلال التى

تنجح بها رسالة عظمى ، بل إن ماتتطلبه دعوة ضخمة كدعوة الإسلام لم يكن يتوفر إلا فى هذه الجزيرة التى عبأتها الأقدار بشتى القوى والمواهب .

ولنتحدث عن أول هذه المرشحات .

١) الناحية النفسية :

بلغت قوة الفرد مداها بين العرب ، وشعر كل ساكن فى هـذه الصحراء أن له من العزة ، وتمام الشخصية مايجعله إنساناً يفرض نفسه على ماحوله ، ويأخذ امتداده المطلق فى كل ناحية . وقد جعلهم هـذا الشعور أصحاب حساسية شديدة بأنفسهم ، وبما عليهم من واجبات وما لهم من حقوق ؛ وربما وصلوا فى تلك العاطفة إلى حد التطرف على نحو ماقال شاعرهم :

لو كان فى الألف منـا واحد فَدَعَوْا
من فارس ؟ خالهم إياه يعنونا

أو كما قال الآخر :

إذا القوم قالوا : من فتى خلت أننى
عُنيت فلم أكسَل ولم أتبلد

وهذه الخصلة تجعل صاحبها رجل صدق ووفاء ، إذا قال كلمة وقف عندها ، فلم يغلبه نسيان ، ولم تزلَّه رهبة ، والدعوات تقوم أول ماتقوم على أمثال هؤلاء الرجال ...

والبيئة العربية طبعت أبناءها على إلف الصعاب ، وقلة المبالاة بالشدائد ،

ومواجهة الموت ببسالة ورضا،أو برغبة وابتسام،إنهم لايعبدون الحياة ، أو يقبلونها على أى أحوالها كلا ، إما لانت لهم أو بانوا عنها ، ولن يقبلوها على ضيم أو حرمان.

ومما يصور هذه القدرة على استقبال الموت قول دريد :

أبى الموت إلا آل صمة إنهم ... أبوا غيره والقدر يجرى إلى القدر
فإنا للحم السيف غير نكيرة ... ونلحمه حيناً وليس بذى نكر
قسمنا بذاك الدهر شطرين بيننا ... فما ينقضى إلا ونحن على شطر

وقول الآخر :

شددنا شدة فقتلت منهم ... ثلاثة فتية وقتلت « قيْنا »
وشدوا شدة أخرى فجروا ... بأرجل مثلهم ورموا « جوينا »
وكان أخى جوين ذا حفاظ ... وكان القتل للفتيان زينا

وَتعوُّدُ التضحية بالنفس مؤهل للسيادة ، و باب إلى امتلاك الحياة كما قيل ، « أطلب الموت توهب لك الحياة » .

والرسالة التى تقوم أول عهدها على كفاح الطغاة ، ولقاء كيدهم وسخطهم أحوج ماتكون إلى هذه الخليقة .

وكما كان العربى شجاعا كان كريماً مسماحاً ، يتهيأ لمقابلة أضيافه وهو متهلل الأسارير ، وطيب النفس .

فقام أبو ضيف كريم كأنه ... وقد جد من فرط الفكاهة مازح
إلى جذم مال قد نهكنا سوامه ... وأعراضنا فيه بواق صحائح

والكرم طبيعة عمت العرب ، وشاعت فى أغنيائهم وفقرائهم .

نصبوا بمدرجة الطريق قدورهم ... يتسابقون إلى قرى الضيفان

ويكاد موقـدهم يجود بنفسه حُبَّ القرى حطباً على النيران

وبذل المال مع الاستعداد لبذل النفس عند أول نداء ضمان وثيق انجاح أية نهضة .

ومن خلائق العرب غيرتهم الشديدة على الأعراض ، وحرصهم البالغ على صيانة الحريم ، وربط ذلك بكرامة الفرد والأسرة ، وذهابهم فى هذا المضمار إلى حد لاتعرفه أمة أخرى .

وقد بلغ الهوس بنفر منهم أن كره البنات ، ووأدهن أطفالا خشية العار ، أو خشية العجز عن الارتزاق .

وهذا طور من القسوة يخرج البشر إلى طور الحيوان .

وكم يقسو البشر بعضهم على بعض لنفخة كاذبة حتى ينسلخوا من إهابهم ويلبسوا جلود الذئاب ، من عصور مضت حتى عصرنا هذا . .

على أن وأد البنات ظهر لماما فى بعض القبائل ، وبرئت منه جملتها .

وجوانب النفس العربية — على الإجمال — تفيض بكثير من معانى القوة والصراحة والصرامة والأنفة ؛ وهى خصال إذا صلح توجيهها صنعت العجائب .

وذاك ما تولاه الإسلام .

(٢) الناحية الاجتماعية :

وامتياز العرب بالصفات السالفة يزيده التماعا خلو بيئتهم من الفساد المعقد الذى زخرت به البيئات المجاورة .

فليس فى هذه البيئة العربية الـكهنوت الدينى ، ولا النظام الإقطاعى ، ولا الاستبداد السياسى . مما عرفته الشعوب الأخرى ، وترك فى كيانهما المادى عللا جساما .

نعم خلت الجزيرة من الملوك المتوجين وكان نظامها السياسى أشبه بمجموعة من القيادات المحلية المتناثرة هنا وهناك .

ولم يكن سيد القبيلة جباراً فيها يهضم من حوله ؛ بل كانت القبيلة تحمى كل امرىء فيها ، وتضرب سياجاً منيعاً حول حرمانه .

* * *

ما الذى كان يحمى الدماء والأموال والأعراض فى تلك الفجاج الفسيحة ؟ مع العلم بأنه لم تـكن ثم سلطة مرهوبة ولا قوانين مكتوبة !

إن العصبية الهائلة التى شدت أفراد كل قبيلة بعضهم إلى بعض ، وجعلت من الجماعة كيانا متماسكا موصول الشعور ، هذه العصبية القبلية ، كانت محور النظام الذى شاع فى تلك الأرجاء البدائية .

فالجماعة مسئولة عن الفرد ، والفرد مسئول عن الجماعة .

وفى الخير والشر والخطأ والصواب كانت هذه العصبيات تنطلق من مكامنها متلاحمة لا يردها شىء . . .

وقد أتاح هذا النظام لـكل أحد من القبيلة قدراً من الأمان يحيا فى ظلاله وافراً إذ أن العدوان عليه ليس عدوانا على امرئ فذ ، بل على قبيلة بأسرها .

وامتدت هذه المنعة من الأفراد إلى أى غريب يدخل فى جوار القبيلة ويلتمس حمايتها .

وإلى هذا النظام السائد يرجع ما ظفرت به دعوة الإسلام أول أمرها من محافظة وبقاء .

فإن بنى هاشم رفضوا أن يخلُّوا بين النبي وبين أعدائه ، وتجمع مؤمنهم وكافرهم على سواء فى الدفاع عنه والوقوف دونه .

ورأوا أن تسليمه لخصومه عار يلحق أهله كلهم ، وإن كان فيهم من لا يؤمن برسالته ولا يستجيب لدعوته . .

وقد رأينا العباس وهو كافر ــ يحدث الأنصار قبل انتقال الرسول إلى بلدهم فيقول : إن محمداً هنا فى عزوة تنافح عنه ، فإذا لم يلق مثل هذه الحماية من أهل المدينة فلا معنى لخروجه . . .

ورأينا أبا لهب ، وقد نزل فيه قرآن يلعنه ، يعرض على النبي أن يقوم منه مقام أبى طالب بعد وفاته ، فيتولى نصرته ومؤازرته .

ورأينا المطعم بن عدى ــ وهو مشرك ــ يقبل أن يدخل الرسول فى جواره وهو عائد من الطائف عودة محزنة متعبة .

ويخرج هو وبنوه فى سلاح كامل ليقاتلوا من يحاول النيل من محمد .

إن هذه النخوة الغريبة كفلت لوناً من الحرية السياسية والكرامة الفردية لم يعرف عصرئذ فى أية دولة أخرى .

ولو أن داعية للتوحيد ظهر فى ربوع الروم ، أو أقطار الفرس لأصدر كسرى أو قيصر أمراً باعتقاله ، أو ضرب عنقه ، فانقضى ، وانقضت دعوته دون أن يسمع بها أحد .

ولو أنه نال فرصة الحياة أياماً مااستطاع أن يربى على مكث جيلا من الرجال الذين رسا اليقين فى صدورهم ، وتلقوا دروساً فى التربية والتشريع . كان العالم أحوج مايكون إليها فى مستقبله البعيد .

* * *

ولم تعرف بطحاء مكة ولا ما حولها الكهانة الدينية التى تقترن بالنصرانية وتسير أبداً فى ركاب الكنيسة .

نعم توجد قبائل قد تنصرت فى الشمال والجنوب، كما أن هناك فصائل يهودية تسربت إلى جوف الصحراء ، وتهوَّد فى جوارها نفر من العرب ؛ لكن الوثنية كانت الصبغة السائدة فى أرجاء الصحراء .

ويمكننا القول بأن الطبيعة العربية غلبت على خلائق كثير من اليهود والمتهودين ، والنصارى والمتنصرين ؛ فلم تستطع هذه الديانات اجتذاب جمهرة العرب إليها ، ولا هى حيث استقرت بقيت لها نظمها الكنسية المعروفة فى بلاد الروم مثلا ...

وكانت أمية الكتابة وأمية التدين تستولى على تلك البقاع الشاسعة وتجعل قلوب أهليها وأذهانهم غفلا .

والخبراء بعلل التدين الفاسد يعلمون أن الجماهير الساذجة أو المخرفة أيسر اقتيادًا للحق من الجماهير التى اعتنقت أفكارًا فيها مزيج من حق و باطل ؛ فإن تعصبها لما تعرف من حق يجعلها تعتذر لما ورثت من باطل ؛ فهى قلما تتحول عنه بسهولة .

إن الأرض الخالية أعون على سرعة البناء من الأرض المليئة بالأنقاض ؛

والواقع أن تعصب اليهود لما لديهم من مواريث ، وتعصب النصارى لما آل إليهم من تثاليث يجعل بدء الرسالة فى غيرهم أحكم . .

هل يعنى ذلك أن الوثنية لفظت أنفاسها دون عناء ؟ . . كلا ، فإن عبدة الأصنام جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ، وانتضوا السيف ليخرسوا به الحجة ؛ ولكن الإسلام الذى اكتسب أنصاره بالاقتناع واليقين تغلب على هذه الصعاب ، واستمكن من مدِّ رواقه على أنقاض الشرك المدبر .

واشتعل هذا الكفاح أمداً طويلا حتى استقرت الأمور له بعد لأى . .
بيد أن حرب الكلام والسنان مع أولئك الوثنيين كانت أبعد عن الدس والالتواء من الحروب التى نشبت للأسف مع أهل الكتاب ، سواء فى الجزيرة أو ما وراءها ، وكلفت الإسلام عناء شاقاً .

* * *

وكان فى عرب الجزيرة الغنى والفقر ، شأن أى مجتمع إنسانى ؛ ولكن الصحراء الوسيعة خلت من نظام الإقطاع ، وما يتبع الإقطاع من رق وهوان ، وترف وانتفاخ .

إن طبيعة العلائق بين السادة والأتباع فى الجزيرة كانت أدنى إلى الكرامة الإنسانية من الأوضاع التى عرفت فى أقطار أخرى . . ! !

ومنطق العرب فى هذا ما قاله الشاعر :

جفانى الأمير ، والمغيرة قد جفا   وأمسى يزيد لى قد أزورّ جانبه

وكلهم قد نال شبعاً لبطنه   وشبع الفتى لؤم إذا جاع صاحبه

وجو الحرية الطليق فى هذه الوهاد والنجاد ، أتاح لصنوف الناس مستوى من الخلق المفعم بالإباء والحميَّة لا نظير له فى أقطار أخرى .

* * *

قد يظن ظان أن ما نقلناه من شواهد التضحية و الإيثار والاعتزاز ، أو من معالم الكرامة الاجتماعية والسياسية ، ليس أكثر من صور جزئية ، أو أحوال محلية لبعض الأفراد والقبائل ، ولا يمكن الاستدلال بها على واقع المجتمع العربى فى هذه الأعصار . .

ونحن لا نزعم أن العرب كلهم فى كرم حاتم ، أو شجاعة عنترة .
ولكننا نسوق الشواهد التى ذكرناها بياناً لوجهة الأخلاق فى تلك البيئة البدائية .

فإن التقاليد فى أمة ما تأخذ سمتها الكامل فى سلوك نفر من أبنائها ، وتبقى بعد ذلك مُثُلاً علياً للجماهير التى تجاهد لبلوغها ، وتحب أن تعرف بها . .

وقد كان العرب فى جملتهم من النواحى النفسية والاجتماعية على ما وصفنا من سخاء و إباء ، واعتداد بالنفس والقبيلة .

ومن هبط منهم عن هذا عُرف بسوأته تلك ، وسقطت حرمته عند نفسه ، وعند غيره . .

* * *

ج – صفاء الفطرة العربية وخلوها من التأثر بثقافات فلسفية مناهضة . . !

قلنا إن العرب أمة أمية ، لا تشيع فيها الكتابة ، ولا تنتظم فوق رقعتها المدارس ، على عكس ما كان شائعاً بين الروم والفرس .

ومع أن أمية القراءة والتعليم غلبت على أكثر العرب ، فإنهم امتازوا بشيء كثير من حدة الفهم ، وصفاء الذهن ، وإحكام التعبير ، وسرعة الإدراك ، مع سهولة فى العيش ، و بساطة فى البيئة ، و بعد تام عن التصنع والمداجاة . .

وتلك خلائق لم تعهد فى غيرهم على النحو الذى ظهرت به فيهم .

و إنك لتجد أعرابياً مؤمنا يُسأل عن الله كيف عرفه ؟ . . فيقول : البعرة تدل على البعير ، والأثر يدل على المسير . فأرض ذات فجاج ، وسماء ذات أبراج ، أفلا تدل على الخبير البصير ؟

وهذا منطق السجية المستنيرة ، والطبع المستقيم .

وربما كان هذا الكلام أثر ظهور الإسلام ، واهتداء البصائر بنهاره الساطع ، لكن طبيعة العربى السهلة تتجلى فيه .

و إلى هذه الطبيعة السهلة ، و إلى أنها لا تألف النقائض ، ولا تسيغ الالتواء

الفكرى ، نرجع بنجاح الإسلام فى حجاجه مع أولئك العرب عند ما كانوا مشركين .

ذلك أن القرآن جاد لهم فى شأن آلهتهم التى أشركوها مع الله ، ألها نصيب فى الخلق والرزق والتدبير ؟ فكانت الإجابة المسددة : لا .

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ . أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبصارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الحىَّ مِنَ الميتِ ويُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحىِّ . وَمَنْ يُدَبِّرَ الْأَمْر فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الحقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الحقِّ إِلاَّ الضَّلاَلُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ .

ولو كان غيرهم من أصحاب الفلسفات الأخرى لكانت إجابته مليئة بالعقد والأغاليط والعجر والبجر . . .

إن فلسفة التثليث ـ وهى ضرب من التفكير البشرى غلب على ديانة عيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم ـ وجدت جماهير من الناس تسيغها ؛ ولما كان إمرارها من الذهن العادى صعبا . فقد أجريت عدة فتوق فى الذهن الإنسانى حتى يسمح لهذه الفلسفة بالمرور .

ومع تلك الثغرات المصنوعة فى الفكر كى يقبل مالا يعقل ؛ فإن أصحابها اختلفوا على أنفسهم اختلافا دامياً .

كيف يتولد قديم من قديم ، ويكون الاثنان واحداً ؟

بل هم على ما زعموا ثلاثة قدماء ! لأن ثم وسيطا بين الأب والإبن هو الروح القدس !

ثم كيف بعد ذلك تتصور العلاقة بين تلك الأقانيم المختلفة ، والتى هى أولا وآخرا شىء واحد ؟

أهى طبيعة واحدة ، ومشيئة واحدة للأب والابن ، أم هما مشيئتان وطبيعتان ، أم طبيعة واحدة ومشيئتان ؟ ؟

لقد ظهر الإسلام ، والخلاف ناشب بين الرومان من ناحية ، وجمهرة أهل الشام ومصر من ناحية أخرى فى تلك المسائل المحيِّرة . . .

أما عرب الجزيرة فكانوا بعداء عن هذه المجادلات التى لا توائم أذهانهم ، ولا تصاحب أمزجتهم ، ولا طاقة لهم على الخوض فيها .

صحيح أن النصرانية وجدت لها بعض المعتنقين فى اليمن ، وأسفل الشام ؛ ولكن هذا الاقتناع المحلى لم يتجاوز حدوده الضيقة ، خصوصاً بعد ما فشلت حملة أبرهة على مكة ، و بادت جيوشه قبل أن تهدم البيت الحرام .

على أن نصارى العرب فهموا التثليث بصورة تقارب وثنيتهم الشائعة ، فتصوروا العلاقة بين أطراف الأقانيم تشبه العلاقة بين أفراد أسرة مقدسة ، توصف مريم فيها بأنها أم الإله الابن ، وصاحبة الإله الأكبر ! !

وقد نفى القرآن هذا النسب المدعى : « بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ ، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » .

إن العقبات أمام التوحيد المطلق الذى دعا إليه محمد ، كانت ميسورة التهشيم

فى الوثنية العربية ؛ لأن طبائع العرب أسلس قيادا للحق ، وأسرع عزوفا عن الباطل ؛ وذلك لأن سجاياهم النفسية والعقلية لم تعوج مع الفلسفات الدينية التى التاثت بها ، واستنامت لها جماهير أخرى .

* * *

فإذا ولينا وجهنا شطر الفرس ، وجدنا فلسفات دينية أخرى يستحيل أن يرتضيها العرب لأنفسهم ، أو أن يحيوا وفق أسلوبها الشرود .

كان الفارسيون ، ومن خضع لهم صرعى عدة نزعات مضطربة .

فهناك « الزرادشية » المجوسية التى اعتنقتها السلطات الحاكمة ، وشاعت فلسفتها الممسوخة بين كثيرين من الأعاجم .

وهـذه الفلسفة الدينية لا تعتمد على إيمان حق ، بل ليس فيها أثارة من إيمـان .

وقد بلـغ الانحراف فى تعاليمها أن أفتى طاغيتها بأمر عجب ، ذلك أنه جعل زواج الرجل بأمه أفضل من زواجه بغيرها من النساء ، وجعل أولاده منها آثر وأزكى . . . ! ! !

ألا ترى جهالة العرب أفضل من هذه الحضارة . . ؟

وانتشرت « المزدكية » بين طوائف من المنحلين والصعاليك ، وهى مذهب يجعل النساء والأموال شيوعاً بين الخلق ، ويهدم كل الحدود التى تقوم بها المجتمعات . .

ولعل هذا المذهب قريب فى آثاره من الوجودية الغربية ، ومن الشيوعية الشرقية ، وهى مذاهب لها فى عصرنا عشاق وأتباع .

والعرب فى جاهليتهم كانوا أنظف نفوساً ، وأنقى صحائف من أن يميلوا إلى تلك النحل الساقطة ، أو يسمحوا لها بالتسرب إلى بيئتهم .

* * *

إن التدين الباطل قد يعز على العلاج ، لأن صاحبه فاسد يعد نفسه صالحاً . . .

ومن ثم لا يعرض نفسه على طبيب ، ولا يقبل من طبيب أن يسوق له شفاء .

وقد ندد الحديث بأقوام يجيئون آخر الزمان « تتجارى بهم الأهواء ، كما يتجارى الكلب بصاحبه ، لا يدع منه عرقا ولا مفصلا » ، وهذا النوع من الناس قليل الصلاحية ، أو عديم الصلاحية ، لتحمل رسالات الخير والنهوض بتبعاتها ، وتلك كانت أحوال كثير من الشعوب التى أضلتها التعاليم الخاطئة ، والفلسفات المنحرفة .

أما العرب فى صحرائهم ، فإن دينهم الخرافى لم يملأ شعاب قلوبهم بالأهواء التى تطرد الحق ، لقد كانت نفوسهم أشبه بثمرة لم تنضج .

أما الحضارات الأخرى فكانت أشبه بثمار ضرب فيها العفن والبلى ، وأمست لا مكان لها إلا بطن الثرى . .

* * *

واختيار القدر للعرب كى يحملوا الرسالة العظمى جاء على سنن الحكمة الإلهية فى إصطفاء الأفراد والشعوب .

وقد أعد الله محمداً ، ليكون عميد الأنبياء ، وليقدم للعالم أجمع خلاصة النصائح والشرائع التى يستطيع العيش بها آخر الدهر .

وهذا الاختيار الذى تهيأت له نفس عظيمة ، تهيأت له كذلك أمة نستطيع الحكم بأنها كانت يومئذ أجدر من غيرها بصحبة هذا الرسول والتبليغ عنه ، ويمكن أن يشملها قوله جل شأنه : « اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » .

* * *

وقد يقال : المعروف أن أحوال العرب قبل البعثة دون ما وصفت .

إنهم كانوا فى جاهلية طامسة بينة الضلال ، فكيف ينسبون إلى هذه المواهب النفسية والاجتماعية ؟

ونقول : إن الدنيا كلها كانت غريقة فى هذه الجاهلية الطامسة ، وإن الليل الذى عم أرجاءها ، جعلها كلها مسرحا للفتن والشرور ، لا فارق بين قارة وأخرى : « ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » .

والسؤال الذى أجبنا عنه هو : أى هاتيك الشعوب أعصى على العلاج ، وأيها أدنى ؟

ثم أيها ـ إذا شُفى من سقامه ـ أقدر على تـكاليف النهضة الإسلامية ؟
أو بتعبير أصرح أقدر على أعباء الثورة الإسلامية التى يطلب إليها أن تدك عروشاً فاجرة ، وأن تمحو مآثم طال عليها المدى ؟ ؟

السؤال الذى أجبنا عنه : أى البقاع يطلع منها النور فى أعماء هـذه الظلمات . . ؟

ونحن نؤكد أن العرب وحدهم كانوا أولى من الفرس والروم بهذه الرسالة الضخمة .



الأمـــة العربية

منذ انبثقت أشعة الإسلام من جزيرة العرب دخلت الأمة العربية فى طور جديد من حياتها لم تـكن قبله شيئاً مذكوراً .

لـكأنها كانت قبل الإسلام جنيناً يكتمل نموه على مكث فى هـذه الصحراء الموحشة المعزولة ، حتى إذا استـكمل أسباب الحياة برز خلقاً سوى المشاعر ، قوى المسير ، ذكى الوجهة .

نعم لم يكن للعرب قبل الإسلام كيان سياسى يلم شملهم .

ولم تـكن لهم رسالة إنسانية تشير إلى وظيفتهم العالمية .

بل لم يكن لهم طابع أدبى واضح الملامح يمتازون به فى المجال الدولى .

ويمـكننا أن نصف منزلة الأمة العربية بين أجيال الروم والفرس يوم إذ ، بأنها لا تزيد عن منزلة شعب كأهل « الـكونغو » مثلا بالنسبة إلى « الروس » و « الأمريكان » .

فلما بعث محمد بين العرب ، ولما صاغ الإسلام هذه الأشتات من البشر صياغته المحـكمة ، بدأت الأمة العربية تظهر فى التاريخ .

وأخذت دائرتها تنداح قرناً بعد قرن ، وجذورها تعمق حيناً بعد حين

حتى أصبحت الأمة العربية — بهذه الرسالة التى حملتها — تمثل غاية من أعرق الغايات ، وعديداً من الخلائق تموج بهم الأرض فى عدة قارات .

* * *

ولبعض المؤرخين كلام فى تاريخ العرب قبل الإسلام نرى أن نتريث قليلا لمناقشته .

ذلك أن هذا البعض يرى العرب هم الجنس السامىَّ كله .

ويعدهم أصل العمران والحضارات فى المناطق الفيحاء الممتدة بين الخليج العربى والمحيط الأطلسى منذ أربعين قرناً قبل الميلاد .

وهو بهذا الرأى يحتسب حضارة الفراعنة والفينيقيين والأشوريين وسائر الأقوام الذين ظهروا فى تلك البقاع حضارة عربية .

بل يرى أن سكان تلك الأرجاء نزحوا إليها فى هجرات متعاقبة من قلب الجزيرة العربية على تفصيل سيأتيك نبؤه ...

ولسنا نسعى إلى تصديق هذا الكلام أو تكذيبه .

فنحن المصريين سواء لدينا أن يكون الفراعنة الأقدمون عرباً أو غير عرب كما أنه سواء لدى السوريين أن يكون أجدادهم فى أغوار التاريخ عرباً أو غير عرب .

إننا فى يوم الناس هذا ألفنا الجمهورية العربية المتحدة ، وشعرنا يوم تأليفها أنها ضمت جزءين من الأمة العربية الكبيرة . التى تسكن فى وطنها الممتد بين المحيط والخليج .

إن هذا الوطن عربى يقيناً ، فإن كان أهله عرباً بالدم الموروث أو مستعربين باللسان والشعور فالأمر فى نظرنا سواء . . .

لكن الذى نثبته هنا ، ونكرره مثنى وثلاث ! أن الهجرات القديمة التى حملت العرب من جزيرتهم إلى ما حولها وما بعدها - إن صحت - فالبون بعيد جدا بينها و بين الفتح الإسلامى الأخير .

ذلك أن الهجرات الأولى ، كانت طلباً للقوت ، وسعياً وراء الرزق فهى نشاط إنسانى عادى تقوم به ضروب الأحياء إجابة لغرائزها .

أما الانطلاقة العربية الأخيرة فهى سير رسالة سماوية يحدوها نداء إلهى .

ولولا هذه الرسالة لقبع العرب فى دورهم ما يصنعون شيئاً .

ولو أنهم تحركوا من غير هذه الرسالة الإسلامية لتلاشت زحوفهم أمام ضربات العصى من الروم والفرس .

ولا نقول أمام ضربات السيوف فإن أمرهم سيكون أهون من ذلك .

إن الزعم بأن خروج العرب بالإسلام من صحرائهم حركة تشبه حركاتهم القديمة فى ترك الصحراء الجديبة إلى الوديان الخصيبة هو زعم صبيانى لا يصح أن يذكر فى مجال البحث العلمى ، و إن ذكره نفر من المبشرين والمستشرقين ...

ومع ذلك فنحن كما قلنا لا ننكر أن تكون قبائل عربية كثيرة نزحت من مضاربها فى الصحراء إلى بلاد أخرى ، حيث فضلت البقاء على العودة .

والعرب شعب رحال ، وهو أجدر بالضرب فى فجاج الأرض من الإنكليز

الذين استطاعوا فى عصرنا هـذا أن يعمروا قارة تبعد عن وطنهم ألوفاً مؤلفة من الأجيال ...

ولندع هذا الاستعراض النظرى إلى واقع الحياة .

فوطن العروبة اليوم قد وطأ الإسـلام أكنافه ، ووسع حدوده ، وجعله يربو أضعافاً مضاعفة على الوطن الأم فى صحراء الجزيرة ، وجعل كل شبر فيـه مسئولا عن الرسالة التى قام بها وعاش لها . . .

ذلك ... وعنايتنا بالوطن العربى الـكبير لا تنتقص ذرة من عنايتنا بالوطن الإسلامى الأكبر .

فهذا الوطن الأعظم يضم إخوان العقيدة الذين لا يمكن أن تبلى صلاتهم بنا ، ولا أن تهن روابطهم معنا .

وما يتعرض له هؤلاء الإخوة من عنـاء ، أو ينالهم من مسرة تخفق له أفئدتنا، ونشركهم فى الإحساس به شركة الجسم الواحد فيماينو به من بأساء ونعماء .

وقد بكى المؤمنون العرب مصاب إخوانهم فى البلقان والأندلس ، كما بكينا فى عصرنا هذا احتلال اليهود لفلسطين وفرنسا للجزائر .

وتدبر قول أبى البقاء صالح بن شريف الرندى يذكر ضياع الأندلس :

لـكل شىء إذا ما تم نقصـان فلا يُغَرُّ بطيب العيش إنسـان
هى الأمور كما شاهـدتها دُوَل مَنْ سرّه زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقِى على أحد ولا يدوم على حالٍ لهـا شان
يُمزق الدهر حتما كل سابغـة إذا نبتْ مشرَفيات وخرُصان

ويـنتضى كل سيف للفنـاء ولو   كان ابن ذى يزنٍ والغمد غُمدان

أين الملوك ذوو التيجان من يمن   وأين منهم أكاليلٌ وتيجـان ؟؟

وأين ما شاده شـداد فى إرَمٍ   وأين ما ساسه فى الفرس ساسان ؟؟

وأين ما حازه قارون من ذهب   وأين عادٌ وشـداد وقحطان ؟؟

أتى على الـكل أمر لا مرد له   حتى قضوا فـكأن القوم ما كانوا

وصار ما كان من مُلْك ومن مَلِك   كما حكى عن خيال الطيف وسْنَانُ

دار الزمان على دارا وقاتِله   وأمَّ كسرى فمـا آواه إيوان

كأنما الصعب لم يسهل له سبب   يوماً ولا مَلَكَ الدنيـا سليمان

فجائع الدهر أنواعٌ منوعـة   وللزمان مسرّات وأحزان

وللحوادث سُـلوانٌ يُسهلها   وما لِمَا حلّ بالإسـلام سُلوان

دَهَى الجزيرة أمرٌ لا عزاء له   هوى له أُحـدٌ وانهد ثهلان

أصابها العين فى الإسلام فارتزأت   حتى خَلَت منه أقطار وبُلدان

فاسأل بَلَنسية ما شأن مُرسية   وأين شاطبةٌ أم أين جَيّان ؟

وأين قرطبةٌ دار العلوم فكم   من عالم قد سما فيها له شان ؟

وأين حمصٌ وما تحويه من نُزَه   ونهرها العذب فياض وملآن ؟

قواعد كنّ أركان البلاد فما   عسى البقاء إذا لم تبق أركان

تبـكى الحنيفية البيضاء من أسف   كما بكى لفراق الإلف هيمان

على ديار من الإسلام خالية   قد أقفرت ولها بالـكفر عمران

حيث المساجد قد صارت كنائس ما   فيهن إلا نواقيسٌ وصُلبان

حتى المحاريب تبكى وهى جامدة   حتى المنابر ترثى وهى عيدان

* * *

يا غافلا وله فى الدهر موعظة   إن كنت فى سِنَةٍ فالدهر يقظان
وماشيا مَرِحا يُلهيه موطنه   أبَعدَ حمصٍ تَغرُّ المرءَ أوطان
تلك المصيبة أنست ما تقدمها   وما لها من طوال الدهر نسيان
يا راكبين عتاق الخيل ضامرة   كأنها فى مجال السبق عقبان
وحاملين سيوفَ الهند مرهفة   كأنها فى ظلام النقع نيران
وراتعين وراء النهر فى دَعَة   لهم بأوطانهم عز وسلطان
أعندكم نبأ من أهل أندلس   فقد سرى بحديث القوم رُكبان
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم   قتلى وأسرى فما يهتز إنسان ؟
ماذا التقاطع فى الإسلام بينكم   وأنتم يا عباد الله إخوان ؟
ألا نفوس أبِيّات لها همم   أما على الخير أنصار وأعوان
يا من لذلة قوم بعد عزهم   أحال حالَهُمُ جَوْرٌ وطغيان
بالأمس كانوا ملوكا فى منازلهم   واليوم هم فى بلاد الكفر عُبدان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم   عليهم فى ثياب الذل ألوان
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم   لهالك الأمر واستهوتك أحزان
يارُبَّ أمٍّ وطفل حيل بينهما   كما تُفرق أرواح وأبدان
وطفلة مثل حسن الشمس إذا طلعت   كأنما هى ياقوت ومرجان
يقودُها العِلج للمكروه مُكرَهة   والعين باكية والقلب حيران

لمثل هذا يذوب القلب من كمد　　إن كان فى القلب إسلام وإيمان

إن عروبة الأندلس التى بقيت ثمانية قرون أتت عليها الصليبية من القواعد .

ومنذ ظهر الإسلام والصليبية تستقتل فى مقاومته ، ولا ترى راحة ضميرها إلا فى الإجهاز عليه .

وقد واتتها الفرص فمحت الإسلام من الجزائر المبعثرة فى البحر الأبيض المتوسط ولم تدع فيها أثارة للعرب .

ثم اتجهت إلى شرق أوربا لتمحو الإسلام منه كما محته من غربها ، وكان سقوط « أدرنة » فى حرب البلقان انكساراً عسكرياً آخر للإسلام فى هذه القارة ، تبعته مأساة أخرى تشبه مأساة الأندلس قبل خمسة قرون وهى مأساة جعلت الشاعر أحمد شوقى يرفع عقيرته بهذا النشيج المحزون .

يا أخت أندلس عليك سلامُ　　هوت الخلافة عنك والإسلام

نزل الهلال عن السماء فَلَيْتَهَا　　طويَتْ وعمَّ العالمين ظلام

أَزْرَى به وأزاله عن أوجهِ　　قَدَرٌ يحط البدرَ وهو تمام

جُرحان تمضى الأمتان عليهما　　هذا يسيل وذاك لا يلتام

بِكما أُصيبَ المسلمون وفيكما　　دُفِنَ اليَرَاعُ وغُيِّبَ الصَّمْصام

لم يُطوَ مأتمُها ، وهذا مأتم　　لبسوا السوادَ عليكِ فيه وقاموا

ما بين مَصرعِها ومصرعك انقضت　　فيما نُحِبُّ ونكره الأيام

خلت القرون كلَيْلَةٍ وتصرَّمت　　دُوَلُ الفتوح كأنها أحلام

والدهر لا يألو الممالكَ مُنذِراً فإذا غفلنَ فما عليه كلام

* * *

مقدونيا ـ والمسلمون عشيرة ـ كيف الخؤولة فيك والأعمام ؟
أترْينهم هانوا ، وكان بعزّهم وعلوّهم يتخايل الإسلام ؟
إذ أنت نابُ الليث ، كل كتيبة طلعت عليك فريسةٌ وطعام
ما زالت الأيامُ حتى بُدِّلت وتغير الساقى وحال الجام
أرأيتِ كيف أديل من أُسْدِ الشّرَى وشهدتِ كيف أُبيحت الآجام ؟
زعموك همّاً للخلافة ناصبا وهل الممالك راحة ومنام ؟
ويقول قومٌ كنت أشأم مورد وأراك سائغةً عليك زِحام
ويراك داء الملك ناسُ جهالةٍ بالملك منهم علةٌ وسَقام
لو آثروا الأصلاح كنتِ لعرشهم ركناً على هام النجوم يُقام
وهمُ يُقَيِّدُ بعضُهم بعضا به وقيود هذا العالم الأوهام
صورُ العمى شتى ، وأقبحها إذا نظرت بغير عيونهن الهام
ولقد يقام من السيوف وليس من عَثَرات أخلاق الشعوب قيام

* * *

صبراً أدرنة كلُّ مُلكٍ زائلٌ يوماً ويبقى المالك العلام
خفَتَ الأذانُ فما عليك مُوَحِّدٌ يسعى ، ولا الجمع الحِسَانُ تقام
وَخبَتْ مساجدُ كُنَّ نوراً جامعاً تمشى إليه الأسْدُ والآرام

يُدْرُجْنَ فى حَرَم الصلاة قوانتا ... بيض الإزار كأنهــن حمــام
وعفت قبورُ الصالحين وَفُضَّ عن ... حُفِرَ الخلائف جنــدل ورجام
نُبِشتْ على قعساء عزتهــا كما ... نبشت على استعلائهـــا الأهرام
فى ذمــة التــاريخ خمســة أشهر ... طــالت عليك فــكل يوم عام
السيف عار ، والوباء مسلط ... والسيل خوف والثلوج ركام
والجوع فتــاك ، وفيك صحابة ... لو لم يجوعــوا فى الجهاد لصاموا
ضنوا بعرضك أن يبــاع ويشترى ... عرض الحرائر ليس فيــه سـوام
ضــاق الحصــار كأنمــا حلقــاته ... فلك ، ومقـذوفاتهــا أجـرام
ورمى العدى ، ورميتهم بجهنم ... ممـــا يصب الله لا الأقـــوام
بِعْتِ العــدو بكل شــبر مهجة ... وكــذا يبــاع الملك حــين يرام
ما زال بينــك فى الحصــار وبينــه ... شم الحصــون ومثلهن عظــام
حتى حــواك مقــابرا وحــويته ... جثثــا فلا غبن ولا استــذمام

وجهد الصليبية اليوم فى فلسطين والجزائر يُمثل الخطة الكبرى لِدَكِّ صروح الإسلام فى القارتين الكبيرتين آسيا وأفريقيا ، وضرب الأمة العربية ضربة قاصمة تردها إلى جاهليتها الأولى ، أوزاعا من الخلق لا فكرة لهم ولا هدف ، بل لا كرامة لهم ولا كيان . . .

* * *

إن دراسة الوطن العربى فى نظرنا جزء من دراسة الوطن الإسلامى .

ولكنها تميزت بعنوان خاص لحكمة قد تلتمس لها .

فإن الوطن العربى ليس جزءاً ، أى جزء من الـكيان الإسلامى الرحب .

إنه مبعث الإلهام ، ومصـدر التوجيه ومكان القيادة ، فلا غرو أن تفرد لتعرُّف أحواله كتب و بحوث . .

ومع ذلك فإن السماحة التى اكتسبناها من إلف ديننا العظيم . جعلتنا نتناول شئون هذا الوطن بمرونة نفسية وفـكرية ظاهرة . فمن حديث عن المجتمع العربى . كتب الباحثون هذه التقدمة التى تؤكد فهمنا له . (١)

« نحن معشر العرب نعتبر عربيا كل مواطن يقيم فى الوطن العربى ، ويدين له بالولاء ، وكل من يتكلم العربية و يتخذها لساناً ليعبر به عما يجيش فى نفسه وكل من يحس العروبة بصرف النظر عن الأصل والجنس ودون تفريق بين مغترب ومقيم ؛ ونحن حين نؤيد هذه الحقيقة إنما نقرر واقع التاريخ ، إذ لا فضل ــ فى مقياس العروبة ــ لنجدى أصيل على بربرى تعرب لسانه ، ولا لحجازى مغترب على زنجى اتخذ أرضنا وطناً له ، ولغتنا العربية لغة له .

والوطن العربى على هذا الأساس يشغل مساحة واسعة من وجه الأرض تمتد من المحيط الأطلسى فى الغرب حتى الخليج العربى فى الشرق .

ولا يقتصر على الجزيرة العربية وحدها وهى بلاد العرب الأصيلة ، ولا على الجزيرة مع الهلال الخصيب مـكتنفاً فلسطين والأردن والإقليم السورى والعراق ، وقد عمرتها من قديم الزمان جماعات نزحت إليها من شبه الجزيرة

---

(١) دكتور محمد متولى وآخرون .

العربية فى موجات متعاقبة ، فكونت على مر السنين أقوام كنعان وفينيقيا وأشور و بابل ، وما قام فى وسطها من جماعات ، بل يشمل ذلك كله وما انبثق بفعل الفتح الإسلامى على امتداد الشمال الإفريقى فى تلاحق وتلاصق من خليج السويس إلى المحيط الأطلسى عبر الإقليم المصرى ، وليبيا وتونس والجزائر ومراكش ، وفى وسط القارة الإفريقية خلال بلاد النيجر وأوغنده ، وكينيا والصومال وزنجبار .

و إذا اتخذنا مساحات الدول العربية القائمة أساساً فى تحديد الوطن العربى لأربت مساحة هذا الوطن على مساحة القارة الأوربية ولو اجتمعت الدول العربية جميعاً فى دولة واحدة لكانت هذه الدولة ــ من حيث الامتداد ــ الدولة الثانية فى العالم بعد الاتحاد السوفييتى .

وجملة مساحة الدول العربية تقرب من ١١ مليون كيلو متر مربع ، يقع حوالى ٣٠ ٪ منها فى القارة والآسيوية ، وحوالى ٧٠ ٪ فى القارة الإفريقية ، وهى موزعة على النحو التالى :

آسيا ، وتشمل . الإقليم السورى من الجمهورية العربية المتحدة ، ولبنان ، وفلسطين ، والأردن ، والعراق ، والمملكة العربية السعودية ، واليمن ، وعدن ، وعمان ، والبحرين ، وقطر ، والكويت ، والمحميات .

وجملة المساحة ٣ مليون كيلو متر مربع .

و يعمر الأرض العربية نحوا من ٨٠ مليون نسمة ثلثهم فى البلاد الآسيوية والباقون فى الدول الأفريقية ففى آسيا . السعودية ، ويسكنها ٧ مليون ، والعراق ،

و يسكنه ٥ مليون ، واليمن ويسكنها ٤ ١/٢ مليون ، والإقليم الشمالى من الجمهورية العربية المتحدة ويسكنه ٤ مليون ، وفلسطين المحتلة ويسكنها ١ ١/٢ مليون ، والأردن ويسكنها ١ ١/٢ مليون ، ولبنان ويسكنه ١ ١/٢ ، وعدن ، ويسكنها مليون نسمة ، وعمان ويسكنها نصف مليون نسمة ، والكويت ويسكنها ربع مليون نسمة ، والبحرين ويسكنه ١٠٠ر٠٠٠ نسمة ، وقطر ٢٠ر٠٠٠ ، واللاجئون الفلسطينيون حوالى مليون نسمة ، فيكون المجموع حوالى ٢٧ مليون عربى تقريباً يسكنون فى قارة آسيا .

وفى أفريقية : الإقليم المصرى من الجمهورية العربية المتحدة ٢٣ مليون نسمة ، الجزائر ٩ مليون نسمة ، المغرب ١٠ مليون نسمة ، تونس ٣ ١/٢ مليون نسمة ليبيا ١ ١/٤ مليون نسمة طنجة ١٥٠ر٠٠٠ نسمة ، فيكون المجموع حوالى ٥٦ مليون نسمة .

وتعيش وسط المحيط العربى قلة لم تتعرب بعد ، وهى فى المجموع العربى لاتبلغ ١٠ ٪ من السكان .

وهذه القلة إما أصيلة فى البلاد كالبربر فى المغرب ، والزنوج فى السودان ، أو طارئة عليها كالأرمن والجركس والتركمان . على أن اللغة العربية تظفر فى كل يوم بانتشار أوسع ، وتضيف إليها بالتدريج عدداً من هذه الأجناس » .

* * *

الواقع أن الأمة العربية بين المحيط والخليج تبلغ نحو المائة مليون .

ونسبة المسلمين تقرب من ٩٥٪ ، وال ٥ ./. الباقية موزعة بين أتباع النصرانية واليهودية والوثنية .

واللغة العربية هى الشائعة بين جمهرة السكان ، تخالطها لهجات عامية مختلفة .

والخصائص الجنسية للعرب عادية أو هم يمتازون « باعتدال القامة وتناسق السحنة ، والبياض الضارب إلى السمرة ، وسباطة الشعر وسواده ، واتساع حدقة العين وسوادها ، ثم بصفاء الذهن ، واتقاد الذكاء ، وسرعة الخاطر والحركة ، وقوة الخيال ، والقدرة على الاقتباس ، والفروسية والأريحية ، والصبر ، والثأر ، والتهاب العاطفة » .

ونستطيع أن نصف كثيراً من الأمم الأوربية والأمريكية والآسيوية والإفريقية بأوصاف جامعة لكثير من ضروب الكمال المادى والمعنوى .

ومن ثم لا نستطيع الزعم بأن العرب جيل من البشر اختصته العناية العليا بمواهب فريدة . ويوم زعم هتلر للجنس الجرمانى هذه المزايا تضاحك العلماء فى كل قطر ، وأيقنوا أن الرجل لا يقول الحق ، وإنما يهزل .

إن فى العالم الآن عشرات القوميات ، وهذه القوميات لا تعدو أن تكون أغصانا فى شجرة الإنسانية الباسقة ، يغذوها جذر واحد ، وتنتشر فيها حياة مشتركة ، وما يمتاز غصن على آخر إلا بما يحمله من ورق وثمر أو ما يقدمه من ظل وجنى . .

والعرب إذا نسبوا إلى قوميتهم لا يزيدون ولا ينقصون عن سواهم من

الأمم . ولـكن الميزة التى ترفع قدرهم هى ما انفردوا بتقديمه للحياة والأحياء من الإسلام وخيراته . . .

هذه الرسالة التى حملها العرب أفاءت عليهم من الأمجاد والآلاء مالا يحصيه عد !

ماذا كان العرب قبل الإسلام ؟

شعب من عشرات الشعوب التى تسكن هذا الـكوكب الموار .

ربما كانوا مثل شعب « شيلى » فى أمريكا ، أو شعب « كينا » فى إفريقيا، أو شعب « كمبوديا » فى آسيا ، أو شعب « السويد » فى أوربا .

لـكن العرب لما نفخ فيهم الإسلام من روحه تحولوا من شعب محدود إلى قارة بأسرها ، لا بل تحولوا إلى عالم يموج بالنور والحضارة ، وتجلس الشعوب فى حضرته لتتلقى الدروس من وحى السماء . .

وشىء آخر يجب أن يعرف فى أصل العروبة ، أن كلمة قومية لم تجئ فى مصطلحات العرب رمزاً للمعنى الذى تعرف به الآن . معنى الولاء للجنس ، والتعلق به وحده ، والتعصب على غيره .

فـكلمة قوم فى اللغة تعنى جنس الرجال . قال الشاعر :

وما أدرى ولست إخال أدرى أقوم آل حصين أم نساء ؟

وقال الله تعالى فى كتابه العزيز : ﴿ يَآيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَـكُونوا خَيْراً مِنهُمْ وَلاَ نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيراً مِنْهُنَّ ﴾ .

فقوم هنا وهناك تعنى الرجال وحدهم ، أما إطلاقها لتدل على المصطلح السياسى المعاصر ، فليس إطلاقاً عربياً ، بل الإسلام هو الذى خلق من العرب فى جزيرتهم أمة تخضع لحكم منظم ، وتقوم بينهم دولة يصح أن تحسب فى المجال الدولى ، أما قبل الإسلام فإن العرب أنفسهم لم يكونوا يعرفون هذا المصطلح فى حياتهم الاجتماعية كما أنهم لم يعرفوه فى مدلولاتهم اللغوية . .

ومن حقنا أن نقول : إن الأمة العربية بشارتها الجديدة ، واجتماعها لأول مرة فى تاريخها ، ثم بروزها فى الصعيد العالمى ، لم تولد إلا مع الإسلام .

وتصوُّر الأمة العربية بدون رسالتها العظمى كتصور قصب السكر بدون سكر

ماذا تكون عيدان القصب بعد اعتصارها و إفراغ ما فيها ؟ هشيما تذروه الرياح ، أو وقوداً تأكله النيران ! !

الرسالة التى شرفت بها العروبة ليست زعما بنقاوة الدم ، أو وهما بكرامة العنصر ، كلا ، إنها رسالة إنسانية تجعل الأمة العربية حارسة للأخلاق والمثل العليا ، أمينة على تراث السماء ، وصيانة الوحى ، والدفاع عن قضاياه وأحكامه . ضد المنحلين والمكذبين .

وهذا معنى قوله جل شأنه : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ ﴾ .

أجل تلك هى وظيفة الأمة فى العالم . مؤازرة الخير ومناصرة أهله ، مكافحة الشر وقمع أسبابه ، العيش فى حدود الإيمان الطيب فليس فى ربوعها مكان لإلحاد ولا لفسوق وعصيان . . .

هذه هى رسالة الأمة العربية . . وتلك هى الصبغة التى ينبغى أن تسود وطنها الكبير إنها تتجلّى .

فى ربط العروبة برسالتها العظمى .

وفى ربط العرب بماضيهم العريق .

وتمهيداً لمستقبل أكرم ، تنطلق إليه نهضتنا وهى مزودة بجميع القوى التى توصلها إلى هدفها .

ودعما لمشاعر التدين ، أو بعبارة أصرح ، إثباتاً لملامح الإسلام فى كيان نهضتنا العربية كى تتسق مع ماضيها ، وتتواءم مع أحوال بنيها .

كتب الأستاذ محمود تيمور يقول :

لسائل أن يقول :

هل يكفى أن تكون العروبة قرابة دم كريم ؟

وهل يكفى أن تكون العروبة ذكريات أمجاد عطرات ؟

وهل يكفى أن تكون العروبة تاريخاً مشتركاً له فى التاريخ صدى بعيد ؟

وهل يكفى أن تكون العروبة وحدة فكرية لها وشائج متينة على تعاقب الأزمنة والعصور ، وعلى تخالف البقاع والأصقاع ؟

وهل يكفى أن تكون العروبة تياراً حضريا مشهوداً له بالفضل على بنى الإنسان فى غابر الزمان ؟

ليس يكفى هذا كله لتكوين مقوماتٍ للعروبة تتابع بها حياتها ونموها وازدهارها فى المستقبل القريب أو البعيد .

إن هذا كله إنما هو تاريخ يسرد ، فيهز أعطاف النفس من اعتداد و إعزاز ، وهو إن صلح إنما يصلح لدعوة خطابية توقظ المشاعر وتبعث فى أعماق الوجدان روح الإيمان .

وكل هذا يجب ألا يقف عند هذا الحد ، و إنما يجب أن يكون حقيقة يدعو إليها الواقع ، وأن يكون عنصرا حاضر الأثر ، موصول الفائدة ، واضح الضرورة لحياة العرب فى يومهم الراهن ، وفى غدهم المرجو . و إلا لأصبح هذا كله هتافات نفسية عابرة ، وهزات عاطفية خاطفة ، فاقدة الأثر الإيجابى ، والنفع العلمى ، فى الحاضر المشهود أو المستقبل المرموق .

ولكى نبلغ الغرض من حقيقة العروبة ، ومن مقوماتها علينا أن نحيى تلك الحضارة العربية المتكاملة إحياء منهجيا دراسياً فى كل منحى من مناحيها ، وفى كل فن من فنونها ، وأن نفقه فلسفتها وأسرارها أحسن الفقه وأتمه ، حتى يكون ذلك التكامل الحضارى العربى بالأمس زادا للعروبة فى اليوم وفى الغد ، منه يتكون جانب كبير من مقوماتها العقلية والروحية معاً » اھ .

على أن التكوين الروحى والعقلى للحضارة العربية لا يعنى شيئاً أبعد من تعاليم الإسلام .

وعندما نحصى عناصر الزاد العلمى والخلق الذى سنغذى به الأجيال البعيدة.

وعندما نحصى تقاليد البيئة أو مبادئ السير التى تنطلق منها القافلة الناشطة .

وعندما نضع أصول الدساتير وشرائع القانون التى ستحكم الجماهير وتضبط العلاقات الخاصة والعامة . . لن نجد غير القرآن الكريم ، وسنة محمد ، وفقه الأصحاب ، واجتهاد الأئمة ، وذاك السنا الفياض من توافر القوى المؤمنة على

تـكريس أوقاتها ومواهبها فى خدمة الإسلام و إعلاء شأنه وهداية الخلائق به على أنه الوحى الأعلى ، والحق المبين . .

و يستطرد الأستاذ تيمور فيقول شارحاً هذا التراث :

« يذكر لنا التاريخ القريب أنه حين أريد ترجمة قانون « نابليون » ليكون قانوناً ينظم علاقات الناس فى أوضاع الحـكم المصرى ، انبرى عالم أزهرى فألف كتاباً ضخماً استخرج فيه من المذهب المالـكى أحكاماً تغنى عن القانون الفرنسى كله .

وأن فقيهاً آخر من رجال القانون انبرى هو أيضاً فألف كتاباً استخرج فيه مثل هذه الأحكام على مذهب « أبى حنيفة » .

وفيما عمله كلاهما دليل على أن الفقه العربى الخالص للشريعة الدينية لم يقصر عن إدراك ما يفتقر إليه المجتمع البشرى من قوانين تحـكم المعاملات وتنظم العلاقات .

ولعل هذا الفقه العربى الخالص أولى أن يكون لنا رائداً ونبراساً ، فإن العقلية العربية لهـا معاييرها وقيمها فى رسم أوضاع المجتمع ، وفى بيان الحقوق والحدود .

فإذا اقتبسنا منها لحياتنا الحاضرة كان ذلك وحياً فعالا عميق الأثر ، به نتجافى عن اصطناع مصادر أجنبية دخيلة ، محاولين التلفيق بينها و بين عقليتنا التقليدية وأوضاعها الخاصة .

والواقع أن المثالية العربية ، أو ما يسمى (الإيدولوجية) تتوهج خصائصها

فى تلك التعاليم الدينية التى ضمتها مذاهب الشريعة ، وسميت بالفقه و بالأصول وما هى إلا المبادىء التى اهتدت بها الحضارة العربية فى حكم المجتمع الإنسانى ، وعلى كل عربى اليوم أن يعرف هـذه المثالية أتم المعرفة بجانب ما يعرف من مثاليات محدثة فى تعاليم المدنية ونظم الاجتماع .

وما ينبغى لنا نحن العرب اليوم أن ندرس مظاهر الخدمة الاجتماعية فى أساليبها المستحدثة وأوضاعها الأجنبية ، دون أن ندرس مع ذلك ما يقابلها من مظاهر تنطوى عليها حضارتنا العربية فى العصور المواضى .

فإزاء الملاجىء ودور الحضانة والكفالة فى العصر الحاضر ، كانت لنا فيما سلف أنظمة للمراحم والمبرات ، توقف عليها الأوقاف المغلة ، وترصد لها الأموال الطائلة ، وكانت تـكفل فى عهدها ما تـكفله أوضاع الخدمة الاجتماعية فى طورها الحديث .

منذ سنوات قلائل عقدت الجامعة العربية حلقة موضوعها : « التـكافل الاجتماعى » واشترك فى هذه الحلقة خبراء من هيئة الأمم المتحدة فأتيح لهم أن يطلعوا على ماعرض فى هـذه الحلقة من أنظمة عربية مستمدة من الشريعة للتآزر بين الناس ، كضروب الزكاة وأنواع النفقات .

فقالوا للباحثين العرب : ما حاجتـكم إلى أوضاع مستحدثة ، وفى تراثـكم الدينى والاجتماعى هذه الأنظمة الوافية للتـكافل والتضامن لو أحللتموها محل التنفيذ !

وماينبغى لنا نحن العرب أن ندرس ألوان النشاط الرياضى العصرية دون أن نتعرف ماينناظر هذه الألوان فى حياة الأمة العربية خلال الأحقاب الطوال .

ولعلنا نعلم أن الفروسية والرماية والسباحة ، كانت من عناصر الحياة التعليمية » وكان لها من المنزلة فى زمن الفتوة ما للعلوم التجريبية والنظرية سواء بسواء ، إذ أن التقويم الإنسانى فيما يرى المفكر العربى إنما يتم بإعداد الجسم والعقل والروح جميعاً » .

وحدتها :

أمة العرب موحَّدة فى الأرض منذ وحدت الله فى السماء ، وهى ماانقسمت على نفسها إلا يوم أخلت بعهودها مع الله ، وتراجعت إليها بقايا من الجاهلية الأولى .

والمتأمل فى تاريخ هذه الأمة لايعوزه الذكاء كى يلمح أن الخط الفاصل بين العصر الإسلامى والعصر الجاهلى فاصل بين شرك وفرقة معاً ، وتوحيد ووحدة معاً . والعلماء جميعاً متفقون على أن الجزيرة العربية لم تعرف الوحدة السياسية إلا بعد أن غمرتها أضواء الإسلام .

وتلك طبيعة هذا الدين الحنيف فى خلقه أمة لا مكان للانقسام فى صفوفها مادامت متمسكة بأهدابه حريصة عليه .

وما صح فى نطاق الجزيرة العربية على عهد النبوة صح فى فجاج الوطن العربى الرحب بعد ماانداحت جيوش الإسلام فى أرجاء آسيا وإفريقيا .

إن الوحدة التى سادت هـذه الربوع من المحيط بلغت من العمق والشمول حداً يثير العجب .

لو أن إنساناً امتطى « نفاثة » تسير بسرعة الضوء لا بسرعة الصوت وراقب هذه الأمة عند انفلاق الفجر لرأى أفرادها زرافات ووحداناً منطلقين إلى المساجد ولسمع هدير المؤذن « الله أكبر الله أكبر » من المنارات السامقة المبعثرة فى العواصم والقرى من المحيط إلى المحيط . .

هذا المنظر الساحر يتكرر منذ أربعة عشر قرناً على أجزاء اليوم لايختلف مكان عن مكان ولا جيل عن جيل . .

إن هذه الوحدة التى سكبها الإسلام فى ضمائر المؤمنين جعلتهم فى شئونهم كلها إحساساً جامعاً وفكرة مشتركة ، وسنرى عناصر هذه الوحدة التى يصدق فيها قول الحق « إِنَّ هٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فاعْبدُون »

* * *

شهدت أقطار الوطن العربى فى أغلب تاريخها حكومة واحدة .

وربما وقعت أحداث عكرت صفاء هذه الوحدة السياسية ، ولكن العرب كانوا يرون هذه الأحداث أعراضاً موقوتة ، أو سحائب صيف توشك أن تنقشع .

ولم يعرف العرب مذ ولدت دولتهم الكبرى نكراً كالذى حدث لوحدتهم السياسية فى هذا العصر .

فقد اتفقت مآرب الاستعمار الغربى مع شهوات نفر من طلاب الرياسات فقسموا هذه الأمة الواحدة إلى أجزاء منفصلة سياسياً تبلغ بضع عشرة حكومة ! ! ولو استطاعوا لجعلوها بضعاً وعشرين أو بضعاً وثلاثين .

فإذا لم تكن الحكومة المفتعلة تملك الموارد المالية التى تقيم كيانها المحدود تصدقوا عليها بأعطية تقيمها ، وتجعلها دولة مستقلة ذات سيادة !!

ولن تصلح الأمور أبداً بهذا العوج المتعمد . فإن طبيعة الأمة الواحدة تأبى ذلك التمزيق ، وطبيعة الرسالة الضخمة التى تحملها تأبى ذلك التمزيق .

وعصرنا هذا ليس عصر الدول الصغرى ، بله الدويلات المصغرة .

ففى أيام تملك الشيوعية فيها أرضاً أكبر من أرض الوطن العربى، ووحدات سياسية كثيفة تجعل من الصين وعدد سكانها ٦٠٠ مليون دولة واحدة ، ومن روسيا وعددها ٢٠٠ مليون دولة واحدة ـ فى هذه الأيام يصح تقطيع أوصال أمة واحدة ، وجعل المليون عربى دولة ، والمليونين دولة أخرى ، وإقامة حوائل سميكة بين هذه وتلك ، وبين هاتين وسائر الأجزاء حتى لاتتجمع فى نطاق واحد .

إن الخلافة الإسلامية فرضت حكومة مركزية واحدة لهذا الوطن الكبير .

وعند التأمل نجد أن الدفاع العسكرى عن أى جزء من هذا الوطن لايصلح ولا ينجح إلا إذا عاونته بقية الأجزاء .

فنجدة الجزائر تنبع من وادى النيل والفرات ، ونجدة فلسطين تجيئها من أقصى الجنوب والغرب .

وما استمكن الأعداء من تثبيت أقدامهم فى قطر من أقطار العروبة إلا إذا كان هناك من الانقسام السياسى ما يتيح للغزاة أن يبطشوا وعليهم درع من خيانة الخائنين وتفريق المفرقين .

* * *

ونحن ننظر إلى نظام الخلافة من خلال الدعايات الشائنة التى روجها ذوو الأغراض ، أو من خلال الأحوال السيئة التى حفت به أيام اعتلاله .

وهى دعايات ضخّمت الهنات وأخفت الحسنات .

و ينبغى ألا ننسى لهذه الخلافة المظلومة أنها :

ا ــ حالت دون افتعال عشرات الإمارات والدو يلات المستقلة فى هذه الأمة الواحدة ، تلك الإمارات والدو يلات التى تحيا دائماً على استنزاف الشعوب وخيانة مصالحها ومعاونة الأجنبى ومساندة أطماعه .

ب ــ قوّت شعور الإخاء والتناصر بين أهل هذا الوطن الواحد على اختلاف الدار و بعد الشقة وجعلت العر بى فى حضرموت مسئولا عن نصرة أخيه فى السنغال .

حـ ــ جعلت ولاء الأفراد للدولة صادراً عن ضمير دينى مخلص ، فكان العر بى ، مع طاعته لله ، يطيع التعليمات والأوامر التى تكلفه السلطات بها و يتجاوز عن الأخطاء التى تقع حرصاً على مصلحة الجماعة العليا .

أصحيح أن نظام الخلافة استنفد ما يرجى منه ؟.

إن الإجابة على هذا السؤال تتطلب منا أن نعرف أولا :

هل الهجوم الذى تعرضت له العرو بة فى الأعصار الأخيرة خلا من الأحقاد الدينية ، واقتصر فقط على المطامع الدنيو ية ؟

فإذا تبين أنه استعمار تتواصى ز بانيته بإكنان الغل على رسالتنا وتتعاون سراً وجهراً على انتهابنا و إيذائنا ؛ فإن توحيد الأمة العر بية حول خلافة دينية

حديثة أمر تفرضه ضرورات الدفاع المقدس كما تفرضه نصوص الإسلام . . .

الوحدة التشريعية :

ظلت الأمة العربية قرابة ألف سنة والإسلام مصدر قوانينها فى شئون الأسرة والمجتمع ، وفى شئون الدماء والأعراض والأموال .

وإذا كان هذا التشريع لم يفرغ فى مواد محددة كما هو الواقع الآن ، فإن مصادر هذا القانون كانت بثباتها وقداستها توصى بأحكام واحدة فى طول البلاد وعرضها ، وتجعل الخاصة والعامة يعرفون ما توصى به الشريعة فى أغلب ما يعالجون من أحوال الحياة . . .

والقرآن واحد ، يهدر القراء بآياته فى القرى والمدن ، ولا تختلف ألفاظه فى حاضرة ولا بادية .

وسنة النبي فى كتبها المعروفة يتداولها النساخون والطباعون ، ويتدارسها العلماء فى المساجد والمدارس .

ومذاهب الفقهاء المشهورين ، تتألف لها الحلق وتستفيض فيها البحوث .
وقد تعجب إذا علمت أن كتابا فيه خلاصة لفقه الإمام مالك يكاد يكون المرجع الفقهى لثلاثين مليونا من المغاربة ! !

إن وحدة الفكر التشريعى فى هذه الأمة على كر القرون شىء يستثير الدهشة .

ومنذ أربعة عشر قرنا والكبار والصغار يحفظون أن أدلة الأحكام هى الكتاب والسنة والقياس والإجماع . .

وقطاع واحد من تراثنا التشريعى يرجح بما أثر عن الرومان واللاتين وغيرهم من تشريع ، بل يرجح كل ما استحدثه هذا العصر من مبادئ ونظريات .

وهذا كلام لا يرسل على عواهنه ، فإن التشريع عندنا سماوى الأصول ، جاء من لدن حكيم خبير ، فعنصر الحق موفور فى هذا التشريع ابتداء .

« وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَدِيثاً »(١) .

ثم إنه نقىٌّ الأهداف ، ينفى الخبث عن الفرد والجماعة ، ويشد أزر المثل العليا حين يقمع طبائع الأثرة ، والفسوق والعدوان ، فهو ليس فقط تنظيما لأعمال جماعة ما ، بل هو تزكية لها ، وارتفاع بمستواها .

« وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيد الّذِينَ يَتّبِعُونَ الشّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً(٢) » .

ولن ترقب أبداً نتائج أفضل ، ولا عواقب أشرف من تحكيم الله فيما يشجر بين الناس ، إن هذا التحكيم أصون للمصالح من غيره ، وأحسم للشرور والمتاعب .

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ(٣) ﴾ .

وقد ازدهر الفقه دهراً طويلاً فى بلادنا ، ورست عليه دعائم الوحدة التشريعية .

ثم ركدت ريحه ، وقل أهله ، وضعف أمره .

فلما سقط العرب والمسلمون ، فرائس للغزو الغربى ، شاعت فى أرجاء

---

(١) آية ٧٨ النساء . (٢) آية ٢٧ النساء . (٣) آية ٥٠ المائدة .

الأمة المجروبة ألوان من التشريع مبتوتة الصلة بطبيعة العرب ، وتعاليم لإسلام ، بعضها لاتينى ، و بعضها سكسونى ، و بعضها لا يعرف له أصل .

ومع غربة هذا القانون المجلوب عن أمتنا و بيئتنا ، فإنه كثيراً ما يحيد عن الحق ، و يعجز عن الكمال ، و يقصر عن رعاية الصالح الخاص والعام .

ولن نبقى عرباً ، بل لن نكون عرباً إذا ارتضينا زوال تشريعنا الأصيل ، واستقرار هذا التشريع الوافد مع الغزو الأجنبى .

إن هذا التشريع يستهدف إرخاص الأعراض والدماء ، وابتذال الحرمات والحقوق . . .

وهو - بهذا الطابع - يناقض طبائع العرب الذين يغالون بالأعراض ، و يبذلون دونها الدماء .

و يغالون بحق الحياة ، و يجعلون الثأر ديناً لهم إذا لم تسعفهم السلطات بإقرار القصاص .

وقانون - تلك خصائصه - إنما وضع ليقتل الشخصية العربية و يفقد هذه البيئة الأبية أعرق ما ورثت . ولذلك يستحيل أن تتم الوحدة العربية فى ظلال تلك القوانين المجتلبة السيئة .

و يجب أن أنقل كلاما حسنا فى المقارنة بين الشريعة والقانون لرجل[1] من أعلام القضاء ، عاش ردحاً من الزمن يعالج تطبيق هذه القوانين الفرنسية فى أمتنا العربية . فكتب بحثاً جليلا عن « نهج الشريعة والقانون فى تطبيق الأحكام » قال فى صدره - واصفاً بعض مواد القانون الحالى - : « إن المشرع

(١) الأستاذ أحمد موافى .

الذى وضع أحكامها كان فاجراً ، فقد نقل بغير تبصر عن التشريع الفرنسى أحكاماً لا تساير البيئة التى نعيش فيها ولا تتفق مع تقاليد بلادنا .

فعنده مثلا ، أن الاعتداء على العرض عمل مباح متى جاوزت المرأة الثامنة عشرة ، وكانت المواقعة برضاها ، ولا تثريب عليها لو ظهرت بين الناس تحمل ثمرة الفاحشة فى أحشائها ، أو حملت وليدها من سفاح بين يديها .

ولا سلطان لولى هذه المرأة عليها ، مع أنها تعتبر من وجهة نظر المال قاصرة لا تملك التصرف فيه إلا بعد بلوغها الحادية والعشرين . ومعنى هذا ، أن المال فى نظر القانون أغلى من العرض ، إذ حرص الشارع على حمايته وفرض الرقابة عليه حتى يبلغ صاحبه سن الرشد ، بخلاف العرض الذى أباح لصاحبه أن يفرط فيه ابتداء من سن الثامنة عشرة .

وقد اتخذتُ هذه الظاهرة أساساً لهذا البحث . وأول ما يسترعى النظر عند إجراء المقارنة بين الشريعة والقانون هو طريقة كل منهما فى تقرير الأحكام .

فالشريعة الإسلامية سلكت طريقة تعرضت بها لجميع أفعال الإنسان ما ظهر منها وما بطن ، وانتهت بطريقتها هذه إلى تقرير حكم لكل فعل . . .
أما القانون فقد تعرض إلى بعض أفعال الإنسان الظاهرة دون أفعاله الباطنة ودون باقى أفعاله الظاهرة ، وفى دائرة العقوبات فرض عقوبات لأفعال معينة ، اختارها على هواه ، لأنها ـ كما يرى ـ هى التى تخل بكيان المجتمع وأمنه .

ولهذا كانت الشريعة الإسلامية منذ النظرة الأولى أوسع من القانون نطاقاً وأقدر على ملاءمة الزمن ومسايرة التطور .

قال : « وسأتكلم بقدر ما يسمح به الوقت » :

أولا : فى تعرف الشريعة الإسلامية للناحية الباطنية من تصرفات الإنسان أو بعبارة أخرى العنصر الروحى فى تقرير الأحكام .

وثانياً : فى حصر دائرة الأفعال المحرمة فى القانون ومسلك الشريعة الإسلامية فى هذا الخصوص :

أولا : العنصر الروحى فى الأحكام :

لا يعنى القانون كما أسلفنا إلا بالظاهر من الأفعال . أما الشرع الإسلامى فهو يهدف من أحكامه إلى تحقيق غرضين :

أحدهما : يدور حول صلة الإنسان بالخالق ، وثانيها ، حول صلة الإنسان بالمخلوق – فهو إذن قائم على أساس يجمع بين مصلحتى الدين والدنيا على سواء ، لا فى العبادات فقط ، ولكن فى المعاملات أيضاً ، فتراه جعل لكل عمل حكمين .

(ا) حكماً مرجعه إلى صلة الإنسان بالمخلوق ، وهذا الحكم مستمد من الظاهر .

(ب) وحكماً مرجعه إلى صلة الإنسان بالخالق ، وهذا الحكم مستمد من الباطن .

فالبيع مثلا ناحيته الظاهرية هى نقل الملكية فى المبيع والثمن ووصف العقد تبعاً لظروفه ، بأنه نافذ أو موقوف أو فاسد .

وناحيته الباطنية ترجع إلى قصد المتعاقدين ، فيوصف بأنه مباح أو مندوب أو واجب أو حرام ، فإذا كان البيع مثلا لحاجة البائع إلى الثمن كان مباحاً ،

وإذا كان لاستثمار المال كان مندوباً، وإذا كان لدفع مخمصة كان واجباً ، وإذا كان وسيلة لأكل الربا كان حراماً ، وهذا يستتبع فساد العقد عند بعض الفقهاء دون بعضهم الآخر .

على أنه مع ترجيح وجهة نظر القائلين بأن الحرمة لا ينبنى عليها الفساد ، وإنما تكون المؤاخذة عليها عند الحساب يوم القيامة ؛ فإن التشريع بهذه الوسيلة وهذا الأسلوب يعمل على خلق مجتمع صالح . وذلك بوضع تربية الروح وتهذيب النفس فى الاعتبار فينبنى على ذلك بطبيعة الحال صلاح أعمال الأفراد ؛ لأن النفس الخيرة لا تفعل إلا خيراً ، والنفس الشريرة لا يصدر عنها إلا الشر . ومتى صلحت نفس الفرد صلح عمله ، ومتى صلحت أعمال الأفراد صلح المجتمع الذى يعيشون فيه .

إذ من ذا الذى لا تنصلح أفعاله متى صلحت نفسه .

وأى مجتمع لاينصلح شأنه متى صلحت نفوس أفراده ؟ .

ونهج التشريع الإسلامى فى تقرير أحكامه على هذه الصورة هو بحق النهج المثالى لحماية المجتمع من أى تصرف يهدد كيانه .

لأن تقرير الأحكام على الصورة المتقدمة أمر له أثره البالغ من ناحيتين أساسيتين .

الأولى : ناحية وضع الأحكام بمعرفة الحاكم .

الثانية : ناحية تنفيذها بمعرفة المحكوم .

فمن ناحية وضعها ، لاشك أن الحاكم فى بحثه عن الحكم والتماسه من الأصول

سيعمل جاهداً على معرفة مايريده الله فتأتى أحكامه من هذه الوجهة عادلة وغير مشوبة ، فلن يضع حكما كالذى سلف بيانه يجعل فيه هتك الأعراض فى بعض الأحوال عملا مباحاً .

أما من ناحية التنفيذ بمعرفة الأفراد فإنه لاريب أن كثرة عظمى من الناس سيقبلون على تنفيذها بما يحقق رضا الله ، يبتغون من وراء طاعته فضله ورضوانه وهذا المعنى بذاته كفيل بأن يدفع الناس إلى الخير ، و يكف أيديهم عن الأذى والشر ، ويمنعهم من الاعتداء على الناس وأكل أموالهم بالباطل ـ ذلك أن الأحكام ستكون مؤيدة بوجدانهم ومتصلة بضمائرهم ، فيخضعون لها عن عقيدة وحب لاعن رهبة وخوف .

أو فى الأدنى سيخضعون لها ابتغاء الثواب أو خوفاً من العقاب يوم الحساب

وستكون النتيجة الحتمية لذلك قلة عدد الجرائم والمنازعات فيطمئن الناس على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم ، وتنعدم الشكوى إلى الحكام أو تقل ، ويتناقص عدد القضايا أمام المحاكم ، ويعيش الناس فى راحة وأمان وهدوء واطمئنان .

وعلماء القانون لم تخل أبحاثهم عن التعرض لقواعد الأخلاق وإجراء المقارنات بين ما تتضمنه هذه القواعد وما أتت به أحكام القانون فتراهم مثلا يبحثون فى الصلة بين القانون الجنائى والقانون الأخلاقى ، ويقولون : بأن كلا من القانونين يهدف فى النهاية إلى إسعاد الفرد والجماعة عن طريق فرض أوامر ونواهٍ يلتزم بها الناس ، ولكنهم سرعان ما تصدمهم الحقيقة الصارخة وهى

انعدام التطابق بين القانونين ، وانحصار كل منهما فى دائرته الخاصة ، وإن تقاطعت الدائرتان فى حيز مشترك .

فمثـــلا :

(١) لا يعاقب القانون ، كما أسلفنا على هتك العرض متى تجاوز المجنى عليه الثامنة عشرة ، وكان الفعل برضاه (المادة ٢٦٩ من قانون العقوبات) .

(٢) ويقضى القانون بعدم جواز محاكمة أحد الزوجين إذا زنى ما لم يتقدم الزوج الآخر بشكوى يطلب المحاكمة (المواد ٢٧٣ ، ٢٧٧ من قانون العقوبات ، ٣ من قانون الإجراءات الجنائية) .

(٣) ويقضى بأن للزوجة التى زنا زوجها فى منزل الزوجية الحق فى أن تزنى مع غيره ولا تثريب عليها إن فعلت ذلك ، إذ تكون قد أتت عملا يقره القانون (المادة ٢٧٣ من قانون العقوبات) .

(٤) ويعطى القانون كذلك للزوج الحق فى أن يعفو عن زوجته الزانية حتى بعد دخول السجن فيطلق سراحها منه متى ارتضى معاشرتها (المادة ٢٧٤ من قانون العقوبات) .

(٥) ويقضى بعدم العقاب على الخاطف إذا تزوج بمن خطفها وقد يكون الخاطف غير كفء لها (المادة ٢٩١ من قانون العقوبات) .

(٦) ومن أحكامه أنه لا يعاقب على الشروع فى الإجهاض (المادة ٢٦٤ من قانون العقوبات) .

(٧) ولا يعاقب على الشروع فى أية جنحة إلا بنص (المادة ٤٧ من قانون

العقوبات) وخرج عنده من حيز العقاب الشروع فى جنح الاعتداء على النفس بالجرح ومراودة المرأة على العرض ، وغير ذلك مما تأباه قواعد الأخلاق ، وتشمئز منه النفوس الكريمة ؛ فلم يكن للمشرع حد يلتزمه ، ولا نطاق يعمل فى دائرته ، ولا رقيب يخشى من حسابه ، فوضع الأحكام على هواه ، حتى أنها اختلفت فى المسألة الواحدة تبعاً لما إذا كان المجنى عليه رجلا أو امرأة ـ فالزوج إذا استفزته زوجته وزنت مع غيره وقتلها حال التلبس هى ومن معها ، عوقب بالحبس بدلا من العقوبة المقررة لجريمة القتل العمد (المادة ٢٣٧ من قانون العقوبات) .

أما إذا كان الزانى هو الزوج فلم يعترف القانون بهذا العذر للزوجة . كذلك لم يعترف به للوالد ولا للأخ ولا للولد ، بل افترض فى هؤلاء برودة الدم وطلب منهم أن يغمضوا العين على ما يرون من منكر (وأن يقفوا مكتوفى الأيدى على مسرح جريمة الاعتداء على عرضهم المغتصب وشرفهم المسلوب) وحتى فى العذر بالنسبة للزوج ؛ فلم يجعل القانون من قيام حالة التلبس بالزنا ما يبيح القتل ، بل جعل منه عذراً قانونياً مخففاً تحل به عقوبة الحبس محل الأشغال الشاقة .

ومعنى ذلك أن الزوجة ومن يزنى بها يكونان أمام زوج مقدم على ارتكاب جريمة ضدهما فيحل لهما دفعه بالقتل ، أى يعجلان به خوفاً على نفوسهما .

ومن ثم إذا كانت الزوجة أو الزانى بها أسرع فى قتل الزوج الذى شرع فى قتلهما وقضيا عليه أفلتا من كل عقاب .

من عقوبة الزنا لأنها سقطت بموت الزوج !!

ومن عقوبة القتل لأنهما كانا فى حالة دفاع شرعى عن النفس » .

الوحدة الأدبية والثقافية :

لم تلبث اللغة العربية وقتاً طويلاً حتى تجاوزت حدود الصحراء ، وشرعت تمتد مع الإسلام ، وتقتعد مكانة اللغات التى ولى عنها السلطان ، وقلت إليها الحاجة .

فتلاشت اللغة اليونانية والرومانية والقبطية والفارسية ، وانتشرت اللغة العربية فى أرجاء الوطن الجديد ، ثم انفردت ـ بعد ـ بالبقاء .

وفضل الإسلام على اللغة العربية ظاهر ، فإن إقبال الناس عليه حبب إليهم لغة الوحى ، وأغراهم بإجادتها .

ثم إن انهزام المحتلين الأقدمين حل بلغتهم نفسها .

فما جدوى تعلم لغة الروم بعد ما طردوا من إفريقيا وآسيا ؟.

ذلك إلى أن اللغة العربية التى رشحتها الأقدار كى تكون لغة الوحى الإلهى الأخير أجدر بالحفاوة وأحق بالخلود من غيرها .

ومن ثم سادت هذه اللغة ، وعزت ، ولم تقف أمامها عقبة فأضحت لغة التخاطب والتأليف والشعر ، والمكاتبات الرسمية والشعبية .

وما كان المراكشى المسافر من « صنهاجة[1] » إلى « عمان » مارا بالمغرب والجزائر وتونس وطرابلس ومصر والمدينة إلى شاطىء الخليج ما كان يحتاج إلى ترجمان يصله بالناس فكأنه يمر بعشيرته الأقربين .

---

(١) اسمها الآن الصومال .

ومع سيادة اللغة العربية أقبل عليها أهل الأديان الأخرى على ما ألفوا من لغات .

وحقيق بالذكر أن موسيقى الشعر العربى انتقلت إلى بعض اللغات الشرقية التى أصبحت مكانتها ثانوية ، كما أن الحروف العربية أصبحت أداة الكتابة للفارسية والأوردية والتركية والأندنوسية ...

إن الإسلام أضفى على اللغة العربية قداسة جعلت الحفاظ عليها ديناً ، وضبط قواعدها عبادة .

ولذلك تجاورت علوم الشريعة وعلوم اللغة فى كل دراسة إسلامية وكان الأعاجم ينافسون العرب ـ وربما سبقوهم ـ فى هذه الدراسات معتقدين أن المرتبة الدينية لأى مسلم إنما تقررها براعته فى هذا الميدان .

ولا يزال الجامع الأزهر دليل صدق على هذه الحقيقة ، وينبغى ألا ننسى جنسية بانيه الأول ، فهو مسلم من صقلية ! .

والحركة الفكرية التى انتشرت فى ربوع هـذا الوطن الرحب ترجع إلى أصلين .

(١) ما أنشأه الإسلام إنشاء من علوم خاصة به أو بلغته ، كعلوم التفسير والسنة والفقه والعقيدة والأخلاق ، وعلوم النحو والصرف والأدب والبلاغة .

وقد نهضت بهذه العلوم مدارس لاحصر لها ، لايكاد يخلو منها بلد ذو شأن، وذاك عدا الجامعات التى قامت فى المساجد الكبرى أو انفردت لها معاهد خاصة.

والمسلمون يقبلون على هذا اللون من المعرفة بوصفه مصدر توجيههم الدينى .

ولذلك يجلسون له فى باحات المساجد كما يسجدون لربهم فى المحاريب .

(٢) علوم الحياة التى تفتق عنها العقل الإسلامى ، بعد ماصحح الإسلام نظرته إلى الكون ، وبعثه على التأمل فيه ، واكتناه آياته ، واستغلال خيراته ؛ وقد أقبل العرب على هذا النوع من العلوم ، ودعاهم هذا الإقبال إلى استحياء التراث الفكرى القديم كله ، وإلى استعراضه بدقة وشغف ..

وقد ارتقت الحياة العقلية عند العرب فى جميع الاتجاهات الإنسانية وظهر ذلك جلياً فى حضارتهم التى سنتحدث عنها ، وهى حضارة يحاول الجاحدون ـ تأثراً بأحقاد صليبية ـ أن يطمسوا سناها ، ولكن الحق أغلب .

* * *

شاعت هذه النهضة الأدبية والثقافية فى شتى الأمصار والأعصار ، وتعاون العرب والمسلمون على رعايتها وحمايتها ، حتى أتى على الدنيا زمان لم تعرف فيه علماً ولا فناً إلافى حواضر هذه الأمة الحفية بالعلم والفن .

فكانت أجناس البشر تفد من كل فج لتتتلمذ على الذكاء العربى ، وتعود منه بقبس إلى بلادها تنتفع به وترتفع ...

ثم عثرت الجدود بهذه النهضة ، وجىء بالأسفار التى أفنى العلماء قواهم وأبصارهم فى تأليفها ، فرمى بالألوف المؤلفة منها فى الأنهار والبحار وفضت تلك المجامع على أيدى التتار شرقا والصليبية غرباً .

ودام الصراع بين العلم والجهل قروناً لم تكن الغلبة فيها للخير ، فخرج

العرب والمسلمون من القرون الثلاثة الأخيرة ، وهم من الناحية العلمية ضعاف عجاف ، ذبلت علوم الدين واضمحلت الحياة ، وتبلبلت اللغة الفصحى .

والوحدة العربية المنشودة يجب أن تعود سيرتها الأولى فى المجال الأدبى والثقافى متأثرة خطا الأوائل فى الدرس والتحصيل ، معطية علوم الدين والحياة ماتستحقه من نظر ذكى و بصر قوى ...

وقد أصيبت اللغة العربية بجراحات وعلل تتقاضانا السرعة فى مداواتها ، والقدرة على تخليصها من العقابيل التى اعترتها سواء من تفريط أصحابها أو من كيد عداتها .

إن دراسة كثير من العلوم المهمة لاتزال باللغات الأوربية ، والضعف النفسى الذى رمانا به الاستعمار جعل ألوفاً من المتعلمين يضيقون بلغتهم و يعجزون عن إجادتها .

ثم وفدت الحضارة الحديثة بأشياء لاحصر لها فى ميادين الصناعة وشئون الحياة لم نضع لها بعد الأسماء العربية التى تعرف بها ...

والتخلف فى هذا المضمار شر و بيل ، وأسوأ منه أن يعود العجزة على لغتهم بالاتهام والريبة .

ومؤامرات الاستعمار لإسقاط منزلة اللغة العربية أصابتها بالكثير وتتهددها بالكثير .

والغرض من إماتة هذه اللغة إفناء العروبة والإسلام جميعاً . .

وقد تعددت صور هذا الهجوم فى نصف القرن الأخير .

فتارة تسفر عن نيتها ، وتطلب تفضيل اللغة العامية على الفصحى فى الكتابة والخطابة والإذاعة ، ثم تلتزم هذه العامية فى الحوار الروائى دائماً .

وتارة تنوه بحروف الهجاء ، وطرق الكتابة العربية ، وتطلب : إما تعديلها؛ وإما استبدال الحروف اللاتينية بها .

وتارة تسخر من الشعر العربى ، وتحط من قدره ومعانيه ، وتتهكم ببحوره المنغومة الرائقة ، وتؤثر عليها مايسمى « بالشعر المرسل » .

والشعر المرسل هذا ضرب من الهذيان لايروج عند أديب يحترم نفسه .

ولعل من أسمج مايقرع الآذان ، أن ترى امرءاً يقول للآخر « ميرسى » بدل « متشكر » ! أو « أور يفوار » بدل « إلى الملتقى » .

وفى الوقت الذى تحاول فيه بعض الشعوب إحياء لغاتها الميتة ترى أولئك السفهاء موكلين بإماتة لغتهم الحية .

أى مخزاة تلك ؟ وأى انحلال ؟

ويوجد مجمع اللغة العربية يسمونه مجمع الخالدين ، وأحر به أن يسمى مجمع الهامدين ، فهو لم يُسْد للغتنا العظيمة جميلا يذكر .

والأغرب من ذلك أنه يضم إلى هذا المجمع أعضاء لايخفى حقدهم على العروبة وجهلهم بلغتها .

وفى هؤلاء وأولئك يقول حافظ إبراهيم على لسان اللغة العربية .

رجعت لنفسى فاتهمت حَصاتى وناديت قومى فاحتسبت حياتى

رَمَوْنى بعقم فى الشباب وليتنى عقمت فلم أجزع لقول عداتى

وَلدتُ ولما لم أجد لعرائسى رجالا وأكفاء وأدْت بناتى

وسعت كتاب الله لفظاً وغاية وما ضقت عن آى به وعظات

فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة وتنسيق أسماء لمخترعات ؟

أنا البحر فى أحشائه الدر كامن فهل سألوا الغواص عن صدفاتى ؟

فيا ويحكم أبلَى وتبلى محاسنى ومنكم وإن عز الدواء أُساتى

فلا تكلونى للزمان فإننى أخاف عليكم أن تحين وفاتى

أرى لرجال الغرب عزاً ومنعة وكم عز أقوام بعز لغات

أتوا أهلهم بالمعجزات تفنناً فياليتكم تأتون بالكلمات

أيطربكم من جانب الغرب ناعب ينادى بوأدى فى ربيع حياتى ؟

ولو تزجرون الطير يوماً علمتم بما تحته من عثرة وشتات

سقى الله فى بطن الجزيرة أعظما يَعز عليها أن تلين قَناتى

حَفِظْنَ ودادى فى البِلى وحفظته لهن بقلب دائم الحسرات

وفاخرت أهل الغرب والشرق مطرق حياءً بتلك الأعظم النخرات

أرى كل يوم بالجرائد مزلقاً من القبر يدنينى بغير أناة

وأسمع للكتّاب فى مصر ضجة فأعلم أن الصائحين نُعاتى

أيهجرنى قومى ـ عفا الله عنهم ـ إلى لغة لم تتصل برواة ؟

سرت لُوثة الإفرنج فيها كما سرى لعاب الأفاعى فى مسيل فرات

فجاءت كثوب ضم سبعين رقعة مشكلة الألوان مختلفات

إلى معشر الكتاب والجمع حافل بسطت رجائى بعد بسط شكاتى

فإما حياة تبعث الميت فى البلى وتنبت فى تلك الرموس رفاتى
وإما ممات لاقيامة بعـده ممات لعمرى لم يقس بممات

دار الإسلام :

أدى الأسلاف ماعليهم من واجب فى نشر الإسلام ، فدخلت فيه أمم شتى، وصدق الله وعده للمجاهدين ، فاستخلفهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، ومكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم .

وقامت للإسلام دولة عزيزة الجانب واضحة الدعوة مأنوسة الرسالة يدرك الأدنى والأقصى ماتريده وما تقوم عليه .

وإذا كان السائحون فى أنحاء الاتحاد « السوفييتى » مثلا يرون تطبيقاً عملياً للنظام الشيوعى القائم على ملـكية الدولة للأرض ووسائل الإنتاج .

وإذا كان السائحون فى الولايات المتحدة مثلا يرون تطبيقاً عملياً لحرية الفرد فى التملك والتـكسب والاعتقاد .

فإن أرجاء الدولة الإسلامية الأولى كانت مظهراً للإسلام من حيث إنه عقيدة ونظام ؛ ويستطيع أى جوال فى جنباتها أن يلمح شارات دولة تنهض على رسالة بارزة ، وتستمد مكانتها ووجاهتها فى الداخل والخارج من تمسكها بهذه الرسالة وإنفاذها لأحكامها وسهرها على رعاياها ودفاعها عن حوزتها ، والتحدث باسمها فى المجالات العالمية ، والمؤتمرات الدولية ...

والخلافة الإسلامية ورثت النبوة فى هذه الوظيفة ، وظيفة سياسة الجماهير وفق شرائع الإسلام والنظر فى مصالحهم الدنيوية والأخروية فى نطاق مقررات هذا الدين .

وقد بقيت الأمة الإسلامية فى أرضها المترامية الأطراف تحترم هذا النظام .

وربما انتقض بعض الحكام على هذه الخلافة الجامعة ، وأسسوا حكومات خاصة بالأقطار التى استقلوا بها .

وسواء عادت هذه الدويلات إلى الكتلة أو ظلت بمنأى عنها ؛ فإن الفقهاء أطلقوا على كل بلد تقام فيه أحكام الإسلام وتحترم فيه تعاليمه وأهدافه « دار الإسلام » .

وقد استمات الاستعمار فى نسف هذه الدار ، وطىِّ الدلالات التى تقترن بها .

ونحن الآن أمام وطن إسلامى مبعثر الأفراد والجماعات فى بقاع شتى .

وتوجد بلا ريب دول تحمل العنوان الإسلامى لكن من الصعب القول بأن نظم الحكم فيها ، أو شرائع القضاء العام بها تقوم على أسس إسلامية .

إن أحوال مسلمى اليوم – على كثرتهم – تشبه مع تجوز يسير – أحوال القلة التى عاشت قبل الهجرة ؛ فقد كانوا يمثلون عقيدة تتطلب النظام الذى يحميها ويحييها ، ولم يتهيأ لها ذلك النظام المنشود إلا بعد الهجرة إلى المدينة والاستقرار فيها . . .

ونحن العرب نهتم بكل مسلم على ظهر الأرض ؛ فهو ثمرة رسالتنا وجزء من كياننا الروحى .

ولو وجد بالمريخ مسلم لقامت للفور أواصر الود تصل حبالنا بحبله .

وقد أسلفنا القول أننا ندرس الوطن العربى على أنه جزء من الوطن الإسلامى . .

والواقع أن العرب ـ وإن اتسعت بلادهم ـ لا يبلغ عددهم أكثر من ٢٠٪ من جملة المسلمين فى العالم .

وإخوان العقيدة هؤلاء لهم فى قلوبنا مكان ، وفى أعناقنا ذمام ؛ ويستحيل أن ننسى مشكلاتهم أو نتبلد لآلامهم ، أو نفرط فى روابطهم .

ومن حق الشعوب المسلمة أن تحيا فى جو الإيمان الذى اقتنعت به ، وأن تحتكم فى شئونها كافة إلى النصوص التى تقدسها ، كما أن من حقها أن تتضام أو تتضافر لبلوغ هذه الغاية ولإزاحة العوائق التى تعترضها .

ويبدو هذا الحق جليا فى البلاد التى يكون المسلمون فيها كثرة .

أما حيث يكونون قلة فما بد من أن يعيشوا وراء سياج عقائدهم وحدها ، مؤدين من شعائر الإسلام مالا يعرضهم لصدام مرددين قول الله : ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ .

وهاك إحصاء يكشف عن جملة المسلمين فى العالم ، والأوطان التى توزعوا عليها ، وهو إحصاء أدنى إلى الدقة من غيره .

ولا ننسى أن أعداد المسلمين فى الأمم الشيوعية أو فى ظل الحكومات النصرانية موضع مماراة ، وأخذ ورد، بيد أن ذلك الإحصاء قارب الصواب جهده

ولا ملحظ عليه إلا أنه سجل من بضع سنين زاد المسلمون خلالها قليلا ، كما يشير إلى ذلك آخر إحصاء وقع فى الجمهورية العربية المتحدة ، وأن عدة تغييرات سياسية مهمة وقعت خلال هذه الفترة يجب أن تستدرج .

ذلك ، ويلاحظ القارئ أن المسلمين كثرة فى نحو ٣٨ قطراً أى مايقرب من نصف الأمم المتحدة ! ! !

اسم البلد	مجموع السكان	المسلمون
اتحاد جنوب أفريقيا	١١ ٥٠٠ ٠٠٠	٨٣ ٠٠٠
اريتريا	١ ١٠٥ ٠٠٠	٦٢٥ ٠٠٠
فلسطين المحتلة	١ ٢٦٠ ٠٠٠	١٦٢ ٠٠٠
أفريقيا الاستوائية الفرنسية	٤ ٤١٦ ٠٠٠	١ ٣٠٨ ٠٠٠
أفريقيا الغربية الجنوبية	٣٥٢ ٠٠٠	٧٠ ٠٠٠
أفريقيا الغربية الفرنسية	٢٠ ٨٤٠ ٠٠٠	٨ ١٢٠ ٠٠٠
أفغانستان	١١ ٤٠٠ ٠٠٠	١١ ٠٨٥ ٠٠٠
ألبانيا	١ ٢٠٠ ٠٠٠	٨ ٢٥ ٠٠٠
أمريكا الجنوبية	٢٠٠ ٠٠٠	٥٣ ٠٠٠
أندونيسيا	٧٢ ٤٥٠ ٠٠٠	٦٥ ٣٤٢ ٠٠٠
أوغنده	٥ ٩٦٢ ٠٠٠	٢ ٢٣٦ ٠٠٠
إيران	١٩ ٨٩٦ ٠٠٠	١٩ ٥٦٢ ٠٠٠
الاتحاد السوفياتى	٢١٢ ٠٠٠ ٠٠٠	٢٨ ٠٠٠ ٠٠٠
الأرجنتين	١٧ ٤٢٢ ٠٠٠	٨ ٠٠٠
الأردن	١ ٣٥٠ ٠٠٠	١ ١٤٢ ٠٠٠
الباكستان	٨١ ٨٩٨ ٩٠٠	٨٠ ٣٤٥ ٠٠٠
البحرين	١٠٩ ٧٥٠	١٠٩ ١٠٠
البلاد العربية السعودية	٧ ٠٠٠ ٠٠٠	٦ ٩٨٥ ٠٠٠
التبت	٣ ٠٠٠ ٠٠٠	٢٥٢ ٠٠٠

اسم البلد	مجموع السكان	المسلمون
الحبشة	١١ ٨٩٥ ٠٠٠	٤ ٧٨٠ ٠٠٠
الجزائر	١٠ ٨٣٠ ٠٠٠	١٠ ٧٦٨ ٠٠٠
السودان	٧ ٥٠٠ ٠٠٠	٦ ٠٠٠ ٠٠٠
الصحراء الأسبانية	٨٠ ٠٠٠	٧٥ ٠٠٠
الصين	٦٠٤ ٠٠٠ ٠٠٠	٥١ ٠٠٠ ٠٠٠
العراق	٧ ٦٨٥ ٠٠٠	٦ ٩٣٥ ٠٠٠
الكمرون البريطانية والفرنسية	٤ ٠٨٣ ٠٠٠	٦٩١ ٣٠٠
الكنغو البلجيكى والفرنسى	١١ ٧١٦ ٠٠٠	٢ ٥٢٢ ٠٠٠
الكويت	١ ٢٠٠ ٠٠٠	١ ٠٠٠ ٠٠٠
الملايو	٥ ٢٢٧ ٠٠٠	٢ ٦٨٢ ٠٠٠
الهند	٣٥٧ ٠٠٠ ٠٠٠	٣٦ ٠٠٠ ٠٠٠
الهند البرتغالية الصينية	٢٨ ٥٢٥ ٠٠٠	٥٧١ ٠٠٠
الولايات المتحدة الأمريكية (وكندا)	١٦٨ ٦١٨ ٠٠٠	٠٣٢ ٥٠٠
اليمن	٥ ٣٠٠ ٠٠٠	٥ ١٠٠ ٠٠٠
اليونان	٨ ٠٠٠ ٠٠٠	١٥٢ ٠٠٠
بتشوانا لاند	٢٩٤ ٠٠٠	٥٧ ٠٠٠
برونى	٤٦ ٠٠٠	٣٥ ٠٠٠
بلغاريا	٧ ٢٦٨ ٠٠٠	٨٠٥ ٠٠٠
بناما	٨٠٦ ٠٠٠	١٩٤ ٠٠٠

اسم البلد	مجموع السكان	المسلمون
بوتانا	٣٠٠ ٠٠٠	٢ ٠٠٠
بورما	١٨ ٥٠٠ ٠٠٠	٧٤٥ ٠٠٠
بورنيو الشمالية	٣٤٨ ٠٠٠	٢٦٠ ٠٠٠
بولنده	٢٥ ٠٠٠ ٠٠٠	١١ ٠٠٠
بلاد الصومال	٢ ٠١٤ ٠٠٠	١ ٩٩٢ ٠٠٠
تركيا	٢٠ ٩٠٠ ٠٠٠	٢٠ ٥٨٠ ٠٠٠
تنجانيقا	٧ ٧٠٧ ٠٠٠	١ ٤٦٣ ٠٠٠
تونس	٣ ٣٥٠ ٠٠٠	٣ ٢٠٠ ٠٠٠
تيمور البرتغالية	٣٤٠ ٠٠٠	٨٩ ٠٠٠
جاميكا	١ ٥٠٠ ٠٠٠	١ ٠٠٠ ٠٠٠
جبل طارق	٢١ ٠٠٠	٣ ٥٠٠
جزائر القمر	١٤١ ٧٥٤	١٣٤ ٧٥٤
جزائر ملاديف	١٠٠ ٠٠٠	١٠٠ ٠٠٠
جزر الفيليبين	١٩ ٢٥٠ ٠٠٠	١ ١١٢ ٣٢٤
جزيرة يونيون	٥٤٢ ٠٠٠	٥ ٠٠٠
ورديسيا	٣ ٨٩٣ ٠٠٠	١١٢ ٠٠٠
رومانيا	١٧ ٢٠٠ ٠٠٠	٥٧ ٠٠٠
زنجبار	١ ٠٠٠ ٠٠٠	٩٩٨ ٠٠٠
ساحل الذهب	٤ ١٩٥ ٠٠٠	٢٧٢ ٠٠٠

اسم البلد	مجموع السكان	المسلمون
ساراواك	٥٦٢ ٠٠٠	٤٢٢ ٠٠٠
سنغافورة	١ ٠٢٠ ٠٠٠	٤٦١ ٠٠٠
سوريا	٤ ٠٠٠ ٠٠٠	٣ ٣٠٠ ٠٠٠
سيام	١٨ ٣٤٠ ٠٠٠	٦٤١ ٠٠٠
سيراليون	٢ ٠٠٠ ٠٠٠	٢١٥ ٠٠٠
سيشل	٣٧ ٠٠٠	٥ ٣٠٠
سيلان	٧ ٦٣٢ ٠٠٠	٥٠٠ ٠٠٠
طنجة	١١٢ ٠٠٠	٠٧٧ ٠٠٠
عدن	٧٥٣ ٠٠٠	٧٢٥ ٠٠٠
عمان	٨٢ ٠٠٠	٨٠ ٠٠٠
غامبيا	٢٥٢ ٣٨٩	٢١٤ ٥٢٩
غانه الأسبانية والبرتغالية	٥٢٢ ١٩٤	٣٠٤ ١٩٤
غيانا البريطانية	٤٣٥ ٠٠٠	٢٢ ٤١٦
فرنسا	٤٢ ٣٠٠ ٠٠٠	٢٥٤ ٠٠٠
فنلاندا	٤ ٠٢٩ ٠٠٠	٨٥٠
فيجى	٣٠٢ ٠٠٠	١٤ ٠٠٠
قبرص	٥٠٠ ٠٠٠	١٠٣ ٠٠٠
كوريا	٢٠ ٥٦٩ ٠٠٠	١٠٠ ٠٠٠
كينيا	٥ ٦٩٢ ٠٠٠	٢٠٨ ٠٠٠

اسم البلد	مجموع السكان	المسلمون
لبنان	١ ٣٥٠ ٠٠٠	٧٩٥ ٠٠٠
ليبيا	١ ٠٩١ ٨٣٠	١ ٠٧٢ ٠٠٠
مالطة	٣٠٦ ٠٠٠	٢ ٦٠٠
مدغشقر	٤ ٣٤٩ ٠٠٠	٨٣٠ ٠٠٠
مراكش الأسبانية	١ ٣٥٠ ٠٠٠	١ ٣٠٤ ٠٠٠
« الفرنسية	١٠ ٥١٤ ٠٠٠	١٠ ٠٠٠ ٠٠٠
مسقط	٨٢٩ ٠٠٠	٨٢٩ ٠٠٠
مصر	٢١ ٦٤٠ ٠٠٠	٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠
مكاو	١٥٧ ١٧٥	٢ ٥٠٠
موريتيوس	٥١١ ٠٠٠	٦٤ ٠٠٠
نياسالاند	٢ ٣٣٠ ٠٠٠	٢٠٩ ٠٠٠
نيبال	٧ ٠٠٠ ٠٠٠	٢ ٦٠٠
نيجيريا	٢٤ ٠٠٠ ٠٠٠	١٧ ٤٠٠ ٠٠٠
هايتى	٣ ١١١ ٠٠٠	٣٣ ٠٠٠
هنج كنج	٢١٨ ٠٠٠	١٤ ٠٠٠
يوغوسلافيا	١٥ ٧٧٢ ٠٩٨	٢ ٠٠٠ ٠٠٠

العرب على اختلاف أديانهم :

مهما اختلف سكان هذه البلاد فى عقائدهم فهم جميعاً مواطنون شرفاء ، متساوون فى الحقوق والواجبات ، لا ينزل بأحدهم ضيم ولا يذاد عن فضل .

وقد أرسى الإسلام ـ وهو دين الكثرة الكبرى من العرب ـ دعائم هذه المعاملة النبيلة ، وعرفت بها دياره يوم كانت « أوربا » لا تعرف اختلاف الدين إلا على أنه القطيعة الباتة ، والخصام الطويل .

نعم فإلى مطالع العصر الحديث كانت دول « أور با » تألف التناحر المذهبي وتشعل من أجله الحروب التى لا تخمد جذوتها .

أما الإسلام الذى جعل بيت الزوجية يسع دينين ؛ فإنه لم يضيق الأرض الفضاء أمام أتباعه وأتباع اليهودية أو النصرانية .

ولقد وسعهم المجتمع الإسلامى كما يسع أبناءه على ما أسلفنا .

وشىء آخر يجب إبرازه فى تعاليم هذا الدين القيم ، إنه لم يسمح فقط لمخالفيه فى الرأى أن يعيشوا فى كنفه ، بل جعل حياتهم وكرامتهم فى ذمته ؛ فهو يدفع عنهم إن هوجموا ، و يرد العدوان إن ظلموا .

وكان الخليفة إذا مات أوصى مَنْ بعده بعامة المسلمين ، و بأهل الذمة على سـواء .

وليس يعرف فى تاريخ العقائد ـ ولن يعرف ـ أشرف من هذه السياسة ، ولم يؤثر عن منتصر ـ ولن يؤثر أبداً ـ أن يحتضن مخالفيه فى الرأى ، بل مكذبيه

فى الاعتقاد ؛ فيلقى عليهم كنفه ، و يشهر سيفه ذوداً عن حماهم .

ولذلك لم تشعر أرض العرو بة والإسلام خلال تاريخها الطو يل بما يسمى « مشكلة الأقليات » فإن هذه المشكلة وليدة أزمات الخلق ، والرأى ، والضمير التى باضت وأفرخت فى أوربا خلال العصور الوسطى ، والتى رأى ساسة الغرب أن يرمونا بها إشباعاً لحساساتهم الاستعمار ية .

ولا شك أن ناساً كثيرين من أهل الكتاب دخلوا فى الإسلام أفواجاً ؛ إعجاباً منهم بهذه السماحة الرائعة ، وتخلوا عن دياناتهم الأولى .

فهل ذلك ذنب الإسلام ؟

إن الكثرة التى اعتنقت الإسلام فى مصر ، وفى غير مصر من أقطار العرو بة اعتنقته عن إرادة حرة ؛ بل اعتنقته عن إعزاز وحب .

وحركة الفتح الإسلامى الأول حطت عن كاهل الشعوب أثقال الفرس والرومان التى بهظتهم قروناً طو يلة ، وفى أهداف هذا الجهاد الدينى الذى قام به المسلمون على عهد الرسول وخلفائه يقول مؤلفو كتاب « المجتمع العربى » .

« فإن الأمة العربية حملت فى هذا الدور الهام من أدوار التاريخ أمانة كبرى ، هى تحرير أهالى الشرق الأدنى من نير العبودية وتخليص المعابد والكنائس والأديرة من ظلمة الاضطهاد ، ورد كرامة البشر الضائعة فى تلك المنطقة و بث رسالة جديدة فى الإصطلاح ، وكان أن ظل العرب فى حركة جهاد طو يلة استمرت من سنة ١٢ هـ حتى سنة ١١٤ (٦٣٣م ـ ٧٣٢ م) فخاضت جموعهم القتال فى موجات متلاحقة ، ودخلوا أعنف المعارك التى شهدتها البشر ية من

أجل التحرير والعقيدة ، وضربوا أروع الأمثلة فى الدفاع عن المبادئ الإنسانية الشريفة ؛ وفى خلال هذه المعارك الطويلة سقط كثير من الشهداء فوق كل بقعة من هذا الوطن الفسيح الممتد من الخليج العربى إلى المحيط الأطلسى ؛ حتى غدت الدولة الإسلامية العربية تشمل الأندلس وشمال أفريقية ومصر والشام والعراق وفارس وشمال الهند فضلا عن شبه الجزيرة العربية .

وعلى أن العرب لم يحرروا هذه المنطقة من الخوف ، ويحققوا لها الطمأنينة والسلام فحسب ؛ وإنما حملوا لأهل البلاد الأصليين مبادئ المحبة والإخاء والمساواة والحرية ؛ ومصداق ذلك عقود الصلح التى عقدها العرب مع شعوب المنطقة كلها : مع أهل العراق والشام ومصر والمغرب .

وأول ما يلاحظ على هذه العقود أنها تنبع كلها من نبع واحد ، وتكفل للشعوب المتعاونة مع العرب حرية النفس والعقيدة والمال ؛ فحررت الكنائس اليعقوبية والنسطورية فى مصر والشام والعراق ، وظفر الأهالى الذين اختاروا البقاء على دينهم بما لم يظفروا به من حريات .

وهذا ميخائيل الأكبر بطرك أنطاكية اليعقوبى يقول : « تخلصنا من قسوة الروم وأذاهم وحنقهم وتحمسهم العنيف ضدنا ، ووجدنا أنفسنا فى أمن وسلام » .

ويضيف المستشرق « أرنولد » إلى هذه المآثر حقائق أخرى ، فيذكر أن المسيحيين أصبحوا تحت حكم العرب أحسن حالا من قبل ، لأنهم لم يحصلوا على حرياتهم فحسب : بل استطاعوا فى كنف الإسلام أن ينشروا المسيحية فى جهات لم يبلغوها من قبل ، وذلك بفضل تسامح العرب واتساع رقعة الدولة العربية » اهـ

ماذا يطلب الاسلام بإزاء هذا السلوك العالى ؟

إنه يطلب عوضاً لا يصعب على نفس شريفة ! يطلب أن يلقى الطمأنينة ، والود عند من بذل لهم وده وطمأنينته .

والإسلام ـ كما نعلم عقيدة ونظام ، وهو يكره أن تحارب عقيدته بالفتنة والمقت ، أو يحارب نظامه بالفوضى والعبث .

فإذا نظر المسلمون إلى أهل الكتاب فوجدوا لدى بعضهم كنوداً يستنكر حق الحياة لهذا الدين ، ويستبيح الاتصال بأعدائه فى دول أخرى كى يكون لهم صنيعة ، فماذا يفعل الاسلام ؟

أيبقى يد الود مبسوطة أم يقبضها ، أيدع حبل الموالاة موصولا أم يقطعه ؟

فى هذه الحال من الغش والخيانة والعداء الكامن أو السافر ، يهيب الإسلام بأبنائه أن ينكمشوا على أنفسهم ، وأن يتضام بعضهم إلى بعض حتى يحسنوا الدفاع عن إيمانهم المهدد .

وفى هذا يقول الله : ﴿ لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى الْمَصِيرُ(١) ﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ(٢) ﴾ .

ولنضرب مثلا من تاريخنا المعاصر يكشف عن هذه الحقيقة :

---

(١) آل عمران آية : ٢٨ (٢) آل عمران آية : ١١٨

فى هذه الأمة العربية أكثر من تسعة أعشار السكان مسلمون وبينهم قلة يهودية عاشت فى بلادنا لم تلق ذرة من التقتيل والهوان اللذين لقيهما إخوانهم فى أوربا .

وبغتة تآمر يهود العالم على الوطن الذى آواهم ، واستعانوا بالصليبية الحاقدة على تقطيع أوصال الأمة الساذجة المسترسلة فى سماحتها وغفلتها .

فإذا يهود اليمن والعراق والشام ومصر والمغرب ينسون اللغة والتاريخ والجنس ! ويستديرون لمواطنيهم القدامى معملين أسلحتهم فيهم !

هذا هو جزاء وفائنا بذمتنا ، واحترامنا لعقائد الآخرين !!

أفيلام المسلمون إذا أحبوا الاستيثاق لأنفسهم ، أو إذا فحصوا الأمور على ضوء ما بلوه من تجارب ، وعانوه من مآسى ؟ إن إنسانا ما لا يلام إذا أحاط حقه فى الحياة بشتى الضمانات خصوصاً من الجهات التى لدغ منها ، وذاك ما فعله العرب المسلمون فى بعض الأحيان .

ولو أن مسلماً خان قومه ما لقى خيراً من ذلك المسلك .

أما فى جو السلام والبراءة ، فليس فى الدنيا أنقى ولا أزكى من أرض العروبة والإسلام .

وهيهات أن يصل الغرب إلى معشار الاعتدال والإنصاف اللذين يوفرهما الإسلام لمتبعيه وتاركيه على سواء .

المسلمون على اختلاف أجناسهم :

الإسلام دعوة عامة خالدة ، وبديهى أن تبدأ بالعرب قبل أن تنداح دائرتها فتصل إلى طورها العالمى الواسع الأرجاء .

كان البلاغ أولا فى حدود الأقارب ، ثم فى نطاق مكة وما حولها ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[1] ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا[2]﴾ .

ثم أخذ كل عاقل يستمع إلى أنباء الرسالة الجديدة يشعر أنه مكلف باتباعها ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ[3]﴾

وأخيراً تقرر أن أضواء الإسلام كأشعة الشمس ، لا تدع براً ولا بحراً إلا تألق بها واستنار ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا[4]﴾ وبذلك البيان الحاسم والعموم الشامل أدى الدعاة الأوائل رسالة الله ، ولا يزالون يؤدونها فى نطاق الإنسانية التى تعمر كل قارة ، وتنتقل فى كل عصر .

ودخل فى الإسلام الروم والفرس والترك والهنود والزنوج وسائر أجناس البشر من أصفر وأحمر وأبيض .

والمسلمون على اختلاف الليل والنهار يزيدون ، ولا نظن هذه الزيادة تقف عند حد معين ، بل إن أملنا أن تشمل جمهرة البشر يوماً ، ويتحقق قول الله جل شأنه : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ[5]﴾ .

---

(١) الشعراء آية : ٢١٤ (٢) الشورى آية : ٧ (٣) الأنعام اية : ١٩
(٤) الفرقان آية : ١ (٥) الصف آية : ٩

فهل انتشار الإسلام على هذا النحو معناه أن يستعرب الخلق كافة ، وتذوب الأجناس الأخرى ؟ كلا كلا ! ! فإن بقاء الأجناس واللغات آية كونية من آيات الله فى الأنفس والآفاق .

وفى هذا يقول الله جل شأنه : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (١) ﴾ .

والذين يكلفون الإسلام بهذا يطلبون منه أن يفعل المستحيل .

والذين يعيبون الإسلام بأنه لم يفعل هذا ، ويقولون : إن الإسلام لم ينجح فى إذابة القوميات الأخرى إنما يدلون بهذا القول على عدم فهمهم لتعاليم الإسلام ولطبائع المجتمعات . . .

إن الإسلام إثبات لا تغيير ، إثبات لفطرة الله فى الخلائق لا تشويه لها أو عدوان عليها ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢) ﴾ .

ويستطيع الإنجليزى والروسى والصينى أن يكونوا مسلمين وهم على ألسنتهم وألوانهم ؛ فإن معرفة الله الواحد ، والاتجاه إليه ، والإعداد للقائه معان فى الأفئدة والألباب ميسورة للناس أجمعين .

وشرحُ الإسلام ووصاياه لأهل الأرض بكل لغة ، فريضة علينا نحن العرب الذين اصطفانا القدر لتلقى الوحى ، ولَفْتِ العالمين إلى رب العالمين .

وكون اللغة العربية لغة الإسلام ، لا يعنى أكثر من فرضها لغة عالمية للتفاهم الإنسانى كله ، وليس معناه محو اللغات الأخرى .

---

(١) آية ٢٢ الروم (٢) آية ٣٠ الروم .

وفتح باب الاستعراب للأجناس كلهـا لا يعنى أكثر من تجديد الأمة العربية على مر الزمان ، وليس معناه إزالة الأجناس الأخرى .

* * *

بيد أن هناك حقيقة لابد من شرحها وتجليتها ، إن هذا الاختلاف الجنسى يعلو عليه الإسلام بوحدة المشاعر والسلوك التى يفرضها على أتباعه ، وبأخوة الإيمان التى ترجح أى آصرة أخرى ، وبالولاء لله ورسوله الذى يسبق كل ولاء .

وفى الحديث : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به » .

اجعل الكعبة مثلا نقطة ارتكاز لدائرة تشمل نصف آسيا وإفريقيا وأوروبا ، وتطوى داخل أقطارها الهنود والعرب والفرس والترك والأحباش .

إن هؤلاء الأقوام يجعلون هـذه الكعبة قبلتهم خمس مرات فى اليوم ، وتتصل سرائرهم بمناجاة واحدة ، وتهفو قلوبهم برجاء واحد ، ويحيون فى هذه الدنيا على نهج متقارب ، وهم ما زالوا ، وسيبقون على أجناسهم الأولى . . .

وعندما تتسع هـذه الدائرة ، فتشمل جماهير من البشر أكبر سيظل الأمر على ما نرى .

إيمان فذٌّ ينتظم القلوب والأفكار ، وخلاف فى الهيئات والبيئات واللغات لا أثر له فى شىء ذى بال .

ونحن واثقون من أن مستقبل الإسـلام طيب ، وأن العودة إلى الله الأحد الصمد سوف تنشرح لها صدور جماهير كثيفة من الخلائق وأن بعد هـذا الجزر مدا عريضاً تنتعش فيه مواريث السماء ، وترفرف به أعلام التوحيد .

ويومئذ لن يكون ولاء أبناء آدم لوطن أو جنس ، ولن تكون عصبياتهم لمغنم ، أو خرافة ، بل لله وحده .

إن الإسلام يجعل تعلق الناس بالروح لا بالمادة ، بالسماء لا بالأرض ، بالخصائص العليا لا بالغرائز الدنيا ؛ وقد تعارف العرب والمسلمون فى أقطارهم الفيحاء على تلك المبادىء المرنة السمحة ، ونجوا من الوثنية الحديثة التى عرفتها حضارة الغرب فعرفت بها التشاجر والتشاحن وسفك الدم الحرام وأكل المال الحرام .

إن المؤرخ الإنكليزى « تونبى » يحسد العرب والمسلمين على هذه الوحدة الزكية التى انتظمتهم مع تباين الدار ، واختلاف الجنس فيقول[1] :

« إن الإنسان العربى يستمتع بمزايا عظيمة حيثما كان . تضفيها عليه نسبته للأمة العربية ، فهو يشعر أنه فى داره مهما تنقل بين بلاد العروبة والإسلام .

إن الحجازى أو النجدى أو العراقى أو المصرى أو المراكشى أو التونسى... إن أحد هؤلاء لا يجد فرقاً فى الجو الاجتماعى ، ولا فى روح الحياة العامة ، ولا فى مستوى الإدراك السياسى بين الرباط والقاهرة ودمشق وبغداد .

بل المسلم ـ أيا كان لونه ـ لا يحس فرقاً يذكر عند ارتحاله بين حواضر الإسلام من فاس إلى كابول إلى كراتشى .

فدار الإسلام تسودها مشابه جامعة ! قباب المساجد ، ومآذنها ، والزوايا ونافورات المياه ، وطابع العمارة ، وهتاف المؤذنين داعين إلى الصلاة ، واستقبال

---

(١) بحوث فى المجتمع العربى للدكتور أحمد سويلم العمرى .

شهر رمضان لأداء فريضة الصوم ، وسائر معالم الإسلام التى تظهر على الأشخاص والأشياء . . .

ذلك كله يجعل المسلم لا يخامره إلا شعور واحد ، الشعور بأنه فرد من هذه الأمة الكبيرة ، وجزء من كيانها الواحد .

وهذه العاطفة هى العامل المهم إذا حزب الأمر وتعرض الإسلام لخطر داهم وتطلب الموقف التضافر والحزم ، وعندئذ تسمو هذه العاطفة العربية الإسلامية على فكرة « الجنسية الحديثة ـ يعنى القومية الخاصة » .

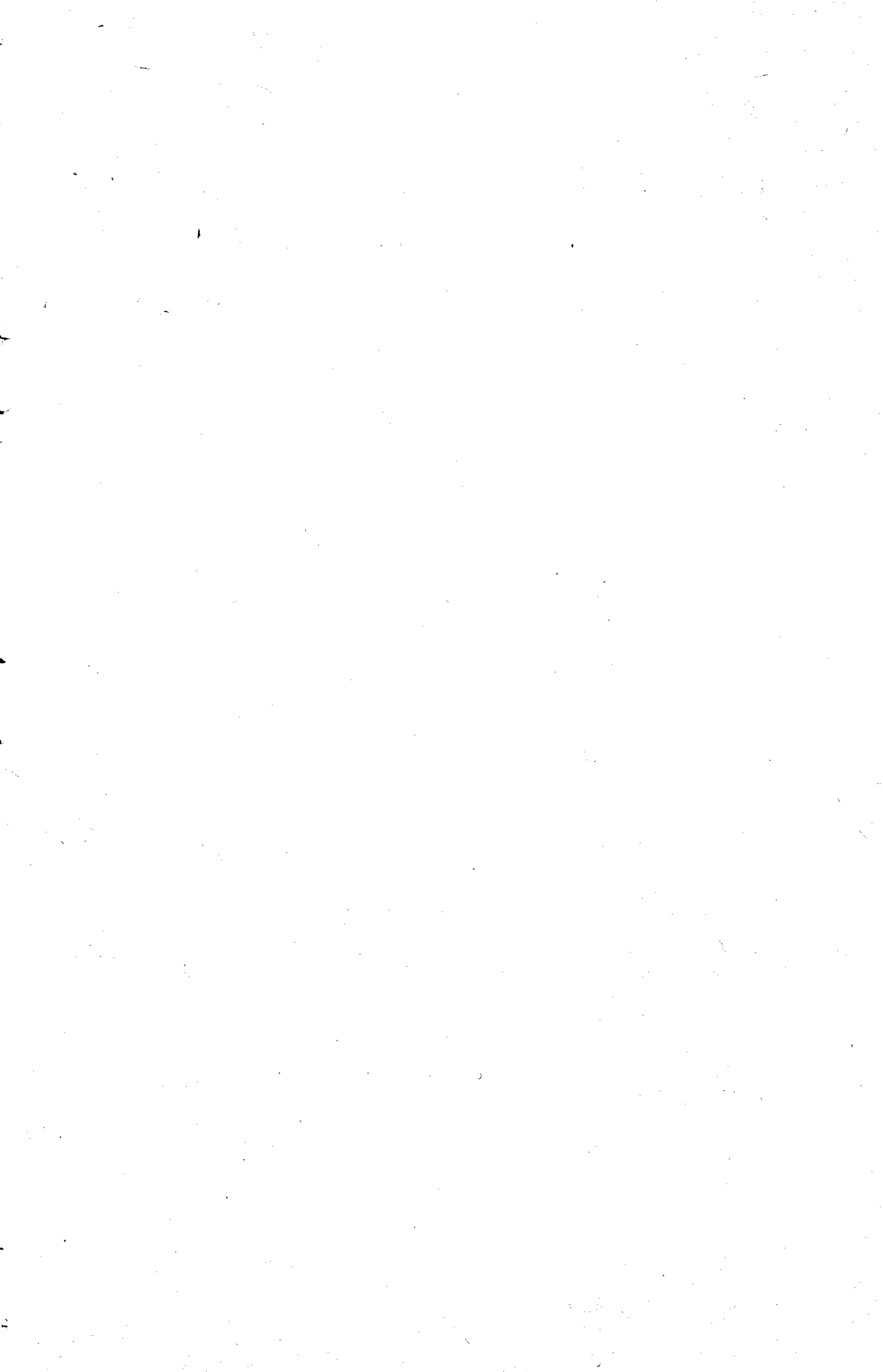
قال المؤلف : « وينصح « تونبى » شعوب الغرب أن تقتدى بالعرب ـ والمسلمين ـ وأن تترك أحقادها ومنازعاتها وتطاحن دولها فى سبيل السيادة السياسية ، والنزعات القومية .

وبذلك تخف حدة الخصام بينها ، وتبتعد أخطار الحروب المدمرة ، وإلا فإن حضارة الغرب معرضة للانهيار ، خصوصاً بعد تفجير قوى الذرة » .

أقول : لابد أن هذا المؤرخ زار البلاد الإسلامية قبل أن تنجح سياسة الغرب فى غرس العصبيات الخاصة ، وجعل كل قطر مشغولا بنفسه وحدها .

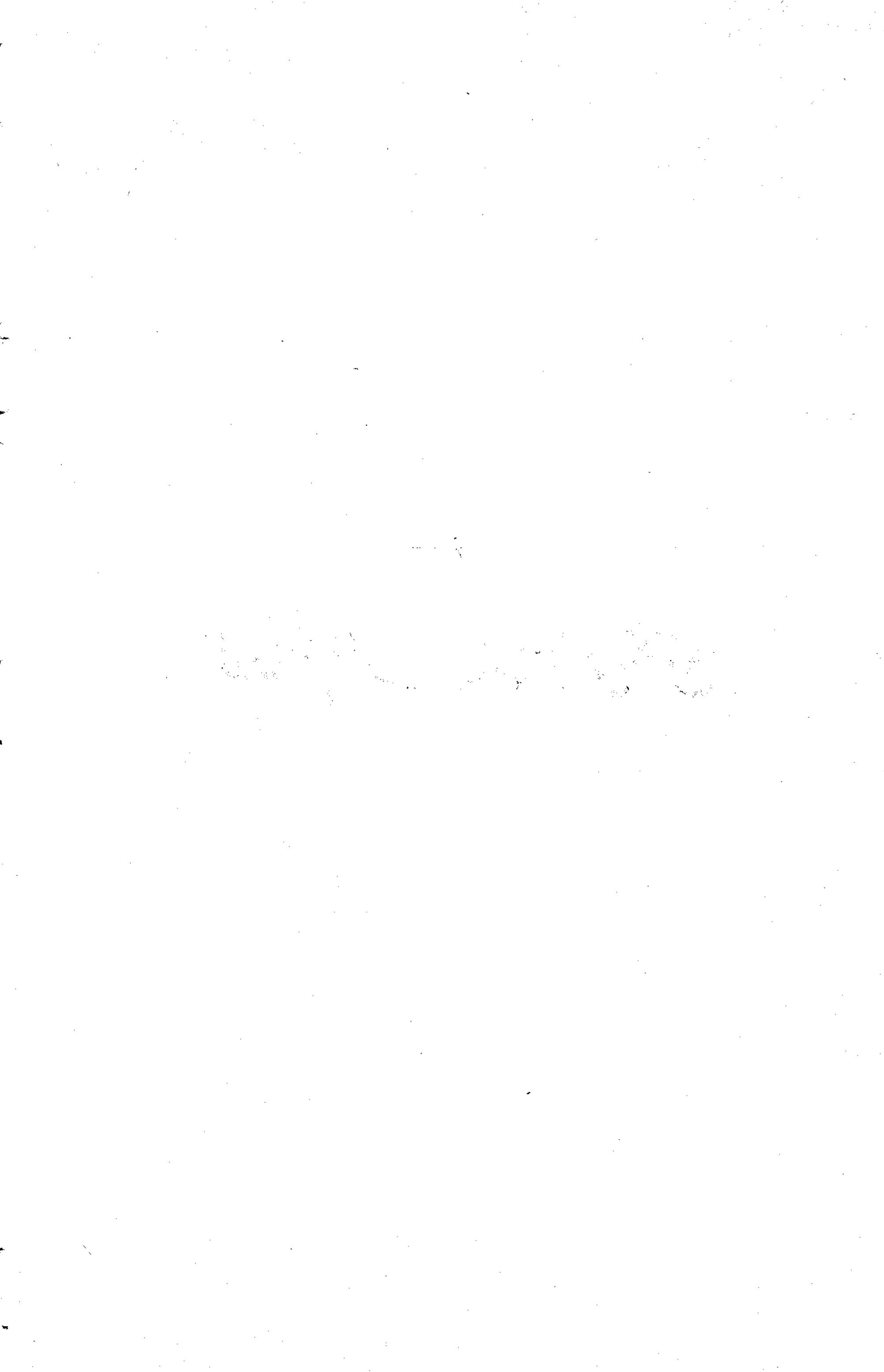
على أن صبغة الإسلام باقية نامية برغم العوارض الطارئة .

والمسلمون على اختلاف أجناسهم أمة واحدة تنتظمهم أخوة الإسلام على تراخى الزمان واختلاف المكان ...



— ٤ —

الدعائم العامة لأى مجتمع



المجتمعات الإنسانية ليست سواء فى الدعائم التى تقوم عليها .

فقد يكون أحد العناصر ركناً فى مجتمع ما ، ونافلة أو محظوراً فى مجتمع آخر !

ثم إن الواقع الذى نصفه ونحن ندرس مجتمعاً ما قد يكون كريهاً لدى أصحابه فهم – لو استطاعوا – حوروا مجتمعهم إلى طور آخر أحظى لديهم وأدنى إلى رضاهم .

ترى ما يصنع الباحث ؟ أيذكر الواقع على علاته ، أم يقرر ما تصبو إليه النفوس فى تكوين مجتمع أرقى ؟

إن المجتمع حُزْمة من الأفراد يشد بعضها إلى البعض الآخر أكثر من رباط قائم .

وهذه العرى الموثقة تنشأ أولا وآخراً من مشاعر النفوس ، واختيارها الحر ، لا ، بل الأمر أعظم من مجرد الاختيار ، إنه الرغبة الأصيلة العاقلة الدائمة فى أن يسهم المرء مع الآخرين فى إقامة هذا المجتمع والعيش له ، والعيش فيه .

وقد سرد العلماء فى عدة أمور رأوا أن المجتمع يتكون منها ، وأن الأفراد يرجعون إليها فى علاقاتهم النفسية بهذا المجتمع .

ونحن نحب أن ندرس هذه الأمور بأناة ، مذكرين القارىء بما قلناه من أن المجتمعات ليست سواء فى دعائمها ؛ لأن ما يُكوّن بواعث التجمع يختلف فى قطر عنه فى آخر !!

فمثلا يخطىء من يعد اللغة من دعائم المجتمع فى الاتحاد السويسرى ، لأن هذه البلاد السويسرية تنتشر فيها عدة لغات .

لابد أن هناك أسساً أخرى تجمّع عليها أهل هـذه البلاد يمكن أن يعثر عليها الباحثون .

من أجل ذلك كان إرسال حكم فى هذه الشئون بعيداً عن التمحيص العلمى !!

ونستطيع على ضوء ما تقدم أن نسأل : هل الدين ركن فى القوميات المختلفة ؟ و إذا كان ركناً فهل هو ركن خطير ؟

قرأت للسيد كمال الدين محمود هذه الكلمة « الدين وحده لا يصلح أن يكون ركناً من أركان القومية ... »

و إرسال هذا الحـكم كأنه قاعدة عامة غير سديد .

فالتمحيص العلمى يفرض علينا أن نتدبر شتى القوميات قبل أن نرسل القول على عواهنه .

الدين فى روسيا ليس أساساً للمجتمع الشيوعى ، ولا شيئاً ثانوياً فيه ، بل هو منكر محارب ، و إذا شُمَّتْ رائحة التدين من رجل شيوعى أُقصِى فوراً من عمله ، ونظر إليه على أنه خائن للنظام الذى تقوم عليه الدولة .

و بين ألف مليون يخضعون لهـذا المبدأ الأحمر يمـكن القول بأن الدين غريب على المجتمع . . .

لـكن هل الدين كذلك فى إسرائيل ، أو فى باكستان ؟ كلا . فاليهودية فى إسرائيل أساس المجتمع والدولة ، والإسلام فى باكستان كذلك . والدين فى كلتا الأمتين ركن ركين ..

وقد تسأل : هل الـكثرة العظمى من مجتمعات العالم تعد الدين ركناً ؟

ونقول : نعم ، فالكثرة الساحقة من الدول النصرانية لا تفرط فى دينها ، ولا تستهين بإيحائه فى علاقاتها السياسية .

وإذا كانت إسرائيل تقوم على الدين اليهودى ؛ فإن المبدأ القائل : خلقت إسرائل لتبقى يعود إلى أحقاد صليبية ، وهو محور سياسة أمريكا وانجلترا وفرنسا بإزاء العرب جميعاً و إسرائيل .

وعندما نتحدث فى العناصر التى تتكون منها القومية العربية ، ونتعمد اطراح الإسلام منها ، فنحن مخطئون علمياً ، واجتماعياً ، وسياسياً .

ذلك أن العروبة لم تنفخ فيها الروح ، وتبرز إلى الحياة العالمية إلا مع الإسلام؛ أما قبل الإسلام فوجودها الأدبى صفر ، ووجودها المادى فوق الصفر بقليل ؛ والسيد كمال الدين محمود وهو يحصى أسس القومية العربية فينفى الدين منها ، ثم يقول : « أما الركن الذى تقوم عليه القومية العربية فهو التاريخ المشترك والمصير المشترك ، هذا التاريخ الذى حمل صورة واحدة ، ومر على أدوار واحدة ، وصبغ هذا الوطن بصبغة واحدة منذ فجر الإسلام حتى اليوم ... »

نقول : إن هذا الكلام يبطل ما سبق أن قرره هو من غربة الدين عن العروبة ، إذ هو كلام يصرخ بأن العروبة لم يسجَّل لها تاريخ إلا مع بزوغ فجر الإسلام .

وهذا حق فإن التاريخ لا يسجِّل شيئاً للهباء .

وقومية لم يؤرخ لها إلا يوم ازدواجها بالدين كيف يعتبر الدين شيئاً كالياً فيها !؟

وقومية تحتاج إلى رباط الدين وهى تشق طريقها إلى المستقبل – كما يؤكد ذلك السيد كمال الدين محمود حين يقول : « فمنذ ضمت الحركة الإسلامية هذه البقاع تحت لوائها ، ومصير هذه البقاع واحد ، تلاقى كل منطقة ما تلاقيه سائر الأجزاء ، ففى الماضى نظر إليها الغزاة على أنها « كل » وفى الحاضر ينظر إليها الاستعمار هـذه النظرة ، قومية تلك طبيعتها كيف يزعم زاعم أن الإسلام ليس ركناً فيها . .

إننا سنرى عند شرح هـذا الموضوع أن الإسلام هو الركن الأول فى بناء المجتمع العربى ، وأن ما يقال غير ذلك فهو شىء لا ثبات له عندما يعرض على محك النقد .

فلا هو واقع الأمة العربية ، ولا هو مثلها الأعلى .

لا هو شعور الجماهير ولا هو ما ينبغى أن تحسه الجماهير ...

* * *

والدعائم العامة لشتى المجتمعات – كما تتبعها الباحثون – هى اللغة ، الجنس ، البيئة الجغرافية ، التاريخ المشترك ، الدين ، المصالح والآمال المتحدة .

وعنصر واحد من هذه جميعاً لا يقيم مجتمعاً له كيانه وخواصه ، لابد من توفرها كلها أو توفر أغلبها .

ونعود مرة أخرى إلى توكيد ما أثبتناه صدر هذا البحث ، وهو أن المجتمعات ليست سواء ، وأن الأحزمة التى تمسكها متفاوتة ، وأن الروابط الحقيقية تنبع من شعور الأفراد بقداسة المبادىء التى يلتقون عليها ، وبالتالى ينهض عليها البناء الاجتماعى للأمة .

ونحن نريد أن ندرس الدعائم العامة للمجتمع مستصحبين هذه المبادىء .

ا ــ إيفاء الناحية العلمية حقها من الإيضاح والتمحيص .

ب ــ تطبيق الحقائق العلمية على أوضاعنا العملية دون تعسف .

جـ ــ ملاحظة أننا عرب ، وأن أكثر من تسعة أعشارنا مسلمون .

وأن أمتنا لا تتخلى عن رسالتها الإنسانية الكبيرة ، ولا تحب أن يطالبها أحد بنسيان تلك الرسالة ، ولا أن يختلها عنها بعناوين مضللة ...

(١) البيئة الجغرافية أو الوطن

للأرض التى نحيا فوقها آثار مشهودة فى تكويننا الخلقى ، وأحوالنا السياسية .

الأرض السهلة تكسب السكان شمائل لينة ، والأرض الوعرة تجعل فى طباعهم شدة .

ولأهل الصحراء سيرة تغاير مسلك أهل الجزر ، ولأهل المناطق الحارة أخلاق ومشارب ليست لأهل المناطق الباردة أو المعتدلة .

وقد وصف « أندريه سيجفريد » ــ وهو من علماء الجغرافيا السياسية والإنسانية ــ من حوض البحر المتوسط ، وأثره فى الشعوب التى تقطنه فقال[1] : « . . . معتدل بوجه عام ، تكسوه سماء مشرقة الشمس ساطعة النور ، إلا أنه يتأثر بين الحين والحين بجو الصحراء » .

---

(١) سويلم العمرى بإيجاز .

وقد يلفح هذا الحوض صيف محرق ، وهو الصيف الأفريقى ، ثم لا يلبث أن يعتدل الجو و يميل إلى الهدوء ، ثم تعقبه زعازع وأمطار غزيرة بل سيول ، ثم تطلع الشمس وتظل تبعث فى المنطقة القوة والحياة ، وتبث فى النفوس حب النقاش وطول الجدال وهواية الخطابة !

و يؤدى هذا إلى أن يتطبع المرء بخلق خاص فى معاملاته ، و برغبة فى التزام طريق معبدة فى الحياة الاجتماعية تتجلى فى إطاعة الحاكم بعد تفاهم مشترك بينهما.

ثم يقول « سيجفر د » : بيد أن ما يطرأ على هذه الأقطار من عواصف مفاجئة يفسر ثورة الأعصاب حينا ووقوع المباغتات التى لا تتوقع .

إن هذه الطبيعة المتقلبة بين الصفاء والاضطراب والاعتدال والقسوة أضفت على شعوب هذا الحوض روحا يغلب عليه السرور والضحك مع عبوس وتقطيب بين حين وآخر .

على عكس ما يرى عليه أهل الشمال ، بجوهم المعتم البارد ، وسمائهم الملبدة بالغيوم ، وضبابهم الكثيف ، وليلهم الطويل ، و بطء طلوع النهار وانقضائه ، فإن ذلك دفع بهم نحو الحذر المشرب بالهدوء ، وأورثهم التعاون المستمر فى سبيل مقاومة الطبيعة القاسية ، وضيق أمامهم فرص الفصاحة والجدال والاجتماع فى العراء ، والتناحر بلا هوادة فى الأسواق الجامعة ، وجعل اجتماعاتهم ومشاوراتهم مختصرة وهادئة » .

والكاتب الأور بى صادق فى ر بطه بين البيئة وآثارها فى الناس ، وصادق فى تفرقته بين أخلاق اللاتين والسكسون .

والعرب فى أرضهم الفيحاء يعمرون مناطق شتى ، فيها الوهاد وفيها النجاد ، فيها الصحارى الجدبة وفيها الأودية الخصبة .

وقد ترى فروقاً بارزة فى طباع السكان هنا وهنالك .

لكن يروعك فى هذه الجماعات الكثيرة أن الإسلام أفرغ سلوكها العام فى قوالب متشابهة ، وقاد كل مزاج إلى ما يلطف به ويجمل فيه .

وأرجاء الوطن العربى يكمل بعضها بعضاً فى هذا المجال ، وتؤلف مجموعات متناسقة من المواهب التى تنجح بها أعظم الرسالات .

ومن المعجب أن ترى الإسلام أقدر عرب المناطق الحارة على الجهاد شهوراً طوالا بين ثلوج القوقاز ، يمسحون على أخفافهم ويقصرون الصلوات .

ومع أن العرب ـ وهم يسكنون جنوب البحر المتوسط وشرقه ـ يشبهون أهل هذا الحوض من سكان أوربا ، إلا أن استقلال النفس العربية ، وقوة اعتدادها تجعل العرب فى هذا المضمار مساوين للإنكليز وللألمان ، وغيرهم من سكان الشمال .

* * *

والبشر يألفون أرضهم على ما بها ، ولو كانت قفراً مستوحشاً ، وحب الوطن غريزة متأصلة فى النفوس تجعل الإنسان يستريح إلى البقاء فيه ، ويحن إليه إذا غاب عنه ، ويدفع عنه إذا هوجم ، ويغضب له إذا انتقص .

والوطنية بهذا التحديد الطبيعى شىء غير مستغرب .

وإنك لترى العربى من نجد يغالى بوطنه هذا ـ على فراغه من أسباب

الرغد — وينظم عواطفه شعراً من أرق ما روت الدنيا وسجلت صحائفها :

قفا ودعا نجدا ومن حل بالحمى　　وحق لنجد عندنا أن يودعا
بنفسى تلك الأرض ما أطيب الربى　　وما أحسن المصطاف والمتربعا
وليست عشيات الحمى برواجع　　عليك ولكن خلِّ عينك تدمعا
بكت عينى اليسرى فلما زجرتها　　عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا

ويقول آخر :

تمتع من شميم عرار نجد　　فما بعد العشية من عرار
ألا يا حبذا نفحات نجد　　وريَّا روضه بعد القطار
وأهلك إذ يحل الحى نجدا　　وأنت على زمانك غير زارى
ليال ينقضين وما شعرنا　　بأنصاف لهن ولا سِرار

هذه السعادة بالعيش فى الوطن ، وتلك الكآبة لتركه ، مشاعر إنسانية لا غبار عليها ، ولا اعتراض .

ولكن العصور الحديثة طوَّرت هذا المعنى الساذج ، وجعلت الوضية ولاء للتراب ، وعبادة له ، وقياماً بحقوقه ، وتفانيا فيه ، والعمل به .

أى جعلت الوطن إلٰها والتعلق به عبادة ، وضخمت المشاعر الإنسانية حول هذا المحور المسحور بحيث ابتلعت علاقات الناس بدينهم ، فإذا لم تفلح فى إزالتها أفلحت فى تأخير رتبتها ، وإخفات الكلام عنها ، وإماتة أحكامها ووصاياها .

وهذا الضرب من الوثنية ينكره الإسلام أشد الإنكار ، إن ارتفاق البشر من مكان ما لا يطوِّع لهم عبادة هذا المكان ، وقد كان قدماء المصريين غافلين عندما عبدوا نهر النيل لطول ما ينتفعون منه .

والمعروف عند أولى الألباب أن الأرض ملك الإنسان وليس الإنسان ملك الأرض ، وأن المرء قد يخسر هذه الأرض التي يعيش عليها في ظروف حرب ، وساعات هزيمة ، ولكنه يستعيدها ليحيا فوقها كما تشاء له مثله العليا ، لا كما تشاء له الصخور والرمال ، أو المياه والأزهار .

فى أى بلد نوجد ، وعلى أى أرض نحيا ، ليس لنا إلا رب واحد هو الله جل شأنه ، الذى يقول لنا « يا عِبَادِىَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِى وَاسِعَةٌ فَإِيَّاىَ فَاعْبُدُون »

والذى يقول : « إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِين » .

وولاؤنا النفسى ، وسلوكنا العام ، ينبجسان من هذا الإيمان السماوى المحض

الوطنية التى تعتمد على هذا المعنى مناط احترامنا ، لأن الأمر فيها تعلق بأرض اهتزت بشرائع دين ، وحضارة أمة ؛ فالارتباط هنا له دلالته ومغزاه . .

أما الوطنية بالمعنى المجتلب من الغرب فهى مستحدث فى حضارتنا وتاريخنا لا نقره ولا نرضاه .

اتحاد الجنس :

المرء بمن يشا كله آنس ، وهو عليه أعطف . وعندما تتشابك القرابات وتتشابه الدماء يشد المجتمع بعضه بعضاً ، ويحس الجميع كأنهم أسرة كبيرة .

وفى عصرنا هذا سمعت صيحات عالية بالتجمع على أساس الجنس ، وتكرر هذا النداء فى الشرق والغرب .

ونعل التجانس بين العرب على تباعد الأقطار فى مقدمة الأسباب التى تذكر لجمع شتاتهم ، وتوحيد لوائهم .

وليس ذاك بدعاً فى تاريخهم ؛ فإن العرب اشتهروا من قديم بحفظ الأنساب ورعاية الأصول .

فإذا تنادوا اليوم على أساس أخوة الدم فتلك سجية فيهم غير محدثة .

ومن ربع قرن كان الألمان يتجمعون على أساس جنسى صارخ ، فقد زعموا أنهم من دم خاص ، وأن عنصرهم أرقى من سائر العناصر الإنسانية ! !

ونحن مع تقديرنا لوحدة الجنس فى بناء مجتمع نحب أن نلفت النظر إلى جملة حقائق . .

ا ــ أن الزعم بوحدة الأصل فى جنس ما خرافة كبيرة ؛ فإن جماهير البشر يموج بعضها فى بعض موجاً يخلط الأنساب ويمزج الدماء ، ويجعل لهذا ــ على تغلغل الأنساب فى الغيب ــ أبا من المشرق أو أما من المغرب .

والقول بأن أوربا ليس لهم آباء أو أجداد من آسيا مثلا زعم لادليل عليه ، وكذلك القول فى سكان شتى القارات ؛ فإن أنواع الهجرة وألوان الحروب تركت للعالم آثاراً لا حصر لها .

يقول الدكتور أحمد سويلم العمرى : « لم يعد هناك جنس نقى صاف يمكنه أن يفخر بنقاوته على سائر الأجناس ؛ ففرنسا خليط من الجرمان والسلت والعرب والوندال ؛ وألمانيا فيها خليط من المغول والتتار والصقالبة ؛ وانجلترا خليط من جماهير الغزاة الذين اقتحموها من الشمال والشرق والجنوب ، بل بها بقايا من الرومان الذين غزوها على عهد يوليوس قيصر . . . . الخ » .

ب ـ ولنفرض جدلا أن هناك محاضن خاصة تلقفت جنساً معيناً من الناس فصانت ذريته وحفظت أصوله وفروعه . ماذا يعنى هذا ؟

إن هذه العزلة تشينه ولا تزينه ؛ فإن الجنس المغلق على نفسه ، يفقد عوامل التجديد التى تزوده على اختلاف الليل والنهار بمواهب إنسانية أخرى يفتقر إليها ويقوى بها .

ولأمر ما كان الزواج بالأباعد أحظى وأجدى من الزواج بالأقارب .

أما توهم أن جنساً ما خلق خلقاً أرقى من غيره ، ومن ثم فهو حقيق بالسيادة على باقى البشر ، كما أن البشر أحقَّاء بالسيادة على شتى المخلوقات ... فذاك كذب يجب أن يستحمق قائلوه .

حـ ـ ومن حسن حظ العروبة أنها جنس مفتوح ، وأن الاستعراب ركن أصيل فى دعم كيانها وإمدادها بأسباب البقاء والنماء ؛ ونحن نعلم أن صاحب الرسالة العظمى صلى الله عليه وسلم من العرب المستعربة وليس من العرب العاربة .

من أجل ذلك لا يمكن جعل العروبة قومية خاصة .

إن الإسلام جعل منها دائرة عالمية فسيحة الأرجاء ، وسعت شتى الدماء والألوان ، وانضوى تحت لوائها سيل موار من المؤمنين الذين تركوا بنى جلدتهم ، وآثروا هذه الجنسية الجديدة ، وأسدوا إليها من الخدمات العلمية

والأدبية والسياسية والعسكرية مايعجز عنه قوم ترجع أرومتهم إلى عاد وثمود، أو عدنان وقحطان [١].

* * *

إن النزعة الإنسانية العريقة فى مجتمعنا العربى ، تعود إلى عالمية الرسالة الإسلامية وتطلعها الدائم إلى استيعاب عناصر بشرية مختلفة النسب واللون؛ ووفاء العرب الأولين بمطالب هذه الرسالة ، وانفساح صدورهم لكل وافد على الإسلام داخل فى العروبة .

ولذلك يرفض العربى المؤمن أى تعصب جنسى ، وأى استعلاء عنصرى . ويقول :

أبى الإسـلام لا أب لى سواه   إذا افتخروا بقيس أو تميم !

ثم إن الاسلام يأبى كل الإباء أى دعاية جنسية ؛ ويعتبر من أعراض الجاهلية البائدة أن يتداعى الناس بدمائهم وقراباتهم ؛ فإن شرف الإنسان ليس فى حسب مزعوم ، أو نسب موهوم ؛ إنما هو فى صفاء قلبه ، وسناء لبه « لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ [٢] » .

---

(١) اقرأ هذا البحث فى كتابنا « مع الله »

(٢) سورة الممتحنة آية : ٣ .

ولا ريب أن المجتمع العربى قد ازدهر بهذه النزعة الإنسانية النبيلة ، وأفاد منها أجل فائدة ؛ وما من نشاط مادى أو أدبى أو علمى برز فى هذا المجتمع وعلا به قدره إلا كان المستعربون من ورائه .

تلمح ذلك جليا فى علوم الشريعة ، وفنون الأدب ، وآفاق العمران ، ومناحى الفلسفة ، وفى أرجاء حضارتنا التى نملأ أفواهنا بها فخراً . .

لقد كنت فى مكة أرى أغلب الملامح البشرية حول البيت العتيق .

ونظرت يوماً إلى مئات المساجد فى القاهرة عاصمة العروبة والإسلام — فرأيت جُلَّ بُناتها من الأعاجم — بمعادنهم الأولى . .

وغلغلت البصر فى مواريثنا النقلية والعقلية فرأيت سدنتها من أولئك الرجال الذين دخلوا العروبة من أبواب الإسلام ، وجعلوا العروبة بهذا المدخل الكريم ملتقى ساميا لأنضر ما عرفت الحياة من جهد ، وأشرف ماوعت من غاية .

« ففى كل من الفقه واللغة والأدب والتاريخ وغيره من العلوم والفنون نعرف من الأعلام أمثال :

الزنجانى ، والشيرازى ، والأفغانى ، والسندى ، والأذربيجانى ، والفيروزبادى ، والزمخشرى ، والبغدادى ، والحلبى ، والصفدى ، والأشمونى ، والقلقشندى ، والجبرتى ، والصقلى ، والقيروانى ، والمراكشى ، والصنهاجى ، والقرطبى ، وألوف سواهم لو عينت مواقع بلادهم على المصور الجغرافى للكرة الأرضية لاستغرقت أكبر جانب .

ولو أننا عمدنا إلى فرع من فروع العلوم والآداب العربية فرسمنا مصوراً جغرافياً لمن اشترك فيه من خلق الله على ظهر الكرة الأرضية ، لاستبانت

لنا عالمية الفكر العربى الموحد فى هذا الفرع العلمى أو الأدبى ، لا فى عصر بعينه بل فى شتى عصور التاريخ .

ومن الحق أن نصارح بأن هذه العالمية الفكرية ، وهذا التلاقى على وحدة جامعة فى المنحى والاتجاه كان كلاهما بمنأى عن الأحداث والكوائن التى تعاقبت على الأمة العربية خلال القرون ، فشتتت شملها ؛ و بددت عقدها ، وتركتها نهبة للفرقة فى الحكم والسلطان .

لقد استعلت وحدة الفكر العربى وعالميته على تنازع السلطات والدولات . فبقيت الأمة العربية ملتئمة الوحدة ، تتبادل الفكر والرأى فى ضروب الثقافة ، على الرغم من اختلاف الوجوه التى تؤول إليها الإمرة والسلطان .

ولا شك فى أن هذه الوحدة الفكرية كانت سموا بالإنسانية إلى مستوى العالمية الرفيع ؛ ذلك المستوى الذى ينادى به قادة الرأى ، ويحلم به زعماء الإصلاح ، و يهتف به الفلاسفة الدعاة إلى غد أسعد ، وعالم أفضل .

فقد كانت تلك الوحدة عاملا من عوامل التجمع والتكتل والتقارب ، وعنصراً من عناصر التفاهم والتفايد ، وسبيلا إلى أخوة فى الروح .

والأخوة الروحية فوق أخوة الدم والنسب ، وفوق الأخوة المحلية ، المحدودة بحدود الوطنية الضيقة ؛ لأنها أخوة قائمة على دعائم من العقل والمنطق ، مستندة إلى مدد من الرأى والفكر ، مستجيبة لهواتف الوجدان ، مستهدفة المثل الأعلى للحياة فى تضامن وتعاون وسلام[١] .

---

(١) من رسالة لمحمود تيمور .

اللغة :

ومن الميسور أن تكون اللغة عاملا فعالا فى وحدة شعب ، و إقامة مجتمع ؛ و بعض الأمم الآن يرجع تكوينها إلى اللغة .

و إن كانت اللغة الواحدة لم تجمع بين الإنكليز والأمريكان مثلا ، كما أن اختلاف اللغة لم يمنع قيام دولة واحدة فى بلجيكا أو فى الهند .

واللغة العربية وسيلة عظيمة لالتقاء العرب فى صعيد واحد ، ولكن هل هى الأساس الأول فى بناء العروبة كما يقولون ؟

إن ترتيب الأسس التى يشاد عليها مجتمع مَّا ليس أمرا ذا بال إذا كانت هذه الأسس أشبه بقوائم المنضدة ، لاتستقر فى مكانها إلا بهنَّ جميعاً .

وصحيح أن اللغة أداة التفاهم والتعارف ، ومجلى الآداب والعلوم، والوسيلة الفذة لتواصل العقول والمشاعر بين الأفراد والجماعات فى كل مايعنيهم من شئون الحياة: لكن الوسيلة الموحدة تسبقها المشاعر الموحدة ، والأفكار الموحدة ، وهذا ما سوف نتحدث عنه بعد قليل .

أما اللغة بالنسبة لنا فمن آلاء الله على العرب أن جعلها لسان الوحى ، وترجمان الهدى الباقى على الزمان .

ونشأ عن صيانة اللغة و إضفاء القداسة عليها أن احتفظت بكلماتها وقواعدها ونماذجها العليا من زمن لا يؤثر مثله للغة أخرى .

فلو أن عربياً مات من ألف وأربعمائة سنة قيض له أن يعود اليوم حيا ، لوجد لغة القرآن هى هى ، ولوجد أداءها الموسيقى لم يتغير قليلا ولا كثيراً ، ولوجد اللغة العربية التى ألف لفظها وجرسها على النحو الذى ألف ، لا يغض من

ذلك أن اللهجات واللحون تنتشر بين الرعاع وأشباههم من صرعى الثقافة الفرنجية

وتلك حال لا تعرف للغة أخرى كالإنكليزية والفرنسية وغيرهما .

وللعربية ميزة أخرى !

أنها موعودة بالخلود من رب العالمين ؛ فهناك لغات بائدة أو شبه بائدة ، ولغات دخلت فى أطوار تقطعها عن أصولها الأولى .

أما اللغة العربية فسوف تبقى بنحوها وصرفها وخطها وبيانها وبديعها ومعانيها ما بقى فى الحياة إيمان ، وما بقيت للإيمان أتباع وألسنة .

وكانت اللغة العربية التى نتكلمها الآن شائعة فى وسط الجزيرة العربية وشمالها خلال القرون السابقة لبزوغ الإسلام .

أما اليمن وما جاورها فكانت لأهلها لغة مخالفة ؛ وشاءت الأقدار أن تضطرب الأحوال السياسية فى الجنوب العربى ، وأن تضمحل قواه الخاصة ، فواتت اللغة العربية ظروف حسنة جعلتها لغة سكان الجزيرة جميعاً ، ولعل ذلك كان إعدادا للرسالة التى انشقت عنها الغيوب ، وتضافر على إبلاغها أهل الجنوب والشمال على السواء .

وبظهور الإسلام واندماج العروبة فيه شرعت اللغة العربية تأخذ مكانتها العظمى من لسان محلى لقوم محدودين إلى لغة عالمية تجتاز التخوم وتطوّف بالمعمور من أرض الله .

وهى الآن اللغة السائدة فى وطن يستوعب أخطر بقاع الأرض ، واللغة المقدسة لخمس سكان العالم تقريباً .

والمكانة التى اقتعدتها اللغة العربية جعلت أعداء الإسلام يتصلبون فى

مقاتلتها ، ويحاولون بالجهر أو بالغيلة أن يأتوا عليها ، كما شرحنا ذلك آنفاً .

وقد أقنعوا اليهودَ العربَ أن يستحيوا العبرية القديمة ، وأن يجردوها من أكفانها لتكون لغة معاصرة .

كما أقنعوا فريقاً من النصارى أن يؤثر الفرنسية على العربية .

ووضعوا خططهم لتخريج أجيال مريضة الذوق الأدبى ، بل عاجزة عن الأداء السليم .

ويجب أن نستميت فى دفع هذا العدوان ، وأن نقدر القيمة العظمى لوحدة اللغة ونصاعة أسلوبها ، ونقاوة آدابها ، واستقامة نثرها وشعرها ...

إننا ــ بعد ما بلوناه من دسائس ــ نؤكد للمتعلمين الجدد هذه الحقيقة المهمة :

أن الخطأ فى اللغة العربية نقص فى المنزلة ، وخدش فى المقدرة .

وأن الإصرار على هذا الخطأ معصية لله وإيهان لعرى الإسلام .

وأن إشاعة الإفك حول قيمة اللغة ، أو الحط من مثلها العليا فى البلاغة ؛ أو ترجيح النزعات الفرنجية عليها ، سيئات يقترفها أناس غاشُّون لهذه الأمة ومبتغون لها سوء العقبى .

إن الوحدة اللغوية والأدبية أظلت وطننا العريض أعصراً طويلة ، وكانت طابعاً لهذا الامتزاج الرائع فى أسلوب التعبير ، ونسق الأداء والتلقى .

فكيف نسمح لبعض الهازلين أن يشغبوا على هذه الوحدة ، بإثارة اللغط حول هذه اللغة الكريمة ، أو إثارة الريبة فى مواريثها الأدبية ؟

إننا محزونون لأن محترفى الصحافة سقطوا بطبقة البلاغة ، ولأن الشعر بعد حافظ وشوقى ليست له أسواق رائجة .

وكم من ملكات فى النثر والشعر ماتت فى مكانها لأنها لم تلق ما يفتِّح براعمها و ينمى أعوادها ..؟

أما ما بلغته الوحدة اللغوية والأدبية فى عصرنا الأول ، وما أسدته أرجاء الوطن العربى كلُّها فى إنمائها و إذكائها فيقول فيه الأستاذ تيمور :

« والحضارة العربية فى الأدب مثلا كانت شركة بين أطراف بلاد العروبة ، لكل بلد فيها إسهام ، ولكل بلد مقام . فالشريف الرضى ، وابن الرومى فى العراق ؛ وأبو تمام وأبو العلاء فى الشام ؛ وابن هانىء وابن رشيق فى المغرب ؛ وابن سناء الملك والبهاء زهير فى مصر . كل أولئك وأضرابهم شعراء تعاونوا على إقامة عمود الشعر العربى ، و إعلاء بنيانه ، فبقى على الزمان وطيد الأركان .

ولربما اختلف الشعراء فيما لهم من ملكات وخصائص ، وفيما تأثروا به من بيئة وجو ، وفيما استجابوا له من حوافز الحياة والمجتمع ؛ ولكنهم يلتقون جميعاً على وحدة تعبيرية أصيلة ، ووشائج فكرية وثيقة ، وأوضاع شعرية ثابتة ؛ بحيث تؤلف من أنماطهم ديواناً عليه طابع التوافق والانسجام ، و إن اختلفت ألوانه اختلاف ألوان الزهر فى عرش الربيع .

ولقد كان من أثر هذا الطابع المتوحد المشترك فى الشعر العربى أن استساغ قارىء العربية فى أقصى الصين ما ينشده شاعر العربية فى ربوع الأندلس ، مستمتعاً بما فى ذلك الشعر من أخيلة واستجابات ومشاعر تزدهر بها الشخصية العربية فى كل عصر ، ويتكون منها الطابع العربى فى كل مكان .

ونحن نعرف أن ابن عبد ربه ألف كتابه « العقد الفريد » وهو فى قرطبة ، مختاراً لآلئه و يواقيته وزمرداته من أدب المشرق خاصة ، ولقد اختارها مما بين

يديه ، ومما حواليه ، ما نَقَلَ إلى الشرق قدَماً ، ولا عرف عنه أنه كاتَب من الشرق أحداً . ولم يكد يخرج كتابه إلى الناس حتى تسامع به المشارقة ، وطلبه الصاحب بن عباد فلما تصفحه قال :

« هذه بضاعتنا ردت إلينا » وما أنصف الصاحب فى قوله ؛ فإن الكتاب فيه عبقرية التأليف والاختيار ، وفيه فوق ذلك شعر صاحب العقد نفسه .

ومهما يكن من أمر ؛ فإن هذه القصة التاريخية تدل على اثنتين :

أولاهما : أن أدب المشرق كله كان يملأ المغرب كله .

والأخرى : أنه ما يكاد يخرج كتاب فى المغرب حتى يتلقفه أهل المشرق وفى هذه وتلك برهانان على وحدة الفكر العربى وتواصله، و إن تباعدت الديار».

الدين :

هل الدين ركن فى بناء الأمم وتأسيس المجتمعات ؟

إن هذا السؤال يساق عاماً ، أو مبهماً ، وترسل الإجابة عليه كذلك عامة أو مبهمة !

ونحن نرفض الغموض والإجمال فى ذلك المجال ، ونحب أن نسأل بدورنا :

ما هو الدين المراد ؟

إن فى العالم اليوم عدة أديان سماوية وأخرى أرضية .

وهذه الأديان ــ بغض النظر عن وصفها بالحق أو بالباطل ــ تختلف فى صلتها بالحياة العامة اختلافا كبيراً .

فمنها ما عدّ الأنظمة السياسية والاجتماعية والأُسْرية من صميم تعاليمه .

ومنها ما اكتفى بالناحية الخلقية والشخصية ، بالإضافة إلى عقائده .

ومنها ما أنكر الألوهية وعالم الغيب ،

ومنها ما أغرق فى الروحية وأوصى بالتجرد . . .

ومن ثم . فالحكم بأن الدين ، أى دين ، يبقى فى المجتمع أو يذهب حكم غريب ؛ إنه حكم بالإعدام أو بالحياة فى قضية لم يعرف فيها المتهم معرفة محدودة بينة ، ولم يحرر مانسب إليه أو وصم به ! !

و نحن نعلم أن قوماً ضاقوا بدينهم فقرروا نفيه من الحياة العامة .

أو بتعبير آخر ـ ضاقوا برجال دينهم فقرروا إبعاده و إبعادهم عن الحياة العامة .

فهل يرغب بعض المقلدين فى تكرار القصة نفسها دون وعى ؟ ودون سبب ؟ .

إن الإلحاح فى إبعاد الإسلام عن المجتمع والزعم المتكرر بأن الدين ـ وهو الإسلام فى بلادنا ـ ليس ركناً فى قيام الأمة العربية يذكرنى بقصة الحمار حامل الإسفنج عندما أراد التخفُّفَ من حمله كصاحبه حامل الملح ؛ فقد مر هذا بمجرى الماء فذاب نصف ملحه ، وتبعه ذاك ـ بعقله الثقيل ـ فترنح لكثرة ماحمل الإسفنج من ماء !

إذا قررت الصين ترك البوذية صاح فى القاهرة غِرٌّ يطلب ترك الإسلام لأنهم هناك تركوا الدين ؟

إن التاريخ يحدثنا عن المذابح الدينية التى طحنت الجماهير فى أوربا .

ويحدثنا أن حرية الاعتقاد لم يكن لها وجود خلال العصور الوسطى فى تلك الأقطار التى تقسمتها المنازعات الدينية الرهيبة .

ورأينا فى نهاية القرن السادس عشر بعد صدور قوانين « نانت » فى فرنسا ، أن هذه القوانين التى تطلق سراح العقائد وتسمح للفرد باعتناق الدين البروتستنتى فى الدولة الكاثوليكية دون حرج ،معناها أن اعتناق الفرد البروتستنتية ــ وهى ليست دين الملك ــ يجبره فعلا على الرحيل عن البلاد ، آخذاً أمواله ، غير متعرض لأذى .

فهل إقصاء المسيحية عن الحكم ــ لأنها تضن على بعض المواطنين بالبقاء فى بلادهم ــ ينسحب على الإسلام الذى استطاع يهودى فى ظله أن يرفض بيع متاع لرئيس الدولة إلا برهن ؟ فجاء صاحب الرسالة بدرعه رهناً للطعام الذى احتاج اليه وأخذه اليهودى وهو فى دار الإسلام آمن على ماله وعرضه ودينه ونفسه وولده وحاضره ومستقبله ، وذلك قبل قوانين « نانت » بتسعة قرون .

وهل هذا الدين يتهم بأنه يصادر حرية الاعتقاد ؟ ثم يجىء مغفل يلبس مسوح البحث العلمى فيقول: إن الدين فى الغرب قدأبعد عن المجتمع وأمسى لاركناً فيه ولا نافلة فليطبق ذلك على الإسلام ! !

إن « أوربا » لم تبدأ راحتها إلا يوم عزلت الدين عن الدولة وعن العلم وعن الاقتصاد ؛ لأن المسيحية ظلت إلى القرن السادس عشر من تاريخ أوربا مصدر قلاقل اجتماعية وعقلية انتهت بها إلى هذا المصير .

أما الإسلام بالنسبة إلى العرب خاصة فقد أحياهم مادياً وأدبياً ، ورفع أقدارهم بمبادىء الحرية العقلية والنفسية التى طلعوا بها على العالم طلوع البدر فى الظلام ، أو طلوع الشمس فى الغمام ، فكيف يجرؤ أحد على بخس حقه ونقص فضله ؟

ولندع تلك الغضبة ، ولنناقش الموضوع نفسه ، ولنكشف ماوراه من بواعث !.

* * *

إنك لن تعدم شخصاً يقول لك : كيف نجعل الإسلام ركناً فى المجتمع العربى ، والعرب ـ وإن كان أكثر من تسعة أعشارهم مسلماً إلا أن فيهم من لا يدين بالإسلام . . ؟

والجواب البديهى على هذا السؤال العجيب أن الإسلام عقيدة ونظام ، وأن نظامه يسمح للمسيحى أن يعيش تحت رايته « مثلثا » كما يسمح للمسلم أن يعيش تحت رايته « موحداً » سواء بسواء .

ومعنى أنه نظام أن تعاليمه ترسم صورة معينة للمجتمع فى شتى نواحيه القانونية ، فربما ألف المسيحى أن يعيش فى ظل قانون لاتينى أو سكسونى أو صينى أو هندى ، بل هو مأمور أن يطمئن لعقيدته وحدها ويترك مابعدها حسب الآية المشهورة : « دع مالقيصر لقيصر ومالله لله » .

أما المسلم فهو مكلف بالعيش فى ظل قوانين فصلها دينه تفصيلا ، ولا ضير على غيره أن يشركه فى مجتمعها ، فهى على الأقل تمثل « مالقيصر » أى تمثل الدولة التى تحفظ على المسيحى عقيدته ولا تقوم على لون من الحكم يناقضها .

إن المسيحى لايعنيه ولايغضبه أن يحكم على الزناة واللصوص بالحبس ، ويستطيع العيش رخى البال فى ظل قانون وضعى من هذا القبيل .

ويستطيع أيضاً أن يعيش رخى البال طيب النفس فى ظل قانون آخر يستمد من الإسلام عقوباته .

فإذا لم يرها وحياً من السماء كما نعتقد فليرها من صنع الناس كما يشاء .

والمهم أن عقيدته مصونه ، وذاك مايتوفر له .

وأن عقيدتنا وشريعتنا ـ وهما دعامتا الإسلام ـ مصونتان ، وذاك مايريده وما لا يـكرهه أو ما لا يعنيه ! ! !

إن شرائع الإسلام تتناول أكثر من قطاع فى النشاط الإنسانى ؛ ومنذ بدأ الإسلام وأوامره ونواهيه تتناول أنواع السلوك الخاص والعام ، فهو دين اجتماعى لاشخصى .

والـكلمة الحمقاء التى تقول : أقصوا الإسلام عن المجتمع ، إنما تعنى القضاء عليه وعلى المجتمع معه .

وربما قال قائل : نحن نريد إقصاء الأديان عموماً عن المجتمع .

وذاك قول مضحك ، إنه كالحـكم على تاجرين بترك الميدان وإغلاق محالهما . أحدهما يملك مائة ألف والآخر لايملك فلساً .

إنه فى الحقيقة حـكم بقتل أحدهما وحَسْبُ .

أما الآخر فلا ضير عليه ! ماذا خسر ؟؟

قرأت لـكاتب من أصحاب هذه الأسماء التى لمعت بغتة إحصاء مفتعلاً لأركان القومية العربية تعمد فيه إغفال الدين ؛ بل تعمد فيه إبعاد الدين .

وأنا أدرى ، كما يدرى غيرى ، أن العروبة سبقت الإسلام ، وأن أبا جهل وأبا لهب وغيرهما من أهل الجاهلية كانوا عرباً لاشك فى عروبتهم ـ ولم يكونوا مسلمين .

ومعنى ذلك أن العروبة تحققت من غير دين .

والسؤال الذى وثب إلى ذهنى .

هل المراد أن نرتد إلى الجاهلية وأن نطرح عن كواهلنا ؛ أو نقصى عن ضمائرنا هذا الدين الذى شرفنا الله به ؟ .

إن كان ذلك مراد بعض الناس ، فلماذا لا يقولون فى صراحة : إننا نبغى العود إلى الجاهلية ومحو الإسلام من صحائف التاريخ بعد محوه من حنايا الصدور وزوايا المجتمع ؟ .

لكن من الذى يريد ذلك ؟ .

إن إحصاء مقومات مجتمع ما يكون بعد الاطلاع على واقع هذا المجتمع وعلى آمال أفراده وجماعاته .

فهل نبذ الإسلام من المجتمع هو واقع العرب المسلمين أو هو أملهم فى الحياة ؟ كلا ، إن جماهير المسلمين العرب مازالوا يفتقدون دينهم بالنفس والنفيس .

وربما صعب عليهم – لظروف موقوتة – أن يقيموا شرائعه كلها ، فهل جحدوا ماعجزوا عن إقامته ؟ كلا إن أملهم الحار ومثلهم الأعلى أن يعيشوا فى ظلال الإسلام وهو كل لا يتجزأ .

فلحساب من هذا الإلحاح الملحوظ من بعض الناس فى إبعاد الإسلام عن العروبة ؟ ، أو بعبارة صريحة فى دفع العرب المسلمين إلى الجاهلية الأولى أو إلى جاهلية حديثة ، فيها قشور من العلم المجلوب ، وفيها ركام بعد ركام من الأهواء والخبائث ؟ .

بديهى أن ذلك لحساب الجهات التى تكره الإسلام قديماً وحديثاً ، الجهات التى قال الله فيها :

« لَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا[1] » .

غاية ما هنالك أن هؤلاء القوميين يصيحون : لاتقتلونا ، نحن سنقتل أنفسنا ، لاتحاربوا الإسلام ، نحن سنحاربه .

فهل نحن من الغباء حتى نردد معهم هذه الصيحات ؟ ؟ .

إن القومية العربية بهذا المفهوم الكفور لاوجود لها إلا فى أذهان بعض المارقين الآثمين .

وهى – بهذا المفهوم – خدعة صليبية لختل الجماهير عن دينها الحبيب .

نعم ، هى بهذا المفهوم « عملة » زيفتها « أوربا » الحاقدة على الإسلام ، وروجتها بين قصار النظر ، أو ضعاف اليقين ، لتجعل منها بديلا تلتف حوله الجماهير ، بدل أن يلتفوا حول « إسلامهم » و يتحلقوا بأهدابه .

وهذا الذى نقوله يعرفه كثيرون من الخبراء بالسياسة الغربية تجاه الشرق .

« [2] نشر الدكتور عبد اللطيف حمزة ، أستاذ الصحافة بجامعة القاهرة ، مقالا فى جريدة الأهرام بعنوان (الجامعة الإسلامية والجامعة العربية) جاء فيه :

فى الربع الأخير من القرن الماضى ، والعشرة الأوائل من القرن الحالى ، ظهرت فى سماء الفكر السياسى المصرى أفكار ثلاثة هى سلسلة متصلة الحلقات ، وهى فكرة الجامعة الإسلامية ، وفكرة الجامعة العربية ، وفكرة الجامعة القومية (أو المصرية) ؛ واقترنت فكرة الجامعة الإسلامية بظهور السيد جمال الدين الأفغانى ، الذى يقول المؤرخون : إنه جاء يبشر بدولة إسلامية عريضة

---

(١) البقرة آية : ٢١٧ .

(٢) القومية العربية للدكتور على الحربوطلى .

فى ظل خلافة عثمانية قوية . وهى فكرة كان يمكن تحقيقها لو أوتيت تركيا يومئذ من القوة المادية والمعنوية ما يكفل لها ذلك .

ومنذ خابت آمال أوربا فى الشرق الأقصى ـ أى الصين واليابان ـ اتجهت آمالها الاستعمارية إلى الشرقين الأوسط والأدنى ، فصوبت إليهما سهام الاستعمار ثم نهض المسلمون فى بلادهم . وخشى الاستعمار الأوربى نتائج هذه النهضة ، وعندئذ أصبح للجامعة الإسلامية معنيان : أحدهما فى أذهان المسلمين فى الشرق ، والثانى فى أذهان الأوربيين فى الغرب .

فأما المعنى الأول لفكرة الجامعة الإسلامية فى أذهان المسلمين فهو النهوض ببلاد الإسلام نهوضاً تستيقظ به من سباتها ، وتتخلص من النفوذ الأوربى الذى كان عاملا حقيقياً فى تخلفها ، لا فى تقدمها كما زعم القوم . وأما المعنى الثانى لفكرة الجامعة الإسلامية بفكرة الخلافة العثمانية ؛ ومن ثم اقترنت فكرة الجامعة الإسلامية بفكرة الخلافة العثمانية ؛ ووجد المسلمون فى هذه الفكرة السبيل الوحيد لإنقاذهم من براثن الاستعمار الأوربى ، واقتنع بهذه الفكرة الزعيم مصطفى كامل ، ورأى فى بقاء الدولة العلية يومئذ أمراً لازماً للتوازن الدولى ، لولا ما أصابها من ضعف جعل من ممتلكاتها طعمة للاستعمار الأوربى .

أما الأوربيون فقد ابتدعوا لمحاربة قيام الجامعة الإسلامية فكرة الجامعة العربية التى دعا إليها كثيرمن كتاب الغرب وساسته تخوفاً من الجامعة الإسلامية التى رأوا فيها الخطر الأكبر ؛ وأغرت هذه الفكرة كثيراً من المسلمين فراحوا يؤيدونها ويدعون لها دون أن يذكروا أنهم أخذوها عن الأوروبيين ، وكان

من هؤلاء السيد على يوسف صاحب (المؤيد) الذى كان متأثراً فى ذلك بأفكار الخديو عباس حلمى .

و بينما العالم الشرقى متأرجح بين هاتين الفكرتين إذ « بالجريدة » التى يحررها الأستاذ الكبير أحمد لطفى السيد تدعو إلى فكرة جديدة هى فكرة « الجامعة المصرية » وتأثرت الأذهان بهذه الفكرة إلى ما بعد عام ١٩٣٢ .

وهذه الجامعة المصرية تقوم على أساس النزعة الفرعونية ، وأن أهل هذه البلاد لا صلة لهم بعروبة ولا إسلام ، وهذا الكلام أوغل فى الكفر من سابقه، ولكنه بداهة قرة عين الاستعمار ، و إن زعم قائلوه أنهم دعاة حرية واستقلال .

إنه استقلال نشتريه ببيع ديننا ، ونسيان ربنا ونبينا ، وقد قضى على هذه النزعة العفنة ؛ بيد أن ما أمله الصليبيون من ورائها ربطوه كرة أخرى بمفهوم القومية العربية بعد اطراحها الإسلام .

ثم ظهرت من جديد فكرة الجامعة العربية ، ومع أنها نبعت مرة أخرى من الأطماع الإنجليزية إلا أن المصريين والشرقيين تحمسوا لها وحرصوا على الانتفاع بها ضد الاستعمار والتخلص من دسائس الإنجليز .

وفى ذلك يقول الأستاذ فتحى رضوان :

« . . وتنبه مصطفى كامل إلى هذه المحاولة ، وأثبت أن نية بريطانيا لا تهدف إلى إنشاء جامعة عربية للعرب ولمصلحة العرب ، بل جامعة عربية تعيش فى ظل انجلترا وتحت سلطان انجلترا .

وكان هذا التنبؤ من مصطفى كامل منذ أكثر من خمسين عاماً ؛ فتحقق ما تنبأ به وثبت أنه يجب على كافة الدول العربية أن تكافح النفوذ الأجنبى

لتخلص الجامعة العربية للعرب ، وتكون أداتهم فى تحقيق العزة والكرامة » .

إن الإنكليز الذين طالما حاربوا الإسلام ، رحبوا بقيام الجامعة العربية ، ظانين أنها سوف تكون أداة صالحة لاستقرار المنطقة على نحو يتمشى مع أهدافهم البعيدة .

لكننا نحن العرب رحبنا بقيام الجامعة لتخدم قضايانا ، وتنمى وحدتنا لا لتخدم خصومنا وتؤمن رغائبهم .

ويبدو أن القومية العربية ولدت من فترة طويلة فى هذا الجو نفسه .

الغزاة الأجانب يحسبونها عوضاً عن الإسلام ، وصارفاً عن التفكير فيه .

والعرب لا يعرفون هذا ، ولا يصدقون سماسرة الاستعمار الذين يشرحون هذه القومية على أنها مقطوعة الصلات بالدين ، وعلى أنها مانعة من العود إليه والاستقاء منه .

وعدد كبير من المحدثين فى مفهوم هذه القومية يبغضون الإسلام ، ويستنكرون نظمه المقررة ، ويتجهون لأمته الكبيرة ، أى أنهم جيش للغزو الصليبى مدرب على قتال بنى جنسه كما تدرب الكلاب على خدمة سادتها أحسن تدريب .

وهناك متحدثون فى المجتمع العربى لهم أمانة العلماء فى البحث ، وإن فاتتهم أحياناً مواقع الصواب فيما يكتبون .

وهؤلاء لا يستطيعون الإغضاء عن مكانة الإسلام فى بناء المجتمع ، غير أنهم يتابعون غيرهم فى تحميل الإسلام أوزار ديانات أخرى ؛ ومن هنا يتسرب إلى كلامهم الخطأ .

كتب الأستاذ الدكتور أحمد سويلم العمرى « دراسات سياسية فى المجتمع العربى » .

ومع أن المؤلف العالم من أفضل الذين كتبوا فى هذه البحوث فقد قال عن وضع الدين فى المجتمع ما يأتى :

« ليس وضع الدين اليوم فى قوته وأثره كما كان قديماً ، إذ فقد الدين قوته ـ من حيث إنه عامل فى تكوين الشعوب والدول الحديثة ـ » .

هذا الكلام فى بلادنا ينصب على الإسلام وحده ، فهو دين الكثرة الكاثرة من السكان .

لكن الرجل لما أراد الاستدلال على مايقول أخذ يتحدث عن المسيحية ! فيقول :

« الدول اليوم عادة تفصل الكنيسة عن الدولة أو الدين عن الدنيا » .

ومالنا نحن المسلمين وهذا الفصل ؟

ثم يستطرد فيضرب الأمثال لهذا الفصل الذى وقع فى أوربا فيقول عن فرنسا :

وصدرت هناك قوانين سنة ١٩٠٥ التى فصلت نهائياً الكنيسة عن الدولة ، ولم يعد للدين علاقة بالتدريس فى مدارسها ، وقررت الطلاق وهو مخالف للكثلكة . وكذلك حرية الجنازات ، وكان مطلع قانون ٩ ديسمبر سنة ١٩٠٥ فى فرنسا ما يأتى :

« تضمن الجمهورية حرية المعتقدات » .

ويلاحظ فى هذه الحالة أن الأمر لايقف عند حد احترام المعتقدات ، بل

هى تتعهد بضمان هذه الحرية ، وهذا أقوى من مجرد الاحترام ، أى أنها تحمى هذه الحرية من الاعتداء عليها ، ويصبح موقفها إيجابياً فى فصل العقيدة عن السياسة والدولة .

ورغم أن التاج فى انكلترا يعتبر حامى حمى الدين وراعى العقيدة ، وللدولة كنيستها الرسمية ؛ فإن حرية المعتقدات مكفولة أيضاً هناك ، وهذا هو الوضع فى جل الدول الحديثة بما فيها مختلف الدول العربية والإسلامية التى تجعل نصب عينيها ضمان حرية العبادات تمشياً مع تعاليم العرب المستقاة من سماحة الإسلام وعيش الذميين فى دار الإسلام فى طمأنينة وأمان » .

نقول : لكن ضمان حرية الاعتقاد والعبادة ليس اختراعاً لأوربا الحديثة .

إن هذا هو ديننا من أربعة عشر قرناً ؛ فإذا كان ذلك مستغرباً فى أرجاء العالم النصرانى القديم ، فليس هذا ذنباً يؤخذ به الإسلام ، وبالتالى لايصح أن يقول المؤلف :

« ولم يعد الدين اليوم شغل الشعوب الشاغل أثناء كفاحها فى سبيل تكوين الدولة والنهوض بالمجتمع السياسى » .

والشعوب العربية على اختلاف ديارها تحترم حرية الرأى والعقيدة .

وفى الوقت نفسه تحافظ على تراثها الإسلامى ووحدتها العربية ، وهذا ما نصت عليه بعض الدساتير الحديثة للبلدان العربية ، فجاء فى دستور مصر لسنة ١٩٥٦ قبل قيام الجمهورية العربية المتحدة فى مادته الأولى :

« مصر دولة عربية مستقلة ذات سيادة ، وهى جمهورية ديمقراطية ، والشعب المصرى جزء من الأمة العربية » .

وجاء فى المادة الثالثة :

« الإسلام دين الدولة ، و اللغة العر بية لغتها الرسمية »

وجاء فى المادة السادسة :

« تكفل الدولة الحرية والأمن والطمأنينة وتكافؤ الفرص لجميع المصريين »

وجاء فى المادة ٥٣ :

« حرية الاعتقاد مطلقة ، وتحمى الدولة حرية القيام بشعائر الأديان والعقائد طبقاً للعادات المرعية فى مصر ، على ألا يخل ذلك بالنظام العام أو ينافى الآداب » .

وجاء فى الدستور المؤقت لسنة ١٩٥٨ بمناسبة قيام الجمهورية العربية المتحدة ، بعد وحدة مصر وسورية ، فى المادة الأولى :

« الدولة العربية المتحدة جمهورية ديمقراطية مستقلة ذات سيادة وشعبها جزء من الأمة العربية » .

وجاء فى المادة ٧ :

« المواطنون لدى القانون سواء متساوون فى الحقوق والواجبات العامة ، لا تمييز بينهم فى ذلك بسبب الجنس أو الأصل أو اللغة أو الدين أو العقيدة » .

وجاء فى المادة ١٠ :

« الحريات العامة مكفولة فى حدود القانون »

وجاء فى دستور الباكستان (وهى دولة إسلامية) الذى صدر فى ٢٩ فبراير سنة ١٩٥٦ ، وعطل فى ٧ أكتوبر سنة ١٩٥٨ فى الفصل الأول والمادة الأولى منه :

« تنشأ بالباكستان جمهورية (فدرالية) تعرف بالجمهورية الإسلامية الباكستانية . . » .

كما ضمنت المادة الثالثة عشرة حرية المعتقدات ، ونصت على أنه لن يجبر الفرد على تلقى دراسة دينية ، أو حضور حفل ديني أو مباشرة عبادة مّا لا تتفق مع دينه .

كما أباحت للجماعات والهيئات على اختلافها أن تباشر العبادات التى تروق لها ولم تغفل الدساتير العربية الأخرى أيضاً كالدستور السورى فيما قبل الوحدة النص على أن دين الدولة الإسلام مع مراعاة حرية العبادات والمعتقدات .

قال : « وإذا كانت البلدان العربية قد اهتمت بالعروبة والإسلام فى بناء مجتمعها السياسى ؛ فذلك لأن الإسلام أحد أركان هذا المجتمع ، وهو فى صميم عباداتها وحياتها ونظمها الاجتماعية ، وتكوين الأسرة ، وموقف الآباء من الأبناء ، وطاعة الأبناء للآباء ، ولكنها كذلك حافظت فى إصرار ـ شأنها شأن المجتمعات السياسية الحديثة والشعوب المتطورة ـ على ضرورة حرية المعتقدات » .

ونقول : ليست هذه استجابة للأطوار الحديثة فى النظم السياسية والاتجاهات العالمية بل هى الرجعية الإسلامية التى حرمت منها أوربا حتى كرهت الدين وأهله .

إنها كما يقول المؤلف فى مكان آخر .

« هى السياسة السمحاء التى طبع بها الإسلام والتى لم يعرفها المجتمع الأوروبى يوم كان يغرق فى لجج عميقة من المذابح فى حروبه الدينية » .

إن حرية العقيدة والعبادة قديمة لدينا قدم الإسلام نفسه .

وشرائع الإسلام افترضت أن البيت قد يضم زوجة غير مسلمة ، وأن المجتمع

قد يضم جيرانا غير مسلمين . فبنت العلاقة ابتداء على المحاسنة والاحترام ، لا على المجافاة والاستباحة .

والحقيقة التي لا نرى بدأ من التصريح بها . أن العالم لا يعرف أنكر ، ولا أخس ، ولا أشأم ، من مشاعر الأور بيين ضد مخالفيهم فى الدين أو المذهب ، اللهم إلا ما يروى عن البراهمة مع المنبوذين فى الهند .

والسبب فى ذلك أنه كلما ابتعد أصل الإيمان عن المنطق العقلى سلك طريقاً فى الحياة لا مكان معه لتفاهم أو اعتدال .

وذلك فى نظرنا سر المرارة التى سجلها التاريخ لأمثال هذه المنازعات الدينية وسر ما غصت به مجتمعات الغرب من ذكريات أسيفة جعلت القوم يحزمون أمرهم آخر المطاف ، ويجردون الكهنوت من سلطانه ، أى من أظافره ! !

ولكننا نتساءل مرة أخرى : وما لنا نحن وهذا كله ؟

إن الاسلام عندما شرع يتصل بالسلطات الخارجية الأخرى للأمم النصرانية كان يرسل إلى حكامها الرسائل مختومة بالآية الشريفة :

« قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (١) » .

إنه لم يقل لهم :

فإن توليتم فعليكم اللعنة .

ولم يقل لهم :

---

(١) آل عمران آية : ٦٤ .

إن توليتم فاستعدوا للمعركة .

بل قال لهم :

إن توليتم فاعلموا أننا لسنا معكم . إن لنا اعتقاداً آخر سنظل عليه .

وإذا كنا لا نحملكم على معتقدنا فدعوا من يشاء يدخل فيه ، ولا تضعوا العوائق أمامه .

ونحن فى كتاب « التعصب والتسامح » قد أوردنا نماذج كثيرة للمكاتبات والمعاهدات التى أنشأها الإسلام مع الأقطار الأخرى ، ولا بأس أن نورد هنا طرفا من هذه الوثائق للأستاذ العميد محمد خلف الله نقتطفها من بحث له قدم للمؤتمر الإسلامى المسيحى الذى انعقد فى الإسكندرية سنة ١٩٥٤ :

يقول الرسول فى كتابه إلى قيصر الروم .

« من محمد رسول الله إلى صاحب الروم ، إنى أدعوك إلى الإسلام ، فإن أسلمت فلك ما للمسلمين وعليك ما عليهم .

فإن لم تدخل فى الإسلام فأعط الجزية »

ويطلب إليه فى آخر الكتاب ألا يحول بين الفلاحين وبين الإسلام أن يدخلوا فيه أو يعطوا الجزية .

ويقول فى كتابه . إلى أسقف أُبلَّة وأهليها « إلى مُرَيحنة بن رُؤْبة وسَرَوَات أهل أُبلَّة .

سَلْمٌ أنتم ، فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، وإنى لم أكن لأقاتلكم حتى أكتب إليكم . فأسلم أو أعط الجزية . . .

ويصله كتاب من المنذر بن ساوى يقول فيه :ـ

أما بعد يارسول الله فإنى قرأت كتابك على أهل البحرين ، فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه ، ومنهم من كرهه ؛ وبأرضى مجوس ، يهود فأحدث في ذلك أمرك .

فيرد عليه الرسول بكتاب فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم .

من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى .

أما بعد : فإن كتابك جاءنى وسمعت ما فيه . فمن صلى صلاتنا واستقبل قبلتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذى له ما لنا وعليه ما علينا ، ومن أبى فعليه الجزية » .

وعلى هذا سار خلفاء المسلمين فى معاملتهم للأمم المفتوحة ، فمن أراد من الرعية أن يبقى على دينه وفروا له الحرية والأمن فى نفسه وماله وأماكن عبادته ، ما دام يؤدى الضريبة التى فرضتها الدولة عليه لقاء هذا السلام الذى تهيئه له ، والرعاية التى ترعى بها مصالحه .

ومن الأمثلة الواضحة فى هذا ، الكتاب الذى كتبه الخليفة عمر لأهل إيلياء بعد فتح بيت المقدس فى السنة الخامسة عشرة من الهجرة وفيه يقول :

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل « إيلياء » من الأمان .

أعطاهم أمانا لأنفسهم ، وأموالهم ، ولكنائسهم ، وصلبانهم وسقيمها ، وبريئها ، وسائر ملتها . أنه لا تسكن كنائسهم ، ولا تهدم ، ولا ينقص منها ، ولا من حيزها ، ولا من صليبهم ، ولا من شئ من أموالهم

وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن . . إلى أن يقول : « فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم . وعلى ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية » .

وكذلك فعل المسلمون حين فتحوا مصر فقد حسموا النزاع الذى كان قائماً بين مسيحيي مصر ومسيحيي بيزنطة على بعض التصورات الدينية وهيئوا لكل فريق الحرية أن يدين بما يشاء ووكلوا إلى البطريرك القبطى سياسة الطائفة وتدبير أمورها ، و إصلاح ما هدم من كنائسها فى أيام المقوقس .

ومن الكنائس القبطية المشهورة التى بنيت فى العصر الإسلامى كنيسة مار جرجس بحلوان ، وكنيسة أبى مينا .

ومما قرره الباحثون أن أكبر فرق بين الإمبراطورية الإسلامية و بين أوربا التى كانت كلها على المسيحية فى العصور الوسطى ، وجود عدد كبير من أهل الديانات الأخرى بين المسلمين ، وأولئك هم أهل الذمة ، وأن الحاجة إلى المعيشة المشتركة وما ينبغى أن يكون بها من وفاق أوجدت من أول الأمر نوعاً من التسامح الذى لم يكن معروفاً فى أوربا خلال العصور الوسطى .

ومظهر هذا التسامح نشوء علم مقارنة الأديان ، أى : دراسة الملل والنحل على اختلافها ، والإقبال على هذا العلم بشغف عظيم .

ولم يكن التشريع الإسلامى يغلق دون أهل الذمة أى باب من أبواب الأعمال ، وكانت قدمهم راسخة فى الصنائع التى تدر الأرباح الوافرة ، فكانوا صيارفة وتجارا وأصحاب ضياع وأطباء .

بل إن أهل الذمة نظموا أنفسهم بحيث كان معظم الصيارفة والجهابذة في الشام مثلا يهوداً ، على حين كان أكثر الأطباء والكتاب نصارى ، وكان رئيس النصارى ببغداد هو طبيب الخليفة ، وكان رؤساء اليهود جهابذتهم .

ولم تكن الحكومة الإسلامية تتدخل في شعائر أهل الذمة الدينية ، بل كان بعض الخلفاء يحضر موا كبهم وأعيادهم ، ويأمر بصيانتهم .

أما في التقاضى فقد خلّت الدولة الإسلامية بين أهل الملل الأخرى و بين محا كمهم الخاصة بهم ، والتي كان الرؤساء الروحيون يقومون فيها مقام كبار القضاة .

أما في شأن الجزية .

فيقول « آدم متز» في كتابه (ص٧٤ ـ ٧٥): وكان أهل الذمة بحكم ما نالوه من تسامح المسلمين ودخولهم في ذمتهم وحمايتهم يدفعون الجزية . كل واحد منهم بحسب قدرته .

وكانت هذه الجزية أشبه بضريبة للدفاع الوطني ، فكان لا يدفعها إلا الرجل القادر على حمل السلاح ، ولا يدفعها ذوو العاهات ، ولا المترهبون وأهل الصوامع إلا إذا كان لهم يسار .

ولم يكن المسلمون بدعاً في هذا .

فقد كان الروم يأخذون من اليهود والمجوس ديناراً في السنة .

وكذلك فرض النصارى على المسلمين الجزية لما فتحوا بلادهم .

فإذا انتقلنا من شرق البلاد الإسلامية إلى غربها ، وجدنا منهج الحكم

الإسلامى واحداً لا يتغير ، ووجدنا التسامح الدينى أساساً من أسس ذلك الحكم وهذه حقيقة يقررها مؤلفون مسيحيون . فيقول «ستانلى لين بول» مثلا فى كتابه « قصة العرب فى أسبانيا » .

ثم أخذ الناس بعد قليل يشعرون بأنهم أفادوا من تغير الحكم .

فقد كان للإسبانيين أن يحتفظوا بشرائعهم وقضاتهم وعُين لهم حكام من أنفسهم يديرون المقاطعات ، ويجمعون الضرائب ، ويفصلون فيما شجر بينهم من خلاف ، وأصبح سكان المدن لا يكلفون إلا الجزية والخراج - إن كانت لهم أرض تزرع - بعد أن كانوا فى عهد القوط يحملون وحدهم عبء الضرائب والأموال التى تنفق على الدولة . . . وكثرت الجزية على المخالفين فى الدين من النصارى واليهود .

أما ضريبة الأرض . . فإنها فرضت بعدل ومساواة على النصارى واليهود والمسلمين جميعاً .

وأما التسامح الدينى فلم يدع للأسبانيين سبباً للشكوى ، فقد تركهم العرب يعبدون كما يشاءون من غير أن يضطهدوهم أو يلزموهم اعتناق عقيدة خاصة كما كان يفعل القوط باليهود ، وكان من أثر هذه المعاملة وذلك التسامح أن رضى المسيحيون بالنظام الجديد واعترفوا فى صراحة أنهم يؤثرون حكم العرب على حكم الإفرنج والقوط .

وقد جعل المستشرق الإنجليزى « السير توماس أرنولد » فكرة تسامح الإسلام مع رعاياه غير المسلمين هى الفكرة الرئيسية فى كتابه « الدعوة إلى

الإسلام » وأورد فى شأنها كثيراً من النصوص والشواهد التاريخية ، وتتبع مظاهرها فى إقليم فارس وولايات بيزنطة ، وأشار بصيغة التشكيك إلى الروايات القليلة التى تناقضها من مثل ما أورده ابن العبرى فى تاريخه من أن الخليفة المهدى (١٥٨ ـ ١٦٩ هـ) رأى نفراً من تنوخ يقيمون بظهر حلب ، فلما علم أنهم من المسيحيين أمرهم ـ وهو فى سورة الغضب ـ أن يعتنقوا الإسلام ، فأجابوا وكان عددهم خمسة آلاف شخص ، وآثر أحدهم الاستشهاد على الارتداد عن دينه[١] .

ويعلق أرنولد على أمثال هذه الروايات ، وعلى الطريقة التى تحول بها السواد الأعظم من المسيحيين فى بلاد العرب الشمالية إلى الإسلام فيقول :

« ولو أن المسلمين حاولوا إدخالهم بالقوة عندما انضووا بادىء الأمر تحت لواء الحكم الإسلامى لما كان من الممكن أن يعيش المسيحيون بين ظهرانيهم حتى عصر الخلفاء العباسيين .

ويبرز « أرنولد » فى كتابه . ظاهرة الخلافات المسيحية التى كانت متفشية قبل الإسلام بين النسطوريين واليعقوبيين ، والاضطهاد الذى كانت تصبه كل فرقة على الأخرى ويذهب إلى أن هذه الخلافات كانت عاملا من العوامل التى مكنت للإسلام ، وسهلت تحول الكتابيين إليه .

وفى سماحة الإسلام يقول « جوستاف لوبون » :

---

(١) خرافة صليبية على طريقة مؤرخيهم « رمتنى بدائها وانسلت » !

« فهم الذين علموا النصارى ، وإن شئت فقد حاولوا أن يعلموا النصارى كيف يكون التسامح الذى هو أثمن ما تصبو إليه الإنسانية » .

وقد بلغ من حلم عرب أسبانيا إزاء النصارى أنهم كانوا يسمحون لأساقفتهم أن يعقدوا مؤتمراتهم الدينية . كمؤتمر أشبيلية النصرانى الذى عقد فى سنة ٧٨٢ ، ومؤتمر قرطبة النصرانى الذى عقد سنة ٨٥٢ .

ذلك ، وتعد بِيَعُ النصارى الكثيرة التى بَنَوْها أيام الحكم العربى من الأدلة على احترام العرب لمعتقدات الأمم التى خضعت لسلطانهم .

وقد أسلم كثير من النصارى من غير إكراه ، ولم يسلموا طمعاً فى شىء - وهم الذين استعربوا ، وكانوا هم واليهود مساوين للمسلمين ، وكانوا يتقلدون مناصب الدولة كالمسلمين .

وقد كانت أسبانيا العربية البلد الأوربى الوحيد الذى كان اليهود يتمتعون فيه بحماية الدولة ورعايتها ، وقد زاد عدد اليهود فى أسبانيا العربية كثيراً ، وكان عرب أسبانيا مع تسامحهم هـذا يتصفون بنبل الأخلاق وبخلال الفروسية ، فكانوا يرحمون الضعفاء ، ويترفقون بالمغلوبين ، ويقفون عند شروطهم ، ويقولون الصدق ، وما إلى ذلك من الخصال الحميدة التى اقتبسها الأوربيون منهم والتى كانت تؤثر فى نفوس الناس تأثيراً لا تؤثره الديانة .

ويصف الأستاذ « بابنجر » ـ وهو من المتخصصين فى العلوم الإسلامية ، وكان أستاذاً فى جامعة برلين ـ هذه الروح فيقول :

« إذا نظرنا إلى التاريخ الإسلامى منذ قيام الخلافة إلى اختفائها سنة ١٩٢٤

قررنا بلا تردد : أن الإسلام حيث ظهر ، وفى أى مكان استقر ، وضحت روحه السمحة فى نواحى المجتمع كلها ، هذه الروح البعيدة عن التعصب ، مع ما تحمله من رفق ، ومراعاة لعادات البلاد التى يحل فيها »[١] .

* * *

ربما سأل سائل : ما هذه الجزية التى يأخذها الإسلام ؟ و بأى حق يطلبها من مخالفيه فى العقيدة ؟ أليس ذلك لوناً من الضغط المادى الكريه لا يسوغ بقاؤه و إن كان فى العصور السابقة أشرف وأيسر مما صنعه الصليبيون بأعدائهم ؟

وهذا تساؤل له براعته وله قيمته ؟

ونحن لا نطلب من موجِّهيه إلا قليلا من الأناة يعرفون بها وجهة نظر الإسلام ، ولهم بعد ذلك ما يشاءون .

إن الجزية التى يأخذها الإسلام ليست ضريبة شاذة يُسمِّن بها أمته و يُنحف بها خصومه .

وليست ضرباً من الكسب يتناوله القاعدون من العاملين ، والعادون من المنكسرين .

ويوم تكون الجزية كذلك فإن إلغاءها حق ، واستنكارها مفهوم .

لكن الجزية التى فرضها الإسلام على من انهزموا وهم يحاربونه لا تعدو أن تكون سهما فى نفقات الدفاع العسكرى الذى يتحمله المسلمون وحدهم عن هؤلاء اليهود والنصارى والمجوس الذين آووهم ، وقرروا حمايتهم .

---

(١) من بحث للدكتور أحمد سويلم العمرى .

فالغرم الأكبر على المسلمين الذين يسفكون دمهم ويفقدون مالهم على حين يبقى أولئك جميعاً موفورى الدماء والأموال . عدا السهم التافه الذى يدفعونه باسم الجزية .

حكى ابن حزم فى مراتب الإجماع :

« أن من كان فى الذمة وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه . وجب علينا أن نخرج لقتالهم بالسلاح ، ونموت دون ذلك صونا لهم » ! !

هل شهدت أعصار الدهر أشرف من هذا السلوك ؟

يجب أن نموت نحن المسلمين ذوداً عن النصارى واليهود والمجوس الذين يعيشون فى بلادنا ، ولا نمكن أحداً من أن ينالهم بأذى ! !

أفإذا أسهم أولئك الأقوام بدريهمات فى نفقات هذا الدفاع عنهم كان ذلك نهبا يقترفه الإسلام وتوصم به أمته ؟

وهل المعقول ألا يدفعوا شيئاً قط ، ونفقد نحن النفس والنفيس ؟

قد نقول : لا ، ما نقصد هذا ، يحمل هؤلاء السلاح معكم كتفا إلى كتف ، ويبذلون دمهم مع دمائكم دون تفرقة ! !

ونجيب : حبذا ذلك لو صح !

إن الرجال الشرفاء أمثال « بطريرك أنطاكية » الذى لجأ إلى دمشق لما زحفت الصليبية الغربية على الشرق الأوسط أهل لكل ثقة .

ولكن كيف ينجح الدفاع المتكامل إذا وجد أمثال « الجنرال يعقوب » يعرض على الأعداء نفسه وصحبه ؟ أليس من حق أى دولة تحترم نفسها أن تعرفه

بمن تقاتل ؟ وأن تأخذ الحذر من بوادر الخيانة ؛ فإذا استيقنت من شرف المدافعين لم يبق مكان للجزية .

لكن الذى نقرره ـ ونحن محزونون ـ أن الغضب العنيف ضد الغزو الأوربى كاد يكون وقفاً على جماهير المسلمين ، ونفر محدود من النصارى العرب مما دعا السيد رشيد سليم الخورى(١) أن يقول فى لبنان :

وكيف ألوم فى وطنى الزمانا ومنا ذله لا من سوانا ؟
ألسنا قد أهناه فهانا وقلنا كن فرنسيا فكانا ؟
إذن فليهننا نيل المراد

رضينا « للتعصب » أن نهونا فأغمضنا على الضيم العيونا
نقول : المسلمون المسلمونا فنرميهم ونحن الخائنونا
نبيع بدرهم مجد البلاد

بربك قل : متى لبنان ثارا ليدرك من علوج الغرب ثاراً ؟
متى نفرت إلى السيف النصارى لتغسل بالدم المسفوك عارا ؟
وتحرز مرة شرف الجهاد

أتيناهم بأنجيل المسيح فجاءونا بآلات الفتوح
أدل يارب من روح لروح فقد ضاع الجميل مع القبيح
كما ضاعت جواهر فى سماد

---

(١) الشاعر رشيد سليم الخورى من مسيحيى لبنان الذين هاجروا إلى أمريكا اللاتينية واستقر بهم المقام فى البرازيل . ويعرف بالشاعر القروى .

إن الجزية ما تؤخذ إلا من المعتدين والمريبين فى مقابل الدفاع عنهم ؛ فإذا انقطعت أسبابها انقطعت معها .

* * *

أظنه قد استبان لـكل ذى لب أن الإسلام يسع إلى جانبه ديانات أخرى وأن تسويته بغيره من الأديان والمذاهب التى تأبى على غيرها حق الحياة معها تسوية جائرة باطلة لا يشهد لها ماض ولا حاضر .

وأن إبعاده عن المجتمع بهذا الاتهام لا مساغ له أبداً

وأن تفسير القومية العربية بأنها شىء مجرد عن الدين ، أو بلفظ واضح شىء بعيد عن الإسلام ليس فى حقيقته إلا احتيال ملحدين وعبث مبطلين . .

إن مايريده هؤلاء الناس لايخفى علينا .

إنهم لا يريدون عروبة ، كما أنهم لا يريدون إسلاماً .

إنهم يريدون الحياة فى ظل نظام مرقع .

يتسول قانوناً للعقوبات من فرنسا .

وآخر تجاريا من انجلترا .

وإصلاحاً اجتماعياً من روسيا .

وتقليداً خلقياً من أمريكا .

وطعاماً شرقياً على هيئة أوربية .

وهذا الخليط المستجلب من كل أفق يمكن بزعم زاعم أن يلبس رداء عربياً ثم يطلق عليه اسم « القومية العربية » ! !

وإلا فهل ترى أسمج من مخلوق يقول لك :

دع الإسلام لتكون عربياً !

ارم نصف آيات القرآن فى البحر لتكون عربياً !

لا تذكر شيئاً من شرائع الإسلام للأسرة أو المجتمع أو الدولة لتكون عربياً !

إن العروبة فى نظر هؤلاء انتماء لكل نحلة ، والتقاط من كل مائدة ، واصطياد للأفكار والتقاليد من كل بلد .

شيء واحد محظور على العروبة فى نظر أولئك الناس .

أن تنتسب إلى ولى نعمتها الفذ .

أو تلوذ بسياج بقائها الخالد .

أو تقترن بالإسلام . . ! !

ومن هنا تصدر رسائل ، وتلقى خطب ، وتؤلف كتب ، تتساوق جميعاً نحو هذه الغاية الوضيعة ، جعل القومية العربية لا إسلام لها ! !

وبديهى أن تتظاهر شتى القوى فى هذا الميدان ؛ الوجودية ؛ والشيوعية ؛ والصليبية ؛ والصهيونية ؛ والبوذية ؛ والطورانية .. الخ هذه النزعات التى تسخر عشرات الأقلام والألسنة لتجعل العرب يصدقون هذه الخرافة ، ويتصورون العروبة شيئاً آخر لا صلة له من قريب أو بعيد بالإسلام .

المراد باختصار أن يرتد العرب عن الإسلام ، سواء كان هذا جزءا من مفهوم العروبة أو شيئاً آخر غيرها ، ولكنها ترتبط به ويرتبط بها . .

والجواب أيضاً باختصار :

نحن مسلمون ، وعرب ، ولن نسمح للصٍّ أن يسرق إيماننا ، أو يسلبنا ضمائرنا وشرائعنا .

لو كان لدى أولئك العروبيين قدر من إخلاص لعروبتهم ماتواصوا بجحد الإسلام فى هذه الأيام العصيبة التى تمر بها العروبة .

أتراهم يجهلون أن السرطان الذى نشب بأرضهم ـ حين أنشئت إسرائيل ـ يعتمد فى استئصالهم على سلاح مزدوج ، معنويٍّ أساسُه الدين اليهودى ، ومادى قوامه الدمار الصليبي ؟

إن الدين عميق الآثار فى تعبئة القوى وشحذ العزائم ، فلمصلحة من يزداد سلطان الدين فى إسرائيل ، وتتنادى الجماهير باسمه بين آسيا وأمريكا ، على حين يخفت صوت الإسلام بين العرب ، ويقال لهم : قوميتكم دم لا دين ، وجنس لاشريعة ؟ ؟

ويوم يلتقى الجمعان ، هذا مزلزل اليقين نتيجة كتابات المنافقين ، وهذا مدعوم الإيمان نتيجة توجيهات اليهود .

فعن أى عقبى سوف تتمحض المعركة ؟

إنها عقبى يعمل لها اليهود ، وتؤتيهم أطيب الثمر .

ولذلك ما أشك فى أن هؤلاء العروبيين الحانقين على الإسلام أجراء لأعداء العروبة والإسلام .

ولأمر ما لمعت فى سماء القومية هذه الأسماء « أنطون سعادة » « قسطنطين زريق » « ميشيل عفلق » ! ! والأخيران من زعماء العروبة وفلاسفتها !

ولو كان هؤلاء ـ مع نصرانيتهم ـ عرباً ما أكنوا هذا الحقد كله على دين شرف جنسهم ورفع رأسهم ..

وإنك لتدرك مبلغ الجريمة فى تجريد العروبة من الإسلام حين تعلم أن إسرائيل لا تعتمد على اليهودية وحدها فى بناء جيل يحارب عن عقيدة متغلغلة ، بل تضم إلى ذلك المسيحية !

ولا يسبقنّ إلى ذهنك أنى أعنى بالمسيحية النشاط الصليبى فى ميدان السياسة ، بل أعنى النشاط الدينى فى ميدان التبشير ! !

تسأل كيف هذا ؟

هاك البيان :

جاء فى كتاب « فلسطين بين نارين » الذى صدر « الأستاذ إبراهيم الخورى » أن قسيسين من اليهود يديرون الكنائس المسيحية بعد تنصرهم ، وعِلمهم أن للقسس نفوذاً كبيراً على الشعب الإنكليزى ، وعلى النواب واللوردات .

فقد عمل اليهود على الاستفادة من ذلك المركز العظيم ، فقدموا عدداً من الشبيبة اليهودية الذكية لاعتناق الدين المسيحى ! !

قال الأستاذ الخورى :

ولقد عرفنا فى إحدى المدن الكبرى فى الشرق جماعة من القسس جاءت للتبشير بالمسيحية البروتستانتية ؛ فكانت نسبة اليهود من أولئك القسس ثلاثة من خمسة ، أى كل ثلاثة قسس من اليهود يقابلهم اثنان من المسيحيين فقط ! !

وكان أحد القسس الذين جاءوا للتبشير فلسطينيا ، وكان أهله يقيمون فى تل أبيب نفسها .

يقول المؤلف :

فما على حماة الكنيسة البروتستانتية إلا أن يتدبروا أمرهم ، ويحموا كنيستهم من الدخلاء عليها ، الأعداء لها ولأهلها .

ثم يقول هذا المؤلف المسيحى :

بينا تجد رسالة السيد المسيح تبشر بالمحبة والسلام ، وتقوم على تفهم الإنجيل ؛ نرى أولئك القسس يدعون إلى التوراة التى بين أيديهم وفيها من مبادىء السفك للدماء ؛ و إحراق المدن ، وقتل النساء والأطفال ، ماينافى الدعوة المسيحية الأصلية » اهـ .

أقول [1] : وهذا هو الذى فعله الصهيونية فى فلسطين ؛ فقد ذبحوا الشيوخ والنساء والأطفال ، والمرضى ، والعجزة ، و بقروا بطون النساء الحوامل فى « دير ياسين » « وقبية » « ونحالين » من دون حرب ولا قتال ، وطردوا بسلاح إحدى الدول الكبرى مليون عربى من بيوتهم ومزارعهم ودوابهم و بلادهم ، وتركوهم مشردين فى الأمصار .

فأين العدل فى هيئة الأمم ، وأين السلام فى الأرض ؟ .

إن دام هذا ولم تحدث له غير   لم يبك ميت ولم يفرح بمولود

* * *

(١) من بحث للأستاذ محمد بهجت البيطار .

المصالح المشتركة :

وهى باعث معقول على ائتلاف الناس وتـكوين المجتمعات . .

وهذا الباعث مظهر لعاطفة التعاون ، وغريزة التجمع ؛ فإن الإنسان بطبيعة خلقه يصدف عن العيش وحده ، ولو رغب العزلة مااستطاع لحاجته الماسة إلى خدمة الآخرين .

ولو أن المرء تأمل فى وجبة طعام يتناولها لوجدها مؤلفة من جمـلة عناصر لم تأخذ صورتها الأخيرة بين يديه ، وتتهيأ لارتفاقه إلا بعد أن أسهم عشرات الناس فى ذلك . .

فإذا برزت عـدة مصالح مهمة بين قبيل من الناس ، مهدت لإقامة وحدة بينهم يشعر كل فرد أنه مسئول عن رعايتها .

وعلى قدر مافى هذه المصالح من خطر ووزن ، يكون الحرص على استدامتها والدفاع عنها .

والعرب ـ من قديم ـ كانوا ينخلعون من أثرتهم ويفنون فى القبيلة التى تمثل مصالحهم المادية والأدبية ؛ وقد بلغ من شدة الذوبان فى الـكيان العام أن كانت القبيلة كلها تغرم مايجنى المنتسب إليها ، وتشترك فى دفع الدية عنه .

وقد ذهب عهد القبيلة ، كما انقضى عصر العصبيات الصغيرة .

ومنذ احتضن العرب رسالة الإسلام ، وانتشرت جموعهم فى بقاع شتى ، دخلت مصالحهم الجامعة فى طور جديد ، طور يفرض عليهم وحدة اجتماعية ، وسياسية ، واقتصادية ، وثقافية ، تلم شملهم ، وتحمى حقيقتهم .

والأجزاء التي يتكون منها الوطن العربي يكمل بعضها بعضاً ، وتكفل له كل حاجاته .

كأنها جميعاً ملامح وجه ما تجمل قسماته إلا باستوائها ، أو مشاعر جسم وأعضاؤه ، فما يستطيع السعي ولا الحس إلا بتعاونها وائتلافها .

وعندما قطع الاستعمار هذه الأمة أمما ، فرق بين اليد وأختها ، فما تستطيع إحداها أن تصفق ، وباعد بين السمع والبصر ، وبينهما جميعاً والقلب فكان هذا التمزيق إبطالا لكل مصلحة مرتقبة .

ثم كان — بعد — إحباطاً لأي جهد يمكن بذله لإنجاح رسالتنا العظيمة .

فمن ناحية السكان اكتظ الإقليم المصري بستة وعشرين مليوناً ضاقت بهم الرقعة الخصبة ، على حين تتطلب الأرض الخصبة في العراق والسودان وليبيا أضعاف السكان الموجودين الآن .

فعز على الأولين الغنى ، وبقيت مساحات شاسعة من أرجاء الوطن العربي غفلا لا تظفر بمن يستثمرها ويعمرها .

وفي الوقت الذي صنع الاستعمار فيه دولا يعولها بفضول من صدقاته ، لأنه ليس لها مقومات الدولة ، صنع من بعض المناطق المتخمة بالثراء دولا أو حكومات خاصة ، وجمد لها أموالا طائلة عنده كالكويت مثلا .

فانظر كيف يخلق دولا لا مال لها وكيف يمنع المناطق ذات المال من الامتداد في مجالها الطبيعي ثم يأخذ مالها وديعة عنده ! ؟

وقد لفتنا النظر فيما مضى إلى أن الوطن العربي كله جسد واحد من الناحية العسكرية .

فاحتلال ليبيا يهدد بلاد المغرب كلها ووادى النيل .

واحتلال فلسطين يهدد دمشق ، و بغداد ، ومكة ، والمدينة .

إن المصالح المشتركة لهذا الوطن تصرخ بضرورة إقامة مجتمعه على أساس الوحدة الشاملة .

و نريد أن نعرف القالب الذى نفرغ فيه تلك الوحـدة و نضمن به تلك المصالح ، وأمامنا ، فى هذا العصر صور عديدة لتجمع الشعوب على أهداف روحية ، وسياسية ، وعسكرية ، واقتصادية .

ونستطيع الموازنة بين مختلف أشكال الوحدة ، واختيار مايناسب وطننا العربى الـكبير منها .

* * *

هناك مايسمى « بالـكومنولث » أو مجموعة الشعوب الإنجليزية ، وهو حزام مرن غريب ضم أقطاراً من أوربا ، وأمريكا ، وآسيا ، و إفريقيا ، واستراليا .

وداخل هذا الحزام ألوان من الأديان والمذاهب ، و إن كانت قبلته الأولى « لندن » ولغته الأولى الإنجليزية ، ومحور نشاطه المصالح المادية لهذه الحزمة المتباينة من الخلائق .

وهناك مايسمى « بحلف الأطلسى » وهو اتحاد عسكرى وحسب ، للأكذوبة التى تسمى « دول العالم الحر » .

ومهمة هذا الاتحاد مواجهة التحدى الشيوعى .

وأسلحته الآن تقطع رقاب المسلمين فى الجزائر ، لأن دول هذا الحلف لا يربطها مثل أعلى له قيمة ، و إنما يجمعها خوفها على ضياع مكاسبها الحرام فى المستعمرات .

ولعلها ترى الإسلام أخطر على مظالمها من الشيوعية . . !

وهناك «الولايات المتحدة الأمريكية» وهى تقوم على حكم مركزى فى جمهورية رياسية ، وإدارات محلية ؛ تتمتع بحرية كبيرة فى الشئون الخاصة لكل ولاية .

وهناك جمهوريات « الاتحاد السوفييتى » وهى فى الحقيقة دولة واحدة ، لها نظامها الاستبدادى المغلق ، وإن انقسمت وحدات إقليمية ، وفق اعتبارات جغرافية وإنتاجية .

ونحن العرب ، ننتشر فوق رقعة هائلة من الأرض ، تعد أخطر بقاع الدنيا .

إن أحشاء العالم كله فى أيدينا .

ومفاتيح بره وبحره لدينا .

وفرص الاتصال بجماهير البشر أيسر ماتكون لنا وحدنا .

وحاجة الأقطار الأخرى إلينا أشد من حاجتنا إليهم .

وتلك كلها ميزات يسألنا الله عنها ، ماذا أفدنا منها ؟ وكيف تصرفنا فيها وكم نفعنا العالمين برسالتنا فى وطن نشرف منه على أرجاء العالمين ؟ .

ونحن فى هذه السطور لا نقترح وحدة معينة للوطن العربى الذى يضارع روسيا والصين ، والولايات المتحدة ، ودول الأطلسى مجتمعة .

ربما صلح لنا تكوين ولايات متحدة عربية ، أو تكوين نظام على غرار الدول الدائرة فى الفلك الإنجليزى ، أو المزج بين عدة أنظمة لإيجاد « شكل عام » الوحدة التى ترعى صوالحنا وتساند رسالتنا .

أيًّا ما كان الأمر فلا بد من وضع هذه الحقائق نصب أعيننا .

ا ـ طرد عصابات الاحتلال كلها وغسل البلاد بعدها غسلاً شديداً لمحو آثارها كافة .

ب ـ محو الحدود السياسية الملفقة التى رسمها الأجانب الغزاة ، و إعادة الأواصر التى تخالط بين الأهلين وتجعلهم ينظرون إلى أنفسهم على أساس الأخوة الجامعة لافرق بين مصرى وفلسطينى ، ولا بين شامى ومغربى ، ولا بين سودانى وصومالى أو عراقى ونجدى .

حـ ـ سحق العصبيات التى تحاول استبقاء مآثر الجاهلية ، والتى تدعى لنفسها حقاً فى سيادة ، أو وراثة لملك ؛ وتمهيد السبل أمام الـكفايات كلها لخدمة أمتها بالإخلاص والإنتاج .

د ـ الاستفادة من دفائن وخيرات الوطن العربى فى خلق مقدرة مالية متفوقة تنتعش بها الجماهير ، و يتجدد بها العمران .

هـ ـ إعادة البناء الروحى والثقافى لأمة لاتزال تعتبر فى بواكير يقظة بعد غيبوبة طويلة ورقاد عميق .

لقد كنا دولة واحدة ، وأمة واحدة ، وأرضاً واحدة ، فيجب أن نعود كما كنا ، وأن نزيح كل العوائق التى تعترض بعثنا ، ونشاطنا ..

إن الأوضاع القائمة هى النتائج التى توصلت إليها سياسة الاستعمار كى تفسد علينا حياتنا ، وتحول بيننا و بين رسالتنا ، وهى أوضاع لايمارى المخلصون فى ضرورة الانتهاء منها .

* * *

والمصالح المشتركة تعتبر دوافع مادية تافهة ـ بل وضيعة أحياناً ـ إذا لم تـكن مصحوبة بهدف سام تسخّر له و تدرك به .

هب قبيلاً من الناس أمكنته ظروف مواتية ومصالح مرعية أن ينال مستوى من العيش المادى لانظير له ، ماقيمة ذلك ؟ إذا كان كافراً بربه ، جاحداً لحكمه ، منكراً للقائه .

« أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ كَانُوا يُمَتَّعُونَ (١) .

ومن ثم فكل محاولة لتجميع المصالح المشتركة على أساس من الإلحاد والتحلل ، ينبغى أن تزدرى بقوة ، وأن يعرف معرفة اليقين أن حتف الأمة العربية فى نجاح تلك المحاولات المجنونة .

وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنْذِرُونَ * ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢) » .

إن الإسلام هو الحبل الذى يحزم تلك المصالح ، ويحدو الجماهير فى كل بلد كى تعمل لها وتستفيد منها .

وهذا الإسلام هو الشىء الوحيد الذى يصرف دعاة الإقليمية عن عصبيتهم ، ويبعثهم بحماس إلى أن يندمجوا فى غيرهم .

ونحن ندرك أن الأعباء تكاثرت فى هذه الأعصار على الحكومات ، وأن الدائرة التى تعمل فيها الآن أوسع ألف مرة من الدائرة التى كانت تعمل فيها السلطات الحاكمة فى قرون مضت .

وربما قيل :

إن من المخاطرة بمصالح الشعوب أن تناط شئونها بحكومة واحدة فى أرجاء هذا الوطن الفسيح .

---

(١) الشعراء آيات : ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧ (٢) الشعراء آيات : ١٠٨، ١٠٩

ونحن نسارع إلى الإجابة بأن هذه الحكومات يجب أن تبقى فى شكل إدارات محلية ذات صلاحية مطلقة لمباشرة ما تملك الآن عمله لمصالح الأفراد والجماعات .

أما الحكومة المركزية للوطن العربى أجمع فهى محور شئونه العليا من مادية وروحية .

و بديهى أن تكون إسلامية ، وأن تكون بالنسبة إلى مسلمى المشارق والمغارب بديلا عن الخلافة الغاربة ، إلى أن يلتقى المسلمون على كلمة سواء فى هذا الأمر الجلل .

وأظن ائتمار الأديان الأخرى بهم و إضمارها السوء لدينهم سوف يعجلهم إلى بحث هذا الموضوع فى وقت وشيك . .

* * *

الطبيعة ـ كما رأيت ـ جعلت أجزاء الوطن العربى فقيراً بعضها إلى البعض الآخر فقر الجسم إلى أعضائه وحواسه .

و إذا كانت الطبيعة قد وحدت مصالح هذا الوطن ؛ فإن الإسلام وحد تاريخه وجعل أنباءه الماضية متشابكة متماسكة ينتظمها سجل واحد ، وتستوعبها صحائف واحدة ، لا فرق بين إقليم و إقليم ، وشعب وشعب .

و يشبه هذا ما صنعه « مينا » فى تاريخ مصر القديم .

فقد جعل من الوجهين البحرى والقبلى دولة واحدة لا فكاك بين شطريها، بل لا معنى لتصور شطر منفرد .

ولئن كان سخفاً ما يخطر إلا ببال الحمقى أن نتصور دولة فى أحد الوجهين ،

إن هذا السخف قد وقع نظيره الأسف ، حين مزق الاستعمار بلدان الوطن العربى وجعل من كل بلد دولة ، وفق ما أملى الهوى ، وصنع الحقد .

إن الماضى الذى ضمه تاريخ واحد ، هو نموذج المستقبل الذى يجب أن ننسج نحن تاريخه على منوال أسلافنا الكبار . .

من أجل ذلك ينبغى أن نسرع إلى تصحيح الواقع المنحرف ، مستهدين بمبادئ الإسلام فى وصل ما انقطع من أمجادنا ، ونظم ما انتقض من مصالحنا .

وزيادة فى شرح هذه القضية الجليلة ، وتبيانا لدور الإسلام فى بناء مستقبلنا على قواعدنا الأولى ، نذكر كلمة لشيخ المؤرخين فى هذا العصر . الأستاذ « محمد شفيق غربال » جاء فيها :

« الإسلام دين وجامعة وثقافة ، والعروبة صورة خاصة من الجامعة الإسلامية والثقافة الإسلامية ، وهذه المدلولات ظاهرة فى التاريخ وفى الواقع .

فالإسلام دين يصل الناس بالله .

وهو جامعة ربطت بين شتى الشعوب الإسلامية . وتلك الجامعة لم تقتض ولا تقتضى وجود الإدارة أو السلطة المركزية ــ كما نفهمها ــ بل إن أقاليم العالم الإسلامى حتى فى العصور الأولى للخلافة الإسلامية تمتعت فى الواقع بمقدار من الحرية مكنها من الانفراد بحياة إقليمية خصبة مثمرة .

والإسلام أيضاً ثقافة بمعنى أنه «طريقة حياة» أو كما يقول السلف «آداب» وقد شرح ذلك ابن خلدون فى قوله : « إن الحضر لهم آداب فى أحوالهم ، فى المعاش والمسكن والبناء ، وأمور الدين والدنيا ، وكذا سائر أعمالهم وعاداتهم وجميع تصرفاتهم ، فلهم فى ذلك آداب يوقف عندها فى جميع ما يتناولونه

أو يتلبسون به من أخذ وترك ، حتى كأنها حدود لا تتعدى »

فالحياة الإسلامية ثقافة بهذا المعنى الشامل لأمور الدين والدنيا .

وكانت هذه الثقافة من صنع الشعوب الإسلامية ؛ ومن عناصرها ما يرجع لأحوال الشعوب قبل الإسلام ، ومنها ما يرجع لما اقتضته حاجات تطورها ، إلا أن تلك العناصر تنطبع جميعاً بالطابع الإسلامى .

وبناء على هذا تنوعت الثقافة الإسلامية تنوعاً عظيماً .

إذ هى فى الأندلس تختلف مثلا عنها فى الهند .

وهى فى الغابات أو المراعى أو السواحل الإفريقية تختلف عنها فى الشام أو فى العراق .

ولـكننا نجد من وراء ذلك التنوع الطابع الإسلامى المشترك الذى أشرنا إليه

وكان بناء الثقافة الإسلامية على هذا النحو من أعجب فصول التاريخ الإنسانى وأعظمها . فهى ثقافة واسعة سمحة . مكنت الشعوب التى عملت بها من أن تجارى مزاجها الخاص أو عبقريتها القومية مع اعتناقها الإسلام .

وقبلتها شعوب على درجات متفاوتة من الحضارة ، أو كانت تنتسب لسلالات بشرية مختلفة ، أو لأصول تاريخية متباعدة ؛ فقبلها الحضرى والبدوى ، وقبلها السامى والحامى والآرى ، ونعم بها ذو العقل البدائى كما نعم بها ذو العقل الراقى . وهكذا .

ووجد فيها الزاهد ما يغنيه ، كما وجد فيها المقبل على شئون دنياه مايفى بإقباله وفيها العناصر التى ترضى المتصوف والعناصر التى ترضى الفقيه

ولا يقل عن هذا كله خطرا . أن المجتمع الإسلامىأفسح مكانا لغير المسلمين

كانوا فيه غير غرباء عنه فهو مجتمعهم ـ والثقافة الإسلامية ثقافتهم .

وقد يقول قائل :

إن الثقافة الأوربية الحاضرة يشترك فيها أصحاب الأديان المختلفة وهذا صحيح ، ولكن الثقافة الأوربية استطاعت أن تقبلهم بعد أن تخلت عن نصرانيتها :

وهذا فى نظر العارفين سر بلواها .

ومما لا شك فيه أن العروبة كانت دائماً صورة متميزة من صور الثقافة الإسلامية ولكن الذى يهمنا الآن هو عروبة العهد الحاضر . كما يهمنا البحث فى شبهة خطرت وتخطر على أذهان كثير من الناس ، ألا وهى :

هل يوجد تعارض بين الحركة العربية والجامعة الإسلامية ؟

وهذا على اعتبار أن الحركة العربية تقوم على أساس العصبية القومية اللادينية وأن الجامعة الإسلامية تقوم بحكم الاسم على الأساس الدينى . »

وقد أجاب الأستاذ المؤرخ على هذا التساؤل إجابة مفصلة .

و يعنينا من شرحه الوافى بيانه .

أن العروبة لم تنشأ عن عصبية قومية ، وأن هذه الحركة المشهودة نتيجة عوامل طرأت على الأمة الإسلامية الكبرى عقب حركات الغزو التى اجتاحتها من الشرق والغرب، والتى انتهت بسيطرة الأوربيين على أغلب البلاد الإسلامية.

وقد استفاق المسلمون فى شتى الأنحاء بعد كبوتهم الأخيرة ، وأخذ كل فريق منهم يكافح لتحرير موطنه من العدو الذى غلب عليه .

العرب وغير العرب فى هذا الكفاح سواء .

فإذا كانت الظروف الطارئة شغلت كل مجاهد مصلح عن صاحبه مؤقتاً ،

فليس معنى هذا أنه نسى أخاه وأقبل على نفسه ، أو نسى الإسلام وأقبل على قومه .

إن الكفاح العربى ينبثق من المعين الذى ينبثق من كفاح الأحرار فى شتى الأماكن الإسلامية الأخرى .

أى أن القومية العربية ماتجردت عن الدين ، ولن تتجرد عنه .

ذاك منطق الواقع الذى لامساغ لنكرانه

وربما كان هناك نفر من الزعماء لا إيمان لهم ، وربما كانت البرامج التى يصيحون بها لادين لها ؛ بيد أن ذلك لايعنى تجاهل واقع أمة حريصة على إسلامها ، تنبعث عنه وتستجيب للدعاة باسمه .

وقال الأستاذ المؤرخ آخر مقاله :

« قد يظن ظان أن اختلاف العرب ديناً يقتضى تجريد حركتهم من عنصر الدين ، حرصاً على جمع الكلمة ، ومجاراة للقوميات الحديثة التى خلعت ثوب الدين عنها .

وهذا وهم لأنه :

أولا ـ يناقض ما أثبته التاريخ من مشاركة بين المسلمين وغير المسلمين فى فى بناء الحركة الاستقلالية .

وثانيا : لأنه يعطل المصلحة الكبرى ، فى جمع الكلمة على إصلاح دينى ، إسلامى ومسيحى ، يصد نزعات الإلحاد والمادية » .

والغريب أن هذا الكلام المعتدل ، الذى يوصي بتعاون المسيحية والإسلام

على إقامة سدود تحول دول تسرب الفسوق والإلحاد لم يلق التسليم الواجب ، بل انبرى الأستاذ ساطع الحصرى الرد عليه . .

ماذا يريد الأستاذ ساطع ؟ .

لقد كتب كلاماً عليلاً تحت عنوان « العروبة أولاً » ! ! يزعم فيه أن العلم انتصر على الدين ثم انفصل عنه ، وبالتالى يطلب إبعاد الدين ، أو تأخير مرتبته لتكون العروبة أولا .

والصراع بين العلم والدين شيء حدث فى أوربا،حدث بين كهان الكنائس والأديرة وبين طلائع البحث والمعرفة .

فما الذى نقل هذه الحكاية إلى بلادنا ، ورمى بها تاريخنا ؟ وكيف طوعت للأستاذ الحصرى نفسه . فقاس تاريخا على تاريخ ، ودينا على دين ؟ .

ثم مامعنى أن تكون العروبة أولا ؟

هل يطلب من المسلم أن يطوى شريعته فلا يذكر منها قانون ، ليكون عربياً .

أو يدع عقيدته فى مهب الرياح ، وبين يدى سلطات ملحدة ، أو متجددة ليكون عربياً ؟ ؟

وما الدين الذى يبقى بعد ذلك فى عالم مشحون بالتعصب حتى للوثنية ؟

الحق أن كلمة العروبة أولا ، لامعنى لها إلا الجاهلية أولا

وأن قومية تؤخر تعاليم الإسلام ، وتقدم عليها أى شيء آخر هى جاهلية حديثة

وأن العروبة الصحيحة براء من هذا الكلام .

— ٥ —

أعداء العروبة قديماً وحديثاً

قلت فى كتابى « كفاح دين » :

« و إعزاز العروبة من شعائر الإسلام .

روى الترمذى عن سلمان الفارسى قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياسلمان لاتبغضنى فتفارق دينك ! قلت : يارسول الله ، كيف أبغضك و بك هدانا الله ؟ قال : تبغض العرب فتبغضنى ... !

وروى الترمذى عن عثمان بن عفان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من غش العرب لم يدخل فى شفاعتى ولم تنله مودتى » .

فما من مسلم إلا وله من دينه دوافع تجعله ـ ولو كان هندياً أو فارسياً أو تركياً ـ يحب العروبة ويحمى بيضتها و يصون حماها ..

والعربى المسيحى ، لن يكره جنسه مادام مستقيما مع طبيعته !

بل هو لن يكره محمداً صلى الله عليه وسلم أو يضيق بأتباعه .

إنه يؤمن بعبقريته إن لم يؤمن برسالته .

وهو يتغنى بأمجاد قومه ودعائم حضارتهم إن لم يشركهم فى صلاة ، أو يصدقهم فى اعتقاد . !

يقول السيد رشيد خورى تحت عنوان : « الاستقلال حق لاهبة » مشيداً بحضارة المسلمين فى الأندلس ، ومتغنياً بمفاخر قومه العرب ، و إن كان مسيحياً .

خاطبْ وحوش أُرُبّةٍ بلسانهم ... و اذخر لسان الحب للإنسان

أحسنْ إليهم بالإساءة إنما ... ترويض ذى ناب من الإحسان

هلا ذكرت زمان عز لم يزل ... بالشمس مدفوعاً إلى الأزمان ـ

متألقاً كشعاعها قُدّامها   فيزيدُها شوقاً إلى الدوران
لما ركبت البحر تهمز موجه   همزاً إلى بحر من الأسبان
خوضا بكل طِمِرّةٍ ما آثرت   لِلْكَرِّ ميداناً على ميدان
فتحت «أندلسا» بصارم «طارق»   بل قل : بطارقة من الحدثان
هبت كعاصفة عليها وانجلت   عن عارض من خيرها هتان
فالغرب شرق من بهىّ سنائها   والشرق من إشعاعها شرقان
وجعلت غابات الوحوش حدائقاً   بالعلم زاهرة و بالعمران
فقطعت حجةَ كل غرٍّ زاعم   أن العلا بَرِئَتْ من القرآن

* * *

ولماذا تكون محبة العرب من تعاليم الإسلام ؟
ألأنهم شعب مختار حبته العناية خصائص يشرف بها آخر الدهر ؟
ألأن معدنهم أنقى من معادن غيرهم ، ودمهم أشرف من دماء سائر الناس ؟
كلا ، كلا فإن الله لم يفضل جنساً على جنس ، ولم يرجح دماً على دم .
غاية ماهناك أن أحوالا تتوفر فى بعض البيئات فتنبت جيلا أقدر وأعلم وأحوالا أخرى تعترض أمة ما فتهوى بها . « وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ (١) »

وقد تسمو أمة حتى تبلغ الأوج ثم تعقب أخلافاً لايقدرون على تكاليف العظمة فينحطوا حتما ، وعكس ذلك يقع .

إن الأمجاد لاتورث إلا إذا بقى مايكسبها و يحفظها .

---

(١) آل عمران آية : ١٤٠ .

وتواريخ الأمم بين مد وجزر لهذه الحقيقة .

تدبر حال اليهود فى فترتين متباعدتين من تاريخهم .

يوم قيل لهم : « أُدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ[١] . . . . . » فكان جوابهم : « إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا[٢] » .

وهل دخول بلد بعد خروج المقاتلين منه جهاد ؟ إن الكلاب لاتعجز ـ والحالة هذه ـ عن الدخول !!

فلما استنهض موسى همتهم قالوا له : « إِذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ[٣] »

هذا يوم مضى .

وثم يوم آخر .

يوم أقبلوا مسلحين يحاربون الجامعة العربية ، ودولها السبع ، ويتكاتفون رجالا ونساء على استقطاع فلسطين من كيانها الحى ، ويرسخون أقدامهم فى مواقعهم فلا يتزحزحون عنها إلا بشق الأنفس ، ونحن العرب نواجه الآن ذلك الموقف !!

إن الأمم لاتعلو ولا تسفل خبط عشواء .

وقد تحدثنا فى هذا الكتاب عن الحكمة فى اختيار العرب لحمل الرسالة الإسلامية ، وأفضنا فى ذكر الفضائل التى امتاز بها العرب على عهد البعثة .

(١، ٢، ٣) المائدة : ٢١، ٢٢، ٢٤ .

ومن سوء التفكير أن نحسب هذا الاختيار الآلهى سوف يلازمنا على آية حال .

إن العناية العليا تتخلى يقيناً عمن يخون واجبه .

والتلميذ الذى ينجح فى إحدى فرق الدراسة لن يستمر نجاحه إلا إذا استمر انتباهه ودأبه .

وسيسقط حتما فى سنة مقبلة إذا كانت عدته لاجتيازها ذكريات سنة مضت.

وقد أمر رسول الله المسلمين من مختلف الأجناس أن يحبوا العرب لا لشىء إلا لأن العرب سدنة هذه الرسالة ، وحملة ذلك الإسلام .

فإذا فرط العرب فى تكاليف هذا المنصب لم يكن من إنزالهم عنه بدّ .

ومحبة العرب هنا نابعة من محبة الدين نفسه ، فكأنها عاطفة اعتراف بالجميل لمن أسداه ، أو إقرار الإنسان بالفضل لمن علمه وهداه .

والأسلاف الصالحون ، من صحابة وتابعين كانوا يعظمون نعمة الإسلام التى أفاءها الله عليهم .

و يشعرون أنهم كانوا جهالا فتعلموا .

ومتقاطعين فتواصلوا .

وعبدة أوثان فانتقلوا من عالم الخرافة إلى عالم الحق .

ومساعر فتن وحروب فأضحوا رسل عدالة وسلام .

وقطراً منسياً فى زحام الحضارات وتنافس المدنيات فصاروا طلائع حضارة غمرت العالم بصبح من العلم والأدب براق الشعاع .

أجل كان الخلفاء الراشدون فى مجال الحكم ، والأئمة الهداة فى مجال العلم ،

مستيقنين بأن الإسلام وحده ، لاشيء معه ، هو الذى صنع من العرب المعجزة التى حيرت الألباب ، والتى جعلت أولئك الناس يباغتون الأحياء طرا بانطلاقة صعقت الباطل التى طالما اختال واستطال ، وأحيت الحق الذى غارت أصوله وتوارت معالمه .

لم يكن ساسة الأرض يتصورون هذا ، وما كان ساسة العرب - إن صح التعبير وكان للقوم ساسة ! - ما كانوا ليظنوا أن القدر بالغ بهم تلك الدرجة السنية

ولكنها معجزة الإسلام وثبت بهم من السفوح إلى الذرى ، فإذا هم مشهورون وكانوا من قبل خاملين .

وصدق الله العظيم :

« وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ ، وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ » .

لكن فى الطبع الإنسانى انتكاسات غدر تثير العجب .

ولقد رأينا فى أغنياء الحروب من هبطت عليه الثروة وكان من قبل لا يجد القوت فإذا هو يلوى لسانه بكلمات عن عراقة أسرته ، ومجد آبائه وكأنه يقول :

« هذا حقى ورثته كابراً عن كابر » .

وهو يعلم أن أباه من طول الحفاء كان يشتهى ركوب الحمير !

لذلك كان عجباً من بعض العرب أن يقف على أنقاض دول الأكاسرة والقياصرة الدول التى شمخت بأنفها قروناً دون أن يجرؤ أحد على مس هيبتها ثم يقول :

---

(١) الزخرفة آية : ٤٤

ذاك أثر العروبة المنتصرة ! موهماً أن الجنس العربى هو ـ من غير معتقده الجديد ـ سر هاتيك الفتوح الروائع ! !

إنه ليس أتفه من هذه الأكذوبة إلا اللسان الذى رددها والأذن التى صدقتها .

ومعروف أن العرب لم يكن لهم قبل الإسلام وجود فى السياسة العالمية ، ولا فى ميزان القوى العسكرية .

ومعروف أن الحبشة ـ وهى دويلة ذَنَبٌ بالنسبة إلى الرومان والفرس ـ استطاعت أن تجتاح اليمن ، وأن تخترق نجدا ، وأن تبلغ مكة .

ولولا تدخل السماء لدك البيت الحرام .

ما كان العرب يومئذ بقادرين على رد المعتدين ، وما استطاعت قريش ولا غير قريش أن تنظم جيشاً يواجه الأحباش .

لقد تركوا البيت لرب البيت يتولى حمايته ، وقال عبد المطلب وهو يومئذ زعيم مكة .

لاهم إن العبد يمنع رحله فامنع رحالك
وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك

وفى ذلك نزلت السورة :

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ » .

---

(١) سورة الفيل .

فـكيف ـ وهذه طاقة العرب ـ يتوهم أحد منهم أن العروبة المجردة صاحبة الفخر فى هذا البناء الشاهق ؟ و بالتالى يتعصب لعنصره ، و يغالى بدمه ، وتتراجع إلى نفسه الفارغة حمية الجاهلية الأولى .

إن مبادىء الإسلام مناط هذه العظمة ، وسناد تلك الأمجاد .

والواقع أن أول أعداء العروبة هم أولئك العرب الذى يجحدون فضل الإسلام على آبائهم وعلى ذراريهم ، و يمضغون كلمات سخيفة عن محتد مزعوم وحسب منتحل .

وجمهرة الأتقياء من العرب رفضوا هذا الـكلام وجبهوا أصحابه .

لـكن الحياة لاتسير دائماً وفق تقاليد التقوى ، ولا فى اتجاه المثل الفاضلة :

فسياسة الحـكم ـ والحـكم أول من انحل من عرى الإسلام ـ قامت على عصبية القوة والنسب .

وللحكم سلطانه الغالب ، وله تقاليد تنشأ فى ظله ، وله قصاده الذين يترضونه طلباً للدنيا ، ورفاهية الحياة . .

ومن الإنصاف للإسلام وأمته و تاريخه أن نحدد مقدار ماتسرب من مآثر الجاهلية إلى هذا القطاع من الحياة الإسلامية العامة .

إنه فساد انحصر فى بيئة الحـكم وحواشيه ، وسلمت منه كتل الجماهير وميادين العبادة والتعليم والأدب والقضاء والفتوى .

ولئن احتلت العصبية دواوين السلطة ، ودنيا الوظائف لقد كانت محقورة منـكورة فى المسجد والمدرسة ، والمحـكمة والبيوت ، والشوارع .

واستطاع المسلمون من كل جنس أن يتقلبوا فى مناصب القيادة الأدبية

بين العرب والمسلمين ؛ فإذا كان الأعاجم قد فاتهم أن يحكموا ـ أيام الأمويين مثلا ـ فإنهم سادوا أمصار العرب بالفقه ، والسنة ، والتفسير ، والأدب واللغة .

إلا أن جرثومة العصبية التى ملكت ناصية الحكم نفثت سمومها ، وعكرت هذا الصفو المعنوى الكريم .

فإذا لفيف من العرب الذين لم تتشرب أفئدتهم تعاليم الدين يغالون بدمهم ويفخرون بحسبهم ، ويظنون أنفسهم أحق بالحياة والصدارة من غيرهم !

ولم ـ بالله ـ يعتقد قومنا فى أنفسهم هذا ؟

ومن الذى يصدقهم فى ذلك الخيال الطائش ؟

أهو الإسلام الذى وضع قاعدة « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ [1] » ؟ أم هى الحياة التى يجب أن نعطى زمامها لأقدر الخلق على امتلاكه أيا كان جنسه ولونه ؟ ..

ومع ذلك فإن هؤلاء سموا الولد الذى ينشأ عن زواج عربى بأعجمية هجيناً ثم شرعوا يتحدثون عن الهجناء بما لايليق . .

قال صاحب العقد الفريد :

« ومن أشرف الناس هِمَّة عَقيل بن عُلَّفَةَ المرى ، وكان أعرابياً يسكن البادية وكان تصهر إليه الخلفاء ، وخطب إليه عبد الملك بن مروان ابنته لأحد أولاده ، فقال له جنبنى هجناء ولدك » .

وقال :

« ويروى أن أعرابياً من بنى العنبر دخل على سوار القاضى فقال : إن أبى

---

(١) الحجرات آية : ١٣ .

مات وتركني وأخاً لى ، وخط خطين ، ثم قال : وهجيناً ، ثم خط خطاً ناحية ، فكيف يقسم المال ؟

فقال له سوار :

هاهنا وارث غيركم ؟

قال : لا .

قال : فالمال بينكم أثلاثاً .

قال : ما أحسبك فهمت عنى ، إنه تركنى وأخى وهجيناً ، فكيف يأخذ الهجين كما آخذ أنا وكما يأخذ أخى ؟

قال : أجل .

فغضب الأعرابى ؛ ثم أقبل على سوار ، فقال :

والله لقد علمت أنك قليل الخالات بالدهناء (١) .

قال سوار : لا يضرنى ذلك عند الله شيئاً .

وموقف هذا البدوى الغر يمثل العروبة المتعصبة لنفسها ، وجنسها . وموقف القاضى الجليل منه يمثل الإسلام الذى يؤدبها ويهذبها .

ويقول بدوى أحمق :

إن أولاد السرارى كثروا يارب فينا

رب أدخلنى بلاداً لا أرى فيها هجيناً

وما الذى يمنع هذا الأعرابى من العودة إلى الصحراء إذا كان يكره عباد الله ، مالم يكونوا على شاكلته ! ؟

---

(١) يعنى أن نسبه لأمه ليس نقى العروبة ، ولذلك يحكم على هذا النحو .

وقد تطرق هذا الهوس إلى بعض الفقهاء .

فأفتوا بأن الأعجمى ليس كفأ للزواج من العربية .

والغريب أن هذه الفتيا المنكرة سجلت فى كتب الأحناف مع أن الإمام الكبير أبا حنيفة أعجمى .

أترى أولئك المفتين يحسبون إمامهم ليس أهلا للزواج من امرأة عربية ؟

أإذا خطب الإمام الغزالى امرأة من بنى هاشم قيل له :

إنك أوضع نسباً منها فلا تليق لها ؟

أَوَ هذا إسلام ؟

لقد روى صاحب الأغانى : أن رجلا من الموالى خطب بنتاً من أعرابه بنى سليم وتزوجها ، فركب محمد بن بشير الخارجى إلى المدينة ، وواليها يومئذ إبراهيم بن هشام بن إسماعيل ، فشكا إليه ، فأرسل الوالى إلى المولى ، ففرق بين المولى وزوجته ، وضربه مائتى سوط ، وحلق رأسه ولحيته وحاجبيه .

فقال محمد بن بشير :

قضيتَ بسنةٍ وحكمت عدلاً ولم ترث الحكومةَ من بعيد

وفيها يقول :

وفى المائتين للمولى نكالٌ وفى سلب الحواجب والخدود

إذا كافأتهم ببنات كسرى فهل يجد الموالى من مزيد !

فأى الحق أنصف للموالى مِن اصهار العبيد إلى العبيد ؟

ونحن ندهش لهذا الخبر ، ونظنه من افتعال الأدباء تصويراً لحمية الجاهلية التى غلبت على بعض الناس .

وشكنا فى هذه الرواية يرجع إلى عدة أسباب .

أن الخوارج مؤمنون بالمساواة بين الأجناس كلها ، وقد رفضوا حديث « الأئمة من قريش » وجعلوا إمامة المسلمين فى الأكفاء لها من أيِّ قبيل ، فكيف يأبى أحدهم على أعجمى أن يتزوج من عربية مع أنه يراه جديراً بالخلافة العامة ؟ .

ثم إن المودة لم تكن قائمة بين الحكام الأمويين ورءوس الخوارج حتى يذهب هذا شفيعاً إلى ذاك فى أمر ضاق به . .

وثم سبب أخير ، أن الأمويين المتعصبين تعصباً شديداً لم يكونوا بحاجة إلى من يغريهم بمضايقة الأعاجم ، والإساءة إليها ، لقد كانوا يتطوعون بهذا الشر من تلقاء أنفسهم .

* * *

والحق أن وقوع الحكم فى براثن العصبية كان مثار فساد كبير ، وأن أولى المسلمين بزعامتهم أقدر رجل فيهم ، مصرياً كان أم فارسياً ، ما دام قد تعرب ، وحسن إسلامه ، وشرف بدينه على غيره من أبناء البيوتات العربية ولو كانوا سروات قريش !!

وما جاء فى السنة من أن الخلافة فى قريش .

إنما هو حكم موقوت بظروفه ؛ فإن منزلة قريش بين قبائل العرب فى العصر الأول كانت تشبه منزلة انجلترا فى عصرنا هذا بين دول « الكومنولث » .

أى أن القيادة لا تعدوها إلى غيرها لوفرة أسباب السيادة فيها ، ولا يعقل

أن تكون كندا ، أو الهند أو استراليا مالكة الزمام فى هذه الكتلة من البشر .

بل إن الدولة « الأم » أعنى انجلترا هى سيدة الموقف ، وربما وجد فى أنحاء « الكومنولث » أفراد أقدر وأعظم من رؤساء وزارات انجلترا .

ولكن الفرد لا يلى الحكم بكفايته الخاصة وحدها ، وإنما بما يحف به من أدوات السيطرة والنجاح .

وقريش فى أيام الرسول وصحبه الأقربين كانت طليعة متفوقة ، وكان العرب كما قال أبو بكر لا يعهدون هذا الأمر إلا فيها .

بيد أن هذه الملابسات محلية وموقوتة .

ومن حق المسلمين فى عصرنا هذا وقبله بألف سنة ألا يفكروا فى تولية أمورهم قرشياً ، بل يتحرون الكفاية حيث كانت ، ثم يسيرون وراءها . خصوصاً بعد ما رسخت أصول الإسلام فى أجناس شتى ؛ وواتت الفرص شعوباً كثيرة فى الشرق والغرب لتخدم هذا الدين بأمانة وشرف

إن قريشا لم تحتكر قيادة الإسلام إلى قيام الساعة ، وما يكون لها هذا ، وما ينبغى لأحد مَّا أن يحسب ولاية المسلمين حكراً فى بيته أو فى بنى جلدته .

* * *

لقد ذهب العرب بأنفسهم ، وفاخروا بآبائهم .

والمُدِلُّ بنفسه لن يعدم من يلقاه بالعاطفة نفسها ، بل من يكنُّ له الضيق ويتمنى له العثار .

ولم تصب مكانة الإسلام الرئيسية أول الأمر بخدش عند هؤلاء وأولئك

ممن يتيهون بالآباء ؛ لكن إذا كان العرب يتحدثون عن أصولهم ، فهل يسكت الفرس ؟ لا بل يفخرون .

بيد أن ذلك الفخر مع إعزاز للدين الذى اعتنقوه ، يقول مهيار الديلمى :

وأبى كسرى على إيوانه — أين فى الناس أب مثل أبى !

قد ضممت المجد من أطرافه — سؤدد الفرس ودين العرب !

ونحن نكره هذا الخلط فليس من حق العرب أو الفرس أن ينوهوا بقوميتهم ، أو يثوروا إليها فى جد أو هزل ، لأن الإسلام رفض هذه النزعات جميعاً وقضى عليها ..

وهذه العصبيات المقيتة كانت ولا تزال مصدر بلاء فادح الضرر على المسلمين ووحدتهم ، وعلى الإسلام وتعاليمه . .

نعم .

إن النزاع بين هذه العصبيات قطع أواصرَ أَمَرَ الله أن توصل .

وأحيا مطامع أمر الله أن توبق .

وقدم رجالا ما كان لهم أن يتصدروا .

وأخر أئمة ما كان يليق أن يهدروا .

وشغل المسلمين بعضهم ببعض ، وكان حقاً عليهم أن يشتغلوا بكفاح عدوهم لا بكفاح أهوائهم .

* * *

ونريد أن نؤكد حقيقة إسلامية صريحة ، أن النزعة إلى تسوية المستعربين

بالعرب مهما تباينت أجناسهم الأولى هو مقتضى الإسلام ، وأن مطالبة أولئك العرب الجدد بحقهم فى ولاية الحكم ، ووظائف الإدارة أمر لا غبار عليه ، بل الغبار فى مصادرته ، وأن تسمية هذه النزعة شعوبية خطأ دينى، إنها نزعة إسلامية ، والوقوف أمامها هو الذى يسمى شعوبية ، ولو كان هذا الوقوف من العرب أنفسهم !.

إن احتكار القبائل العربية ـ التى عاصرت البعثة ـ لولاية الحكم والإدارة ضرب من الأثرة لا يمكن إلباسه ثوب التقوى ؛ وثمرة هذه الأثرة كانت مُرة . سواء على العرب فى مكانتهم أو على الإسلام فى مسيره .

ماذا كانت نتيجة ذلك الحرص على حرمان الأعجميين الذين تعربوا بعد إسلامهم من مساواة العرب أنفسهم فى شتى المناصب الكبرى ؟.

كانت نتيجته البغضاء للعرب على نحو مؤسف أشد الأسف .

وأحس العرب خطورة المآل الذى انحدروا إليه !

إنهم ارتدوا قبائل متباغضة ، يكيد بعضها للآخر حيناً ، أو يكيدون جميعاً للأعاجم حيناً آخر .

فماذا أثمرت هذه السياسية الجاهلية ؟

ماذا أنتج تعلق العرب بقبليّتهم الضيقة أو جنسيتهم العامة ؟

ماذا تمخض عنه هذا البعد الآثم فى نظر الإسلام وتعاليمه ؟

لقد زلزلت الأرض من تحتهم ، وأخذ الفرس يظاهرون القوى المتمردة على الأمويين و يحفرون القبور للعرب أجمعين .

ولما أدرك بعض رؤساء العرب ذلك المصير ، شرعوا يفكرون فى مصالحة

أو مهادنة تلم شعثهم لمواجهة التيار الفارسى الجديد ، أى فكروا فى تجميع العرب لمواجهة الفرس ، بدلا من أن يواجهوا الموقف بتغليب روح الإسلام ونصوصه لاستئصال العلة !

وما غناء « قوميتهم » العربية فى تلك الأزمة العصيبة ؟

تأمل ما قاله نصر بن سيار :

أَبْلغ ربيعة فى مَروٍ وإخوتهم فليغضبوا قبل ألاّ ينفع الغضب
ولينصبوا الحرب إن القوم قد نصبوا حرباً ، يُحرَّقُ فى حافاتها الحطب
ما بالكم تلقحون الحربَ بينكم كأن أهل الحجا عن رأيكم عُزُب؟
وتتركون عدوّا قد أظلّكموا مما تأشَّبَ ، لا دِينٌ ، ولا حسب
قدْماً يدينون ديناً ما سمعتُ به عن الرسول ، ولم تنزل به الكتب
فمن يكن سائلاً عن أصل دينهمُو فإن دينَهُمُو : أن تقتل العرب

وأخطأ نصر بن سيار فى إرسال هذه الصيحة .

إن العرب هم الذين يقتلون أنفسهم حين ينسون أو يتناسون رباط الدين الذى يجمعهم مع شتى الأجناس .

أجل ، إن العرب : لا الفرس ولا الترك هم الذين ينتحرون مادياً وأدبياً حين يجفون غيرهم من المسلمين ، وحين تبلغ بهم الغفلة حدا يحسبون معه أنهم من غير الإسلام شىء له حظ أو له شأن ...

* * *

بيد أن كراهية الآخرين للعرب تدحرجت من درك إلى درك حتى انسلخت

بأصحابها عن الإسلام أو كادت ، وهذه هى الطامة .

تحول كره العرب إلى فتور نحو الدين الذى جاءوا به .

ونشأ عن ذلك اعتداء على حدوده ، وانفلات من تعاليمه ...

ثم أوغل القوم فحنوا إلى ما ورثوا من تقاليد ومبادىء ضالة .

ثم ازداد الطين بلة حين استيقظت « الوطنيات » الأولى ، تربط الناس بمذاهبهم ونحلهم وتاريخهم الخاص ، وتشعرهم أن الإسلام غريب عنهم ، وأن أهله دخلاء ، وأن لكل شعب أن يلتحق بجاهليته الأولى ، وأن يتخلى عن دين الله ...

هذه هى الشعوبية .

ليست الشعوبية النزاع بين جنسين على أيهما أحق بالسلطان .

إنما الشعوبية أن يزهد قبيل من الناس فى نسبه الإسلامى ، وأن يدع الاستقاء من معين الدين ، مؤثراً عليه نسبه الخاص ، ومعينه القومى .

طاعنا بذلك فى العروبة التى حملت الإسلام ، وضائقاً بالإسلام الذى نقله من حال إلى حال .

الشعوبية أن يرفع بشار بن برد عقيرته بتفضيل النار على الطين فى أبياته التى يقول فيها :

إبليس أفضل من أبيكم آدم ... فتنبهوا يا معشر الأشرار

فالنار عنصره وآدم طينة ... والطين لا يسمو سمو النار

فهذه نزعة مجوسية ، مردُّها عبادة الفرس الأقدمين للنار على مذهب زرادشت وذاك شىء محاه الإسلام محوا ، فكيف تستحيي شاراته ؟

الشعوبية أن يرفع أبو نواس عقيرته بمدح الخمر ، وأن يتغنى بمعابثة الغلمان ، وتلك مفاسد يبرأ منها المجتمع الإسلامى العربى ، وإن اصطبغت بها مجتمعات أخرى .

الشعوبية فصل الإسلام عن مفهوم أى قومية ، لتسير فى الحياة وحدها بعيدة عن هديه ، ناقمة على وحيه أى أنها ارتداد عام .

وقد بلغت[1] هذه الحركة أوْجَها فى القرن الثالث الهجرى ، وساعد على ذلك أن الخلفاء العباسيين تعصبوا للإسلام ، ولم يتعصبوا كثيراً للعربية ، فحاربوا الزندقة ؛ ولم يحاربوا — فى شدة — النزعة العجمية ، وذلك طبيعى لأن أكثرهم — كما أبنّا — مولدّون .

ولقى العرب من العجم عنتا شديداً ؛ فالوزراء أكثرهم عجم ، والدسائس تدس فى القصور لإضعاف شأن العرب ، وإذا ثار العرب فى جزيرتهم أو فى الأطراف نكل بهم قواد العجم وجيوشهم أشد تنكيل ؛ وفى أعماق نفوسهم شعور بأنهم ينتقمون منهم من يوم القادسية ؛ ولم يكن شعور الترك الذين جلبهم المعتصم بأحسن حالا من شعور الفرس ، وكثر الشعر فى هـذا القرن والذى بعده من الأعاجم الذين تعلموا العربية يفخرون بنسبهم ؛ ويعتزون بقومهم ؛ فافتتح ذلك بشّار بن بُرد ، كما رأيت ، وتبعه دِيكُ الجِنّ الشاعر المشهور ، قال فى الأغانى :

« وكان شديد التشبب والعصبية على العرب يقول : ليس للعرب علينا فضل ؛ جمعتنا وإياهم ولادة إبراهيم عليه السلام ، وأسلمنا كما أسلموا ، ومن قتل منهم رجلا منا قُتل به ، ولم نجد الله عز وجل فضّلهم علينا إذ جمعنا الدين ! »

---

(١) ضحى الإسلام للأستاذ أحمد أمين .

ويقول قائلهم :

فلست بتارك إيوانَ كسرى لتوضِحَ أو لِحَوْمَلَ فَالدَّخُول
وضَبٍّ فى الفلا ساع ، وذئب بها يعوى ، وليثٍ وسْط غِيلِ »

ونحن نرفض هذه المنابزات السخيفة ، ونأبى أن تتقاذف الشعوب المختلفة بهذا اللغو .

وننظر إلى الإنسانية المجردة ، فى كل امرىء من أهل الأرض .

وننظر إلى الأخوة الجامعة بين أبناء الإسلام .

ونعد ما وراء ذلك من منافرات ومفاخرات شيئاً لا قيمة له ولا خير فيه ...

ولن نتزحزح قيد شعرة عن اعتماد موازين الإسلام وحدها ، وهى موازين لا يوضع فيها إلا التقى والعفاف والخلق ، أما اختلاف الملامح والألوان فمستبعد أولا وآخراً .

والمهاجاة بين الأفراد لون من البذاءة المستقبحة ، لكنها بين الشعوب لون من الهدم البعيد المدى ؛ وما تخلفه من إيغار الصدور ، وتمزيق الأواصر ، وإيقاع الوحشة ينتقل من جيل إلى جيل ، ومن هنا كان إجرام حملة الأقلام الشريرة ، والألسنة العمياء بالغ السوء فى الدنيا والآخرة .

ثم إن العصبية لا تعالج بمثلها ، وإذا غالى هذا بدمه وهذا بدمه فلن ينتهى الأمر بالخليقة إلى خير ، سيظلون على أسوأ حال ، يفسدون فى الأرض ويسفكون الدماء .

وإذا تعصب العربى لقومه فعلاجه أن يؤدب بأدب الإسلام ، وإذا تعصب التركى لقومه فعلاجه أن يؤدب بأدب الإسلام .

إنه صعب على البشر أن يعنو بعضهم لبعض ، ولكنه من السهل عليهم أن يعنوا جميعاً لله ، وأن ينزلوا على حكمه .

فإذا نفر أحد من السجود لله شدخ رأسه ولا كرامة .

وعندما ينضوى الكل تحت راية الإسلام ، سيعرف - باسم الله - أن هناك فضلا للغة القرآن ، وأن أهل هذه اللغة ونقلة تلك الرسالة لهم مكان ملحوظ يستمد من الدين نفسه لا من شيء بعيد عنه .

ومعنى هذا أن تبقى العروبة وسط هالة من الإجلال ، وأن تبقى أمتها مصونة القدر نابهة الذكر .

من أجل ذلك نحن نرد الهجوم على العرب ، ونتوجس من فتح أبوابه ، ونرتاب فى نيات القائمين به ، ونحسب أن جلتهم إنما يقصدون هدفاً أبعد ، هو النيل من الإسلام نفسه ، و إهانته بإهانة العروبة التى تحتويه ، كتاباً ، ونبوة ، وقبلة ، وتاريخاً ، وثقافة .

لقد جاء الإسلام إلى أقاليم منتثراً عقدها ، فنظمها وطناً واحداً ؛ و إلى شعوب ممزقة مضللة فجعلها أمة ملتقية على الهدى .

أمة واحدة فى ظاهر أمرها و باطنه .

وأصبحت هذه الأمة الكبيرة ، وقد رضيت الله رباً ، والإسلام ديناً ، ومحمداً نبياً ورسولا .

الروح الذى تنبعث عنه واحد .

والأمل الذى يحدوها واحد .

والتاريخ الذى يصور ماضيها واحد .

والمنهج الذى يحدو حاضرها واحد .

والهدف الذى تنطلق إليه واحد .

فجاءت الشعوبية تنثر هذا العقد المنظوم ، وتجزئ هذه الكتلة الملتحمة وتغرى كل جزىء أن يحيا منفصلاً عن أخيه كارها له ، يلتمس تاريخه وحده ، ويشق مستقبله بعيداً عن روابط الاعتقاد والتشريع والخلق والأدب .

وهذا قضاء على الإسلام ورسالته ، وإن بدا هذا القضاء متدرجاً ، ينأى كل شعب بنفسه أولا على أن الإسلام شطر حياته الخاصة ، ثم تنتهى هذه العزلة بإقصاء الإسلام نفسه ، على أنه لا صلة له بقومية ، ولا مكان له فى كيان الشعب المستقبل إلا مكان القشور والنوافل .

والشعوبية القديمة ، أزرت على العرب ، ثم شغبت على الإسلام ، وتحولت بيئاتها إلى مهارب للزنادقة ومأوٍ للفسقة ، وحصوناً لمن يريدون إحياء المجوسية ، والمانوية ، والمزدكية ، وغيرها من النحل القذرة .

والشعوبية الحديثة زادت على ذلك أشياء أخرى .

لقد تحولت من بغضاء للعرب إلى بغضاء للغة والدين جميعاً .

وأمست شاراتها المميزة الجهر بإبعاد الشريعة الإسلامية ، وازدراء اللغة العربية ، والتمرد على القيم والتقاليد التى وفد بها تاريخنا ، وعاش عليها آباؤنا ، وإحياء الفرعونية فى مصر ،والسورية فى الشام ، والبربرية فى المغرب وهكذا . .

والشعوبية الحديثة تشبه القديمة فى خيانة دعوتها ، وحماقة فكرتها ، إلا أن الأولى كانت تقوم على استحياء الجاهليات التى أخمد الإسلام أنفاسها .

أما الشعوبية الحديثة فهى ـ مع ذلك ـ تقوم على إنفاذ مكايد الصليبية

الحديثة وترديد مطاعنها ، وبعثرة الأمة الإسلامية فى كل فج بعد تعريضها لعشرات التيارات الضائقة بالإسلام ونبيه وتاريخه وحضارته .

« ١ ـ فهناك الدعوة إلى أن القرآن :

(ا) كتاب مسيحى يهودى نسخه محمد .

(ب) وأن الإسلام دين مادى لاروحية فيه ، يدعو إلى الدنيا ، وليس إلى صفاء النفوس والمحبة .

(ج) وأنه ـ أى الإسلام ـ يميل إلى الاعتداء والاغتيال ويغرى أتباعه بالقسوة على غير المسلمين عامة .

(د) كما أنه يدعو إلى الحيوانية والاستغراق فى الملذات الدنيا .

٢ ـ وهناك الدعوة إلى :

(ا) أن الفلسفة العربية فكر يونانى ، كتب بأحرف عربية .

(ب) وأن اللغة العربية الفصحى لم تعد صالحة اليوم ، وبدلا منها يجب أن تستخدم العامية واللهجات الدارجة ، كما يجب أن تستخدم الحروف اللاتينية عوضاً عن الأحرف العربية .

٣ ـ وهناك الدعوة إلى :

(ا) إحياء الفرعونية فى مصر .

(ب) والآشورية فى العراق .

(ج) والبربرية فى شمال افريقية .

(د) والفينيقية على ساحل فلسطين ولبنان .

(هـ) وإلى تفضيل الفارسية ـ بوصفها لغة آرية ـ على العربية بوصفها لغة سامية .

(و) و إلى أن الذى حمل أمارات الحياة الأدبية الجديدة فى الشرق العربى فى نهاية القرن التاسع عشر ، وكذا فى الشرق الإسلامى ، وحمل مظاهر الحضارة عامة ــ هم نصارى لبنان الذين تعلموا واستوحوا من جهود المبشرين الأمريكيين فى سوريا .

(ز) و إلى أن البربر وحدهم هم أصحاب المدنية فى شمال افريقية والأندلس .

٤ ــ وهناك الدعوة إلى :

(ا) التنفير من حياة المسلمين الحاضرة ؛ لأنها حياة بدائية ذليلة .

(ب) و إلى أن السبب فى ذلك هو تعاليم الإسلام والتمسك بها(١) » .

ووجدت جراثيم الشعوبية مرتعاً خصيباً فى الطبقات الحاكمة ؛ إذ أن هذه الطبقات للأسف من أفسد الطوائف فى تاريخنا ، إنهـا فى الأغلب أقرب إلى الكفر منها إلى الإيمان .

وهاك مثلين لاثنين من الحكام الذين بذلوا جهوداً ظاهرة فى تغليب النزعات الشعوبية على تعاليم الإسلام .

أولهما الخديوى إسماعيل باشا .

فهذا الحاكم المصرى أعلن رغبته فى جعل البلاد قطعة من أوربا ، وانفصل فى حياته الخاصة عن التكاليف الدينية ، وتوسع فى الشهوات الجنسية ، وفتح باب الاقتراض بالربا على مصراعيه ، واستوزر أرمنيا اسمه « نوبار باشا » استبدل القوانين الغربية بالشريعة الإسلامية .

---

(١) من رسالة فى التبشير والاستشراق للدكتور محمد البهى .

و بتلك السيرة أخذت الأمة الإسلامية تواجه زحف الانحلال والإلحاد على حاضرها ومستقبلها .

والحاكم الثانى هو مصطفى كمال القائد التركى المشهور .

هذا الرجل أظهر الإسلام حتى أمكنه أن يستفيد من قوى المؤمنين فى طرد الغزاة الأجانب .

فلما استتب الأمر له قلب ظهر المجن للإسلام وأهله وأعان حربا مروعة على العروبة ومايمت إليها ، ورمى ببقايا الخلافة الإسلامية فى البحر ، وقرر انسلاخ الدولة عن الإسلام ، ورفض بعناد وكبر إلا أن يجعل دستور الحكم لادين له .

وكانت هذه النكسة من أقسى مالقى الإسلام فى تاريخه من لطمات .

والغريب أن تركيا هذه ابتعدت عن الإسلام ظناً منها أن ستستريح وتستقر، لكن شاء الله ألا تكون تركيا فى تاريخها كله أهون شأناً منها فى هذا العصر .

وألحت نزعات الشعوبية على سائر البلاد الإسلامية ، وتألفت لها مدارس قوية يمدها النفوذ الأجنبى بعطفه وعونه .

وكان رجالها فى القاهرة أجهر الناس دعوة إلى ترك الإسلام ، والذوبان فى أوربا ، و نبذ العروبة والازراء على نسبها ، وترويج مطاعن المستشرقين والمبشرين بين الناشئة ، وخلق الجو الذى يموت فيه الإسلام وتحيا بدله بواعث أخرى فى الخلق والقانون والسياسة .

وقد ألف الدكتور طه حسين كتابه « مستقبل الثقافة فى مصر » لبلوغ هذا الهدف ، ودعا فيه إلى الذوبان فى الحضارة الغربية ، خيرها وشرها ، حلوها ومرها على حد تعبيره ، وبذل جهوده فى تحويل الأمة المصرية عن عروبتها

وتاريخها وعقيدتها وشريعتها ، أى فى تكفيرها جملة ، ولا بأس أن ننقل طرفا من كلامه فى هذا الموضوع .

بدأ طه حسين مقدمة كتابه بهذا السؤال :

هل العقل المصرى شرقى التصوير والإدراك والفهم والحكم على الأشياء ؟

أم هو غربى التصوير والإدراك والفهم على الأشياء ؟

و بعبارة موجزة ، كما يقول الدكتور [ص ٧] فى الجزء الأول :

أيهما أيسر على العقل المصرى : أن يفهم الرجل الصينى أو اليابانى ، أو أن يفهم الرجل الفرنسى أو الإنجليزى ؟

ثم مضى يقول :

إن العقل المصرى منذ عصوره الأولى عقل إن تأثر بشىء فإنما يتأثر بالبحر المتوسط ، و إن تبادل المنافع ، على اختلافها فإنما يتبادلها مع شعوب البحر الأبيض المتوسط [ص ١١] .

ثم يستطرد بعد هذا ليؤكد ماذهب إليه من دعوى التأثر بحضارة حوض البحر الأبيض المتوسط فيقول .

و إذا لم يكن بد من اعتبار البيئة فى تقدير هذا المؤثر ، فمن اللغو والسخف أن نفكر فى الشرق الأقصى أو الشرق البعيد ، ومن الحق أن نفكر فى البحر المتوسط ، وفى الظروف التى أحاطت به ، والأمم التى عاشت حوله [ص ١٣] .

ثم يقول :

وقد استطعت أن أفهم كثيراً من الخطأ ، وأسيغ كثيراً من الغلط ، وأفسر كثيراً من الوهم ، ولكنى لم أستطع قط . ولن أستطيع فى يوم من الأيام !!!

أن أفهم هذا الخطأ الشنيع ، أو أسيغ هذا الوهم القريب [يقصد انتساب العقل المصرى والبيئة المصرية إلى الشرق]

ثم يفصح الدكتور عن خبيئة نفسه (ص ١٦) حين يقرر :

أن تطور الحياة الإنسانية قد قضى منذ عهد بعيد بأن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساساً للوحدة السياسية ولا قواماً لتكوين الدول .

وما أظن أحداً يجادل فى أن المسلمين قد أقاموا سياستهم على المنافع العملية ، وعدلوا عن إقامتها على الوحـدة الدينية واللغوية والجنسية أيضاً قبل أن ينقضى القرن الثانى للهجرة .

فالمسلمون إذن قد فطنوا منذ عهد بعيد إلى أصل من أصول الحياة الحديثة . وهو أن السياسة شىء والدين شىء آخر .

وأن نظام الحـكم وتـكوين الدول إنما يقومان على المنافع العملية قبل أن يقوما على أى شىء آخر » .

ويقول الدكتور :

جاء الإسلام وانتشر فى أقطار الأرض وتلقته مصر لقاء حسناً ، فاتخذته لها ديناً ، واتخذت لغته العربية لها لغة فهل أخرجها ذلك عن عقليتها الأولى ؟ وهل جعلها أمة شرقية بالمعنى الذى يفهم من هذه الـكلمة الآن ؟ كلا .

لأن المسيحية التى ظهرت فى الشرق غمرت أوربا فلم تصبح أوربا شرقية .

فلست أدرى ما الذى يفرق بين المسيحية والإسلام وكلاهما قد ظهر فى الشرق الجغرافى ؟

إذا صح أن المسيحية لم تمسخ العقل الأوربى . فيجب أن يصح أن الإسلام

لم يغير العقل المصرى أو لم يغير عقل الشعوب التى اعتنقته والتى كانت متأثرة بهذا البحر الأبيض المتوسط .

بل نذهب إلى أبعد من هذا فنقول مطمئنين :

إن انتشار الإسلام فى الشرق البعيد ، وفى الشرق الأقصى قد مد سلطان العقل اليونانى و بسطه على بلاد لم يكن قد زارها إلا لماما !!!.

ولا ينبغى أن يفهم المصرى أن الكلمة التى قالها اسماعيل ، وجعل بها مصر جزءاً من أوربا قد كانت فنا من فنون التمدح ، أو لوناً من ألوان المفاخرة ؛ إنما كانت مصر دائماً جزءاً من أوربا فى كل ما يتصل بالحياة العقلية والثقافية على اختلاف فروعها وأنواعها .

و يقول طه حسين :

إن مقياس رقى الأفراد والجماعات فى الحياة المادية مهما تختلف الطبقات عندنا إنما هو حظنا من الأخذ بأسباب الحياة المادية الأوربية .

وحياتنا المعنوية على اختلاف مظاهرها وألوانها أوربية خالصة .

نظام الحكم عندنا نقلناه نقلا عن أوربا فى غير تحرج ولا تردد .

و إذا عبنا أنفسنا بشىء من هذه الناحية فإنما نعيبها بالإبطاء فى نقل ما عند الأوربيين من نظم الحكم وأشكال الحياة السياسية اه .

الدكتور طه حسين يطلب طلباً صريحاً أن ننسلخ من عروبتنا الشرقية ، ونولى وجوهنا شطر الغرب .

و يطلب طلباً آخر آكد من طلبه الأول ، أن ندع الإسلام وراء ظهورنا ، وألا نحترم أى رباط له يصلنا بالآخرين .

فإن وحدة الدين واللغة لا يجوز أن يكونا قوام أمة .

وهو يقول : لقد هجرنا الإسلام ـ من حيث هو شريعة ونظام ، فيجب أن نهجر الإسلام ـ من حيث هو نسب وآصرة ، ومن حيث هو مبعث توجيهات خاصة فى التقاليد والأخلاق .

ويجب أن نلقى بأنفسنا فى أحضان الغرب ، وأن نعبَّ من حضارته ما استطعنا ، حضارته المادية والمعنوية صفوها وكدرها ، أو بتعبيره الفذ ؛ حلوها ومرها خيرها وشرها ...

وماذا نصنع بعد هذا الانسلاخ التام من العروبة والإسلام ؟

يقول الدكتور : نبنى أمتنا الجديدة وعلاقاتها القريبة والبعيدة على أساس المنفعة .

وما هذه المنفعة المنشودة ؟ شىء يعرفه الدكتور وحده .

المنفعة التى يظفر بها امرؤ بعد فقد إسلامه وعروبته ما تكون ؟

إنها شىء أشبه بأجرة البغى بعد أن تبيع عرضها .

ومقياس المنفعة فى علم الأخلاق مقياس قذر ، وهو فى ميدان السياسة كذلك مقياس قذر ، وإن عاش به الأفاك الإيطالى « مكيافللى » صاحب مبدأ : الغاية تبرر الوسيلة .

ومن حق القراء العرب أن يعرفوا لماذا يعرض الدكتور طه حسين على المسلمين العرب أن يدعوا عروبتهم وإسلامهم ، ملتمسين النفع من الغرب .

إنه ارتضى لهم ما ارتضى لنفسه .

الدكتور الذكى ـ فى سبيل المنفعة ـ قال هذا الكلام يدعم به مبدأ

الفرعونية المصرية ، يوم كان لهذا المبدأ رواج .

فلما كسدت سوقه أصبح خطيباً للقومية العربية !!

والدكتور الذكى ألف كتابه عن الأدب الجاهلى يشكك الناس فى قيمة القرآن التاريخية ؛ يوم كان للإلحاد رواج ، فلما وجد الثمن أغلى فى ميدان التدين ألف كتاباً ساند فيه الإسلام سماه « مرآة الإسلام » .

والدكتور الذكى جثا أمام فاروق يقبل الأرض بين قدميه ، ويقول له الكلمة التى ماقالها أحد : ياصاحب مصر !! .

ويقول : إن المؤرخين يزعمون مصر هدية النيل وأنا أقول :

مصر هدية الفاروق .

فلما ولى النظام الملكى ، كان أول من رفع عقيرته فى سوق السياسة يعرض خدماته على النظام الجمهورى !!

وطالب القوت ماتعدّى .

الرجل يعيش وفق قانون المنفعة .

ولكن أيحسب الدكتور أن الناس جميعاً مثله فى ضعف الأخلاق وسرعة التقلب فهم على استعداد لترك العروبة والإسلام من أجل منفعة مزعومة ؟

أما قرأ الدكتور فى ثبات الأخلاق قول الشاعر العربى ؟

وإنّا ــ على عض الزمان الذى بنا ... نعالج من كره المخازى الدواهيا

أو ماسمع المثل القائل : تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها ؟

إنه طبعاً يهزأ بهذا المنطق ، ولا يزال فى قرارة النفس يعتنق دين المنفعة ، قبحه الله من دين ، وقبح من يدخل فى نطاقه الخسيس .

شيء واحد وحسب هو الذى ثبت عليه الدكتور .

كراهية الإيمان وأهله ، والنقمة على الدعاة المسلمين .

لقد أرسل زغاريد النساء يوم ألغيت المحاكم الشرعية وهو يستعد لزغاريد أخرى يوم إغلاق الأزهر . .

ولندع هذا الشعوبى الذى ألف كتابه « مستقبل الثقافة فى مصر » يحاول به خدمة الحانقين على العروبة والإسلام .

ولنتابع السيد الأستاذ « محمد كرد على » يتناول القضية نفسها فيقول :

« شعوبيان مخرفان شامى ومصرى :

ومن هؤلاء الشعوبيين فى الشام هزاء خيالى ، دعا الشاميين فى جملة الآراء التى جاهر بها إلى أن تصفو نياتهم، فينسوا الأجداد الذين يشيدون أبدا بمفاخرهم ، وينسوا الدولة الإسلامية التى يتغنون على الدوام بمجدها ؛ وماعهدنا عاقلا يدعو أمة إلى تناسى تاريخها ، بل رأينا أمة تدرس تاريخها ، مهما كان من اسوداد صفحاته ، لأنه مهما زها إلى العمل ، وتتمة مابدأ به أجدادها ، تتوقى شرهم وتقتبس خيرهم . ورأينا من الأمم كبعض جمهوريات أميركا الجنوبية من تصطنع لها تاريخاً تتغنى به فيعينها على نهوضها وأنت لو أردت هذا المتفلسف أن يأتيك برجل يصح لنا أن ننسج على منواله لعجز واكتفى بأن قال لك : إن الإسلام لم يأت فيه رجل يذكر ، ولاختلق الأكاذيب على من أجمعت الأمة بل الأمم على صلاحه أمثال صلاح الدين يوسف . ولشوقى فى هذا المعنى :

مثل القــوم نسوا تاريخهم ... كلقيط عىّ فى الناس انتسابا

أو كمغـلوب على ذاكـرة ... يشتكى من صـلة الماضى انقضابا

ومن هؤلاء الشعوبيين فى مصر رجل ، يزعم أن الإسلام دين بدوى يتسم بكراهة الترف ، و بشدة الإيمان بالوحدانية ، وأن الوهابيين اليوم يمثلون روحه أصدق تمثيل ، وأن العرب تقيدوا لأول أمرهم بالقرآن ، فلم ينقلوا شيئاً . من الأدب الأغريقى ثم كان الروح البدوى سائداً أيضاً ، فقوطعت الفنون الجميلة لأن البدوى يكره بطبعه جميع ضروب الترف والحضارة ، وهو نفسه يعيش فى صحراء لايحتاج معها إلى فنون الحضارة من عمارة وتصوير ونقش . ولذلك حرم التصوير كما حرم صناعة التماثيل ، وصار الغناء والموسيقى يتاهى بها السكارى ، وأن من الرسم تستفيد الأمة رأيها وذوقها فى الجمال ، ومن « الدوامة » تكتسب سليقة النقد الاجتماعى ، فتبقى جذوة الإصلاح حية متقدة ، وتنزع نزعة رقى وتقدم ، وأن تعصبنا للشرق تعصب للقديم أكثر مما هو للشرق ، وأنفة من أن يقال إن حضارتنا قد أفلست أمام حضارة أوربا .

قال :

وليس علينا للعرب أى ولاء ، و إدمان الدرس لثقافتهم مضعف للشباب ومبعث لقواهم ، فيجب أن نعودهم الكتابة بالأسلوب المصرى الحديث ، لا بالأسلوب العربى القديم . و يجب أن يعرفون أننا أرقى من العرب ، وأن ندرس العربية الفصحى كما ندرس الأشورية والبابلية ، وأن ننظر إلى لغتنا النابغة والمتبنى كما ننظر إلى اللغة الروسية أو الإيطالية ، وأن العربية ليست لغتنا ولا نستفيد منها ، وأن لنا من العرب ألفاظهم فقط لا لغتهم بل بعض ألفاظهم .

قال :

وكل من اختبر هذه اللغة يعرف أن قاسم أمين ولطفى السيد كانا على حق

عندما نصحا باستعمال العامية المصرية بدلا منها .

وقال :

إن الرابطة الشرقية سخافة ، والرابطة الدينية وقاحة ، وإن الرابطة الحقيقية أن نفنى فى مدنية أوربا ، ونتطور بأطوارها ، ونتزوج من بناتها ، ونزوجهم بناتنا ، ونأخذ عنهم كل شىء . . وإن الأصلح لمصر إذا أرادت التخلص من آسيا ، والشرق ، والتاريخ العربى ، أن تعود إلى وطنية فرعونية مقصورة على مصر وتاريخ مصر . ودرس مدنية الفراعنة أفيد من درس مدنية العرب ، وأن تدرس آثار العرب ، كما تدرس الفينيقية .

وقال :

إن من تأمل أحوال الأمم الناهضة يعرف أنه ليست أمة تنهض فى العالم الآن إلا وتنسلخ من قديمها ، سواء أكان هذا القديم آسيويا ، أم غير آسيوى .

هـذه خلاصة آراء المتفلسف الشعوبى ، ولو أردناه وصاحبه معا أن ينزل عن مشخصاته ومقدساته[1] التى يتظاهر بالبعد عنها ، وهى أعلق بقلبه من شعرات قَصَّه[2] لاستكبر وأبى » اهـ .

أحقٌّ أن تجديد قوانا ما يكون إلا باطراح تعاليم الإسلام واعتداء حدود

---

(١) أهل الكتاب من العرب يطلبون من المسلمين أن ينسوا دينهم ، أما هم ـ هوداً كانوا أم نصارى ـ فلا ينسون دينهم أبداً . . ! !

(٢) يقال هو ألزم لك من شعرات قصك : والقص والقصص : الصدر .

الله ، وإهالة الرغام على ماضينا كله ؟ . . ثم مد الأكف إلى الفكر اليونانى ، والقانون اللاتينى ، والفن الإيطالى ، والارتماء جملة فى أحضان الغرب ؟

ذلك ما يجاهر به أجَرَاء الاستعمار بيننا .

لا تجديد ، ولا بناء إلا على أنقاض الكتاب والسنة . . ! !

لا عروبة ولا إسلام إن أردتم الحياة .

هكذا ينصحنا سماسرة أوربا ، والمبشرون بمبدأ المنفعة لا بوحدة الدين واللغة ، كما يتبجح بذلك طه حسين وسائر العصابة المسوقة معه . . ! !

وقد نقبت فى أرجاء نفسى ، وأقطار البلاد :

ما هى العوائق التى يضعها ماضينا أمام حاضرنا ومستقبلنا ؟ . . لا شىء !!

إن ماضينا أنظف وأعف من ماضى أوربا .

واللص التائب ربما ضاق بماضيه إذا ذكّر به !.. أما الشريف الذى لا يلحقه غبار ، فما الذى يخجله من ماضيه ؟

ولو أننا سرنا وفق قانون المنفعة ، كما يفسره الإنسان لا كما يفسره الحيوان ، لوجدنا منفعتنا فى البناء على دعائم الماضى ، ذلك أنها دعائم ممهدة راسخة تشاد فوقها الأبراج دون حرج ، أما بذل الجهود فى محاولة تهديم هذا الماضى ، فهو بعثرة للقوى فى غير طائل ، وعود من اللف والدوران بغير ثمرة .

وفشل كثير من الثورات التى تسمى - إصلاحية - سببه هذا الغباء والكنود .

إن أصحابها يحسبون التجديد مجموعة العلاجات التى نهضت بها أوربا من

ظلمات قرونها الوسطى ، وأوربا - فى نهوضها حاربت الكهانة ، والحمق ، والاستبداد ، والتعصب ؛ وحاربت ذلك بشعاعات من مبادىء الإسلام التى حملها العرب إلى القارة المستوحشة .

فبأى عقل يفكر ناس فى تجديد الأمة العربية الإسلامية ، فيقترحون لذلك أن تنسلخ من تاريخها وتعاليمها وشرائعها ؟ ؟

يقول الغمراوى[1] :

إن التجديد فى الأدب ، كالتجديد فى العلم لا يمكن إلا على أساس تعاون الحاضر والماضى ، يبنى العقل فى حاضره على ما أسس العقل فى ماضيه . فإن الحق وحدة قائمة لا يقوم جزء منها إلا على جزء ، فلن يقوم حق جديد إلا على أساس من حق قديم ، بل الحضور والمضىّ ، والحدوث والقدم إن هى إلا ألوان يبدو بها الحق - أو الباطل - لعين الإنسان ، وما هى من لون الحق فى شىء ، وإنما هى من لون المنظار الذى ينظر منه الإنسان ، وإلا فالحقائق فى نفسها متكافئة فى الثبوت تكافؤ نقط سطح الكرة ، غير أن حياة الفرد أخصر ، وحقائق الكون أعظم وأكثر من أن يستوعب الفرد منها إلا جزءاً متضائلا ، كما أن العين لا تحيط من الأرض فى آن واحد إلا بجزء من الأرض صغير .

وقد يستطيع الجنس البشرى، إذا اتصلت به الحياة إلى الأبد أن يحيط من الحقائق ، بمقدار يزداد إلى مالا نهاية ، من غير أن يستنفد الحقائق ، أو يشرف على أقصاها .

---

(١) تحليل نقد الأدب الجاهلى لمحمد أحمد الغمراوى .

ومهما يكن من شروط تحقق هذا التقدم المطرد فى استيعاب الحقائق ، فإن شرطاً أساسياً له أن تتجرد حركة العقل ـ عقل الفرد ، وعقل الجنس ـ تجرداً تاماً عن التذبذب ، فإن الذى يمحق الأعمار ، أعمار الأفراد والشعوب ، هو التذبذب بين غايتين ، قرب المدى بينهما أم بعد ، فلو ظل « البندول[١] » يضرب إلى سرمد الدهر ما قطع أكثر من تلك القوس المحدودة . ولو ظل الإنسان تتعارض جهوده ، وتلاغى أعماله ، ينقض اليوم من غير دليل ما أبرم بالأمس ، ويبرم غداً من غير دليل ما نقض اليوم ، لظل « البندول » يتحرك ولا يتقدم ، وليس أعدى للفرد ، ولا المجموع من قوم يزينون له هذا التذبذب باسم التقدم ، وهذا التعطيل باسم التجديد . اهـ

* * *

العرب في إطار الأخوة الإسلامية :

الأجناس التى دخلت فى الإسلام كثيرة ، وهى أجناس لها فى تاريخ العالم القديم مكانة بارزة .

وقد يكون العرب من ناحية العدد أقل من الهنود المسلمين ، أو أقل من الأندونيسيين .

---

(١) الرقاص أو النواس أو المعلقة .

إلا أنهم ـ وإن قلوا عدداً ـ لهم بين مجموعة الأمم المسلمة درجة سِنيَّة لا ينازعهم فيها أحد ، وهى درجة يستمدونها من اقتران حياتهم وتاريخهم بالإسلام .

وانعطاف المرء نحو قومه غريزة لاشىء فيها ، وهذا الانعطاف فى حدود الفكر الأصيل ، والميل المعقول يكوِّن معنى القومية الذى لا اعتراض عليه .

لكن كلمة القومية قد تظهر ظهوراً مفتعلا ، وتطن طنيناً شديداً ، ولا يكون ظهورها وطنينها إلا أثراً لانحرافات نفسية ، أو مطامع شخصية ، أو اضطرابات سياسية . .

وهنا لابد لأهل الأيمان والحجا من التريث والأناة فى قبولها أو ردها ، وفى الحكم لها أو عليها .

قد تكون القومية رغبة جنس ما فى فرض نفسه على الخلائق مدعياً من الحقوق والخصائص مالا يسلمه له غيره ألبتة .

وقد تكون رغبة إقليم ما فى الانفصال عما حوله ، إما إنفاذاً لرغبات استعمارية ، أو إجابة لنزعة السيطرة عند حاكم ما ، وذلك مثل القوميات الكثيرة التى انقسم إليها قطر واحد ، كالشام ، أو الأجزاء التى تتكون منها الآن المملكة الليبية .

وهذه القوميات الوليدة فى ظروف مريبة ، أو المنتشرة على رقعة العالم مع انتشار العبث السياسى ، والمجد الشخصى ، لا يمكن قبولها على علاتها ، ولا يمكن التسليم ـ فى ميدان العقيدة والخلق ـ بما تتطلبه من ولاء معين ، أو سلوك خاص .

وقد تطاحنت هذه القوميات تطاحنا مريراً ، حتى إننا لنستطيع أن نرجع إليها أسباب الحروب العالمية الأخيرة .

وكان رد الفعل لهذه العصبيات القومية نشوء مذاهب عالمية رحبة تجعل من « الإنسان » المجرد قاعدة نشاطها ، ومحور دعايتها ، متعالية على ما يقارن شتى القوميات من مشاعر محلية ، وقضايا شخصية ، أو شبه شخصية .

ونحن المسلمين نرحب بالوجهة الإنسانية المطلقة .

بيد أننا لاحظنا أن عناصر خبيثة ، قد تسربت إلى مؤسساتها ومحافلها ، وجعلت من هذه المجامع الإنسانية أوكاراً للنيل من ديننا وحده ، و إقرار الأمور لأديان وطوائف أخرى . .

* * *

ترى ما هى القومية العربية بالنسبة إلى هذه النزعات والمذاهب ؟

أظن كتاباتنا السابقة قد حددت الجواب على هذا التساؤل . .

إننا نرفض كل تفسير للقومية يحملها أوزار العصبيات البالية التى ذكرناها آنفا .

كما نرفض كل تفسير لها يسلخ العرب عن رسالتهم الكبيرة ، أو يوهى الروابط بينهم و بين المسلمين فى القارات الخمس .

يقول المستشرق الإنجليزى « جب » الأستاذ بجامعة أكسفورد :

« إن العرب هم الذين يعتبرون رسالة محمد ، وذكرى الدولة العربية نقطة الارتكاز فى التاريخ ، والذين ـ بالإضافة إلى ذلك ـ يرون اللغة العربية وتراثها الثقافى ملكهم المشترك « يعنى هم وغيرهم من سائر المسلمين[1] » .

---

(١) العرب فى التاريخ لبرنارد لويس .

القومية العربية المشربة بهذا الروح الإسلامى المتغلغل فى أطواء التاريخ ، المهيمن على أطراف الحاضر ، هى بلا ريب نزعة حسنة ، ونهضة طيبة .

وهى لاتعدو أن تكون إقراراً لتبعة القيادة حتى يحملها الجنس العربى بالنسبة إلى سائر الأجناس الداخلة فى الإسلام ، كما أنها فى عقد الأخوة الجامعة دعم لرباطه ، وتوثيق لعراه .

ومايزعم عربى مسلم أن له مرجحا من دم ، وما ينبض فيه عرق بافتيات على إخوانه المسلمين فى أنحاء الأرض ، بل إن العروبة كما شرحنا ـ قومية مفتوحة ، يستطيع أى امرىء أن يمتزج بلبها ولا حرج .

لقد جعلها الإسلام كالمحيط الذى تصب فيه شتى الأنهار ...

من أجل ذلك لابد من بناء المجتمع العربى على هـذه الأخوة التى تصله برسالته ، وتصله بجماعة المسلمين حيث كانوا .

وقد قرأت كلمة نشرت من ثمان وعشرين سنة فى هذا الموضوع لإمام إسلامى كبير ، نرى لزاماً أن نثبتها هنا .

قال رحمه الله :

« يجد مبدأ القومية بين زعماء الأمم وقادة الشعوب من يناصره ويقدسه ويبثه بكل وسيلة فى نفوس الناس ويضع المناهج والبرامج لينشأ الجيل القادم مقدساً لقوميته معتزاً بعصبيته .

فهتلر ينادى أمته :

ألمانيا فوق الجميع .

ومصطفى كمال ينادى أمته :

تركيا فوق الجميع .

وموسوليني ينادى أمته :

إيطاليا فوق الجميع .

ولا يقفون عند النداء ، بل يستخدمون التاريخ ، والذكريات . والقوة ـ إذا احتاج الأمر ـ تثبيتاً لهذا المبدأ فى نفوس شعوبهم .

ويرتفع مع هذا صوت الفلاسفة وعلماء الاجتماع وبعض السياسيين يوضحون للناس خطر التمسك بمبدأ القومية وضرورة التشبع بمبدأ العالمية ونسيان فكرة الوطن الخاص ، والعنصرية الجنسية .

ومصر ـ التى تعودت تقليد الغرب ، والإعجاب بنظمه وبرامجه ـ تقف على مفترق هذين الطريقين .

فتارة تسمع فى جرائدها من يحبذ القومية .

وأخرى تسمع من يهيب بها إلى العالمية ، ويدلى كل منهما بأدلته وبراهينه .

اسمعوا ياقوم :

أما مبدأ « العالمية » فهو وإن كان مبدأ الإنسانية والسلام والخير العام إلا أن أمم الغرب وحكومات الاستعمار جعلته شبكة تصطاد بها ضعاف العقول ، وتكسر به حدة المقاومة عند الشعوب المظلومة حتى تكون لقمة سائغة لها .

وما دامت الأمم الغربية تعتقد فى أمم الشرق الحطة والجهالة والذلة والمهانة وتترفع عن الاختلاط بها وتظن أنها من طينة غير طينتها ، وكل ما تريده منها

أن تمتص دمها وتنتفع بخيراتها وتستخدم أبناءها فى قضاء شهواتها السياسية ومآربها الاستعمارية .

ما دامت أمم الغرب على هـذه الروح الفاسـدة مع ما بينها هى نفسها من التباغض والتحاقد ؛ فإن مبدأ العالمية عند الشرقيين من أخطر المبادىء على حياة أممهم .

وأما مبدأ « القومية » فهو مبدأ خطر كذلك لا ينتج إلا الشرور والآثام والحروب والتخاصم والتنافس والتزاحم .

فإذا كانت كل أمة تدعى أنها سيدة الجميع ، وتعمل للوصول إلى هذه السيادة فمتى تهدأ الثورات أو يسود السلام ؟

وها نحن نرى نتائج تمسك أمم بهذا المبدأ فى مؤتمراتهم التى لم يفلح واحد منها حتى الآن .

ذلك إلى أنه غير طبيعى ؛ لأن العالم يسير إلى الوحدة والاتصال وكل ما صادم الطبيعة لابد أن يزول .

فـكلا المبدأين بالنسبة لمصر وللشرقيين ضار غير ملائم لهم .

فالعالمية مع جمالها النظرى قضاء عليهم ، والقومية مبدأ خاطىء من أساسه .

فإذا وفقنا إلى تربية النشء وتكوين نفوس الأمة على مبدأ يضمن لنا حب الخير العام والسلام والعمل لفائدة الأمم جميعاً ــ وذلك كل ما فى العالمية من جمال ــ ويضمن لنا مع هذا التمسك بعزتنا ، والدفاع عن حوزتنا ، والذود عن أوطاننا ومقدساتنا ــ وذلك كل ما فى القومية من فائدة ــ كنا قد وصلنا إلى خير كثير ، وأخذنا من كلا المبدأين فائدته ، وتجنبنا ضرره ، وبرئنا من وصمة التقليد ، وَفَضَلْنَا

الغرب الذى تلعب به الأهواء والشهوات ، ودللنا بعملنا هـذا على أسمى معنى من معانى الاستقلال النفسى .

ولا أدرى لماذا نذهب بعيداً وهذا المبدأ بين أيدينا ؟

أرشدنا إليه العزيز الحكيم فى كتابه الكريم ـ وهو الذى يعلم مصالح عباده ـ ويرشد خلقه إلى أقوم السبل فى حياتهم المادية والروحية معاً .

وذلك المبدأ الذى يجب أن ينشأ عليه أبناؤنا ، وتتربى عليه نفوسنا ، هو مبدأ « الأخوة الإسلامية » .

الأخوة الإسلامية التى قررها القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾(١) .

وقررها النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله :

« المسلم أخ المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره ، بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام ماله ودمه وعرضه » .

إننا إذا تمسكنا بهذا المبدأ قويت رابطتنا النفسية ، وقويت رابطتنا بالأمم الشرقية ، وعصمتنا العقيدة من الاستكانة للغاصب والخنوع للذل والاستعباد .

إننا إذا جعلنا مبدأ الأخوة الإسلامية هو مبدأ التربية عندنا ، وأساس مناهجنا ونظمنا . وخدمنا العالم الذى يسير إلى الإسلام بخطوات واسعة ، وخدمنا الحضارة والمدنية اللتين لن تجدا ديناً يتمشى معهما ويكمل ما نقص من مظاهرها

---

(١) سورة الحجرات آية ١٠ .

غير الإسلام ، و بنينا الجيل القادم على أقوى دعامة وأمتن أساس .

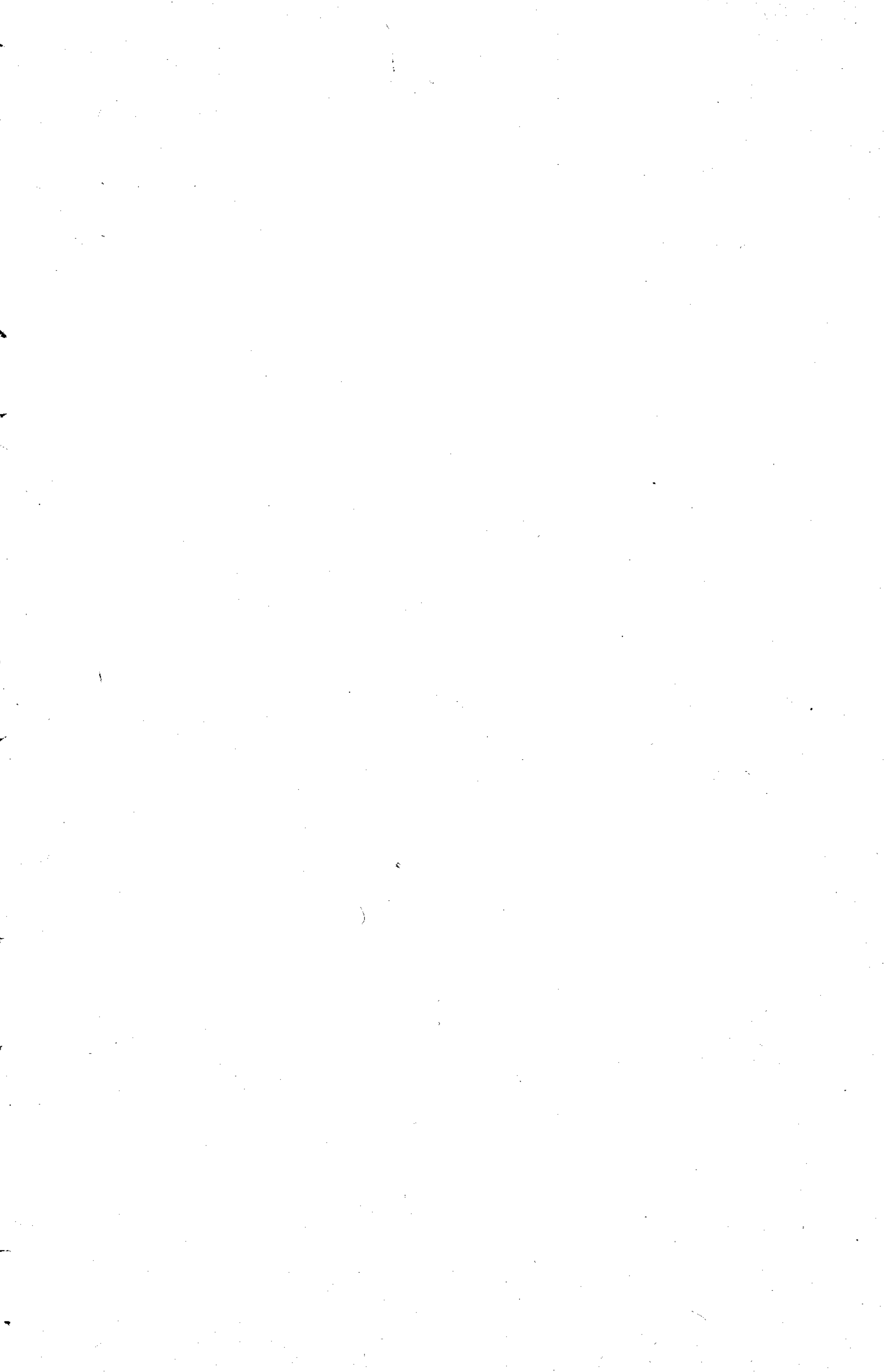
« فلنكن شجعاناً فى التحرر من نير التقليد الأجنبى ولو مرة واحدة » .

* * *

إن الأخوة الإسلامية التى ندعو إليها ترادف الأخوة الإنسانية التى ينشدها كبار القلوب من البشر .

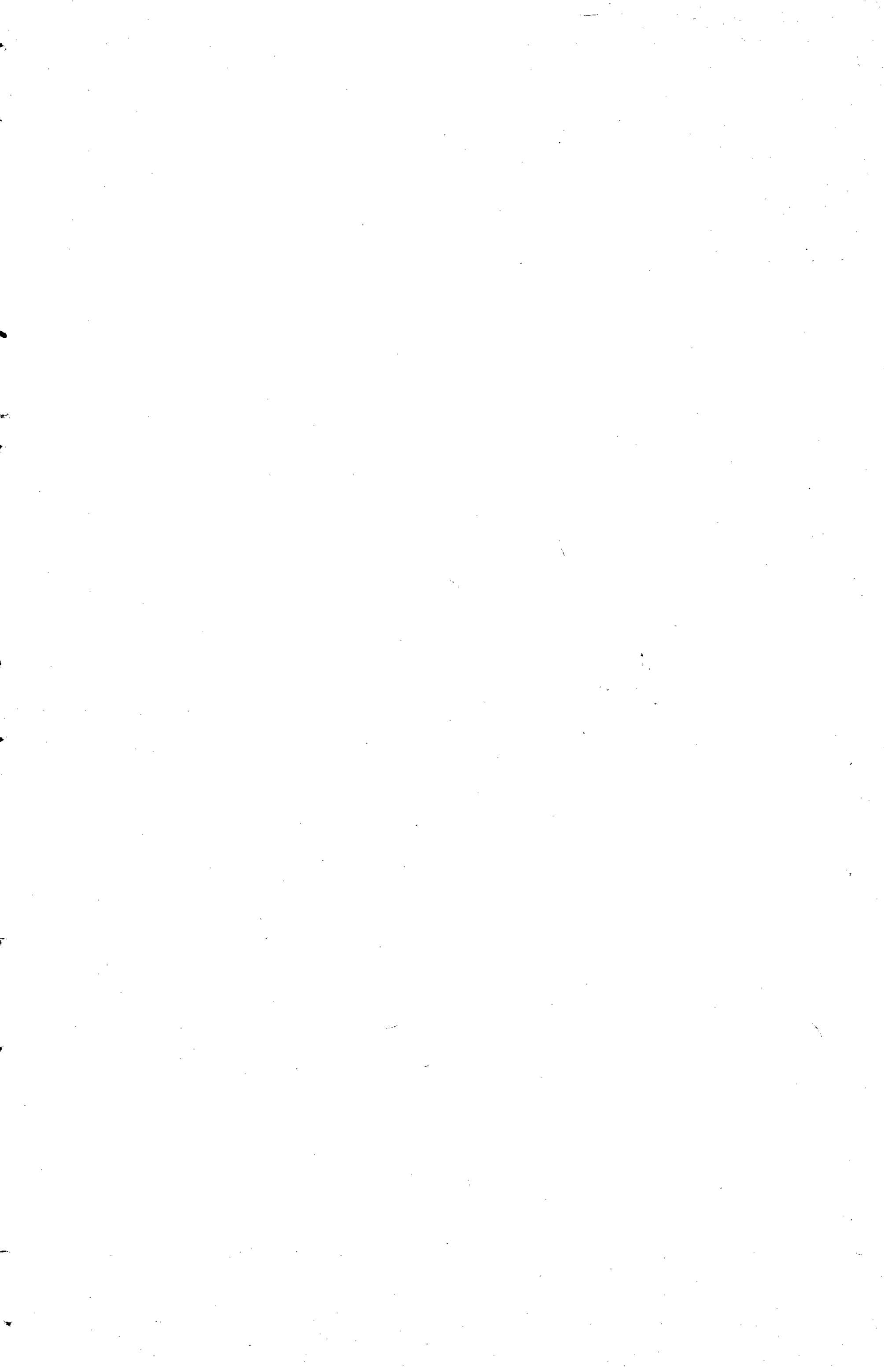
ذلك لأنها تسع شتى الأديان والأقوام مع بقائهم جميعاً على مللهم دون نكير، وتضبط الحياة العامة بنظام يقوم على محض العدالة ، والرحمة ، والتسامح .

أى أن غير المسلمين يتساوون مع المسلمين فى الحقوق والواجبات ، ويختلفون عنهم فيما ارتضوه لأنفسهم من عقائد غير إسلامية .



- ٦ -

عصور الإزدهار وعصور الإنهيار



ظل العرب زماناً طويلا وهم أنضر أهل الدنيا حضارة ، وأذكاهم فكراً ، وأشرفهم سيرة ، وأنقاهم سريرة .

وامتدت بهم العصور وهم منفردون بهذا السبق البعيد ، لايكاد يدانيهم أحد فى سعة الخطو ، واستقامة النهج .

ولولا أن العرب شغل بعضهم ببعض فى فترات متراخية ماردَّهم عن امتلاك المشارق والمغارب أحد ؛ فإن تفوقهم المادى والأدبى ـ الذى صحب اعتناقهم للإسلام ـ أعجز غيرهم عن بلوغ المستوى الذى أحرزوه .

ولقد وقف العرب دون عائق ظاهر أو خفى فلم يتابعوا مسيرهم المظفر فى العصر الأول ، ولا أنفذوا الرسل بدعوتهم العظيمة إلى الآفاق البعيدة كما فعل نبيهم الكريم .

وكانوا يستطيعون ـ لو أرادوا ـ أن يجتازوا الصين إلى اليابان ، وأن ينتقلوا من فرنسا إلى شرق أوربا وشمالها . .

أتظن وقفتهم هذه كانت حذر قوى ذات خطر فى تلك البقاع ؟

كلا ؛ فإن الشعوب الأوربية كانت من هوان الشأن بحيث لاتستطيع أن ترد فاتحاً ، وهى وغيرها من الخلائق كانت تهيم فى بيداء من الخرافات ليس لها من آخر .

وليت العرب وجدوا عدواً مكافئاً ينافسهم وينافسونه ، إذن لزاح عنهم الغرور العلمى الذى استولى عليهم وأغراهم بالقعود والدعة :

كم يستفيد المرء من أعدائه ؟

إن الرجل فى ميدان الكفاح يتفقد صفوفه ، و يتحرى أسباب سلامته ، و يوجل أن يؤخذ عن غرة .

أما إذا خلا الجو له فقلما يتحرك إلى عمل تنعقد له العزيمة ، وتوخذ له الأهبة ، ولعله ينام تلبية لقول القائل :

و إذا العناية لاحظتك عيونها   نم فالمخاوف، كلهن أمان

والحق أن المرء يشعر بغصة عندما يقارن بين القمة التى اعتليناها دهراً ، والوهدة التى انحدرنا إليها بعد .

إن الهمل الذين عاشوا فى أوربا ألف سنة لا يصلحون لشىء بالنسبة لنا ، صاروا اليوم سادة فى دنيا تضن علينا بالنصفة .

« وَتِلْكَ الأيَامُ نُداوِلُهَا بَيْنَ النّاسِ[1] » .

ظلت حضارة العرب شمس هذا العالم مئات السنين ، وكان الإسلام خلالها مبعث الضوء والدفء والنماء والحركة .

ورسالة الإسلام بطبيعتها تخلق أجواء البحث والنظر ، وأجواء اليقظة والدأب .

وذلك لأن الاسلام يعتمد فى أصوله على منابع جياشة بالإلهام والبعث .

قرآن يستثير الألباب والأفئدة ، و يتضمن الكلم الفواصل فى كل ماشغل الناس أو يشغلهم من قضايا الفرد والمجتمع والدولة .

---

(١) آل عمران آية : ١٤٠ .

وإمام هُدَى شق فى الحياة العامة طريقاً واضحة المعالم ، يعجز الفلاسفة القدامى والمحدثون عن مثلها .

أجل ؛ فإن سنة محمد طراز من الحكمة العلمية والعملية لا نظير له فى الأولين والآخرين . .

ومن هذا الكتاب الكريم ؛ وتلك السنة المطهرة . تتكون الثقافة الذاتية للإسلام . — ونعنى بالثقافة الذاتية للإسلام ألوان المعرفة والتربية التى كونت الأمة الإسلامية وصاغتها فى قالبها المعروف — .

إن هناك علوماً لا وطن لها ولا جنس كعلوم الأحياء والرياضة .

ودور العروبة فى هذا القطاع الكونى العام يأتى حديثه بعد . .

لكن الذى نومىء إليه الآن ما أسميناه الثقافة الذاتية .

الثقافة التى تضبط اتجاه الإنسان فى الحياة ، وترسم له الهدف بدقة ، وتشد زناد مواهبه ثم تطلقه فيمضى كأنه قذيفة حية لا تميل ولا تزيغ . .

هذه الثقافة الذاتية من الوفرة والخصوبة فى تعاليم الإسلام بحيث تصنع الأمم صناعة كاملة ، كأنها « جهاز » تام الأدوات لا يعجز عن أداء وظيفته فى شىء .

وهذه الثقافة الذاتية إنما تنهض على ركائزها الأولى من الكتاب والسنة ومن علوم الكتاب والسنة ، ومن إيلاف الخاصة والعامة لإيحاءات وغايات الكتاب والسنة .

ومن هنا كان جهد الغزو الأجنبى للشرق الإسلامى أن يميت هذا الجانب من الثقافة ، وأن يصوب إليه سهامه بإصرار حتى يشله عن عمله العتيد .

وهو عندما نجح فى ذلك خلق أجيالا قد تكون بارعة فى الكيمياء أو الهندسة ، ولكنها تحيا بغير باعث أو هدف ، بغير روح أو أمل ، كرجل يسير فى الطريق دون غاية تقوده فهو يتفرج على كل زياط ، ويتبع كل ضجة .

كذلك سواد المتعلمين فى بلادنا ، يرمقون الحياة العامة بقلوب جعلها الاحتلال فارغة ، فهم كلما برق أمام أعينهم مبدأ مستورد من الخارج تبعوه دون تمييز ودون اكتراث .

وربما تبعوه تزجية للفراغ وإضاعة للوقت .

ونحن ننبه إلى ضرورة الحفاظ على الثقافة الذاتية للإسلام ، ونهيب بأولى الحجا أن يتوجسوا من عقبى الفراغ النفسى والفكرى الموجود الآن بين شتى الطوائف .

إن ضياع هذه الثقافة الذاتية معناه ضياع أمتنا كلها . .

ومن السهل أن ننظر إلى التاريخ الثقافى لأمتنا فنجد اشتغال المسلمين بعلوم الكتاب والسنة قد استنفد أوقاتهم وجهودهم ، وكان الأسلاف يورثون الأخلاف هذه المعانى لأنهم يورثونهم فيها أسرار الحياة ، وبواعث النشاط ، وضمانات الرشاد ! !

أثر العقيدة والشريعة فى المجتمع :

والقرآن ـ وهو أساس الإسلام ـ ليس مزامير وعظ ، أو مناجاة رهبان متبتلين ، فدائرته أرحب أقطارا من ذلك .

قد يستحلى الخاشعون تلاوته فى محاريب العبادة ، وتنحدر دموعهم لما احتوى من وعد ووعيد .

لكن هذا الكتاب يصل الفرد بالحياة العامة والمجتمع المائج صلة لا يمكن إضعافها .

ومفهوم الإيمان منه صلاح و إصلاح ، ورشاد و إرشاد ، وعقيدة تتعدى نفس الفرد إلى ماحوله من أشخاص وأشياء .

ولا غرو فالإيمان الفردى فى البيئة الشاكة سريع العطب ، والمرء العابد فى دولة ملحدة سوف يموت يوماً وتموت معه عبادته و يبقى الإلحاد الحاكم .

من أجل ذلك رفض الإسلام رفضاً باتاً حياة العزلة ولو كان الإيمان فيها جذوة نار .

فإن هذه الجذوة مع انتشار الفساد كمدفأة وسط عاصفة باردة التيارات هتون الأمطار لاتلبث أن تخمد .

ومن أحسن مايصور طبيعة الإسلام ماروى من أن أحد الصالحين أحب أن يجاور الحرمين وأن يتبتل إلى الله ، فكتب له صديق حازم من المجاهدين .

ياعابد الحرمين لو أبصرتنا   لعلمت أنك بالعبادة تلعب

من كان يخضب خدّه بدموعه   فنحورنا بدمائنا تتخضب ! !

الإسلام شديد الإعلان عن طبيعته ، يغرس عقائده غرساً فى أرجاء المجتمع .

أسمعت هذا الأذان المتكرر !

إنه صيحات واعية هائلة تجذب قوافل البشر إلى الحق كلما غلبتهم الغفلة ، وجمحت بهم غرائز السوء .

فى نفس أى مؤمن شعور أن الله أكبر ، لكن هذا الشعور يجب أن يتحول جؤاراً بعيد الدوىّ يزعج الشيطان ، و يعلى شعار الرحمن .

ومن خواص العقيدة عندنا أن بناءها على الحق لا على الخرافة ، وعلى الدليل لا على التظنن .

« أَم اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَـكُمْ هٰذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِىَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِى [1] » .

ورفض أى دعوى لا تساندها الحجة المقنعة للعقل أساس عظيم فى وزن الأمور ، ونفى الترهات .

والعقل فى نظر الإسلام مصفاة لما يعرض على الإنسان من مبادىء وقضايا ، مصفاة لاتسمح للأقذار والشوائب أن تلوث الفطرة ، أو تضلل السلوك .

وعندما تمر الحقائق النقية من هذه المصفاة تستقر فى حنايا الصدر لتجعل صاحبها تقياً مخلصاً لله رب العالمين .

والتقوى كلمة أبلاها سوء الاستعمال وطول الابتذال .

غير أننا نسارع إلى التوكيد بأن لبابها الجليل هو سر الفلاح لأية جماعة .

وهيهات هيهات أن يصلح مجتمع نضب فيه معين التقوى ، وارتد أبناؤه .

إما دواب تقودها طباعها .

أو شياطين بارعة الفكر عديمة الخير .

التقوى استصحاب المرء لرقابة الله وهو يباشر أى عمل ، فهو يبلغ به درجة

---

(١) سورة الأنبياء آية ٢٤ .

الـكمال دون رغبة أو رهبة ، وهو يجوده تجويدا ـ ولو كان خالياً ـ كأن ألف عين ترمقه .

الإيمان هو الذى يسرج مصباح الضمير ، ويجعل الناس يتحابون بروح الله ، ويتعاونون ببواعث الحق والخير ويؤدون الواجبات المنوطة بأعناقهم دون تململ .

ماذا كسب المجتمع لما وهى سلطان العقيدة ؟ إنه خسر استقراره وسعادته ، بل خسر نفسه .

وإنى أقارن بين «فقهاء» الـكتاتيب الذين كانوا يأكلون فتات الصدقات ، ومدرسى المرحلة الأولى فى التعليم الحاضر ـ وهم أثرى وأرقى ـ فأجد إيمان الأولين جعل نتاجهم كثيراً طيباً ، وأما الآخرون فعلى كثرة النفقة ، وتعدد الرؤساء ، وتعهد البرامج ، وتنظيم الفرق ، لم يثمروا شيئاً طائلا .

إنه لا العمال ، ولا الموظفون ، ولا الحكام ، ولا سائر الطوائف يستطيعون الإسهام فى إقامة مجتمع ناجح إلا على ضياء اليقين الراسخ والتقوى الغالبة والعبادة الحية ، وكل ماتجمع باقة الإيمان الصحيح من فضائل وخيرات .

* * *

واستقرار العقيدة فى النفس والجماعة يلد أغلب الاتجاهات النفسية والأخلاق العملية ، لـكن البشر لايستغنون مع هذا عن سلطات القانون .

وقد يزع الله بالسلطان مالا يزع بالقرآن خصوصاً عند اعتلال القلوب وغيض الوفاء .

والإسلام تضمن مجموعة متكاملة من التشريعات المقرة للحق ، الـكافلة للطمأنينة ، الحارسة للإنصاف والعدالة .

وحسبها أنها من السماء لا من الأرض .

ومن صنع الله الخبير البصير لا من صنع البشر الذين طالما ضلوا على أنفسهم ووكلتهم الأقدار إلى تدبيرهم ففسدوا وأفسدوا .

والمهم فى القانون ـ بعد سداده وصدقه ـ إحسان تطبيقه ، وتعاون الشعب والحكومة على إنفاذه .

وهذا لا يتم إلا إذا كان الإيمان أساس الشريعة القائمة وأساس رضا الأمة بها ، وتسليمها لها . .

والسوالف الأولى تتضمن العجائب فى هذا الميدان .

إن الرغبة فى إنفاذ القانون غلبت غريزة الأمومة . وغريزة الأمومة من أقوى وأزكى الغرائز الإنسانية إن لم تكن أقواها وأزهاها .

ومع ذلك فإن امرأة كالغامدية ، ألمت بذنب ، ورأت أن تطهر نفسها من آثاره ، فذهبت إلى رسول الله ومعها رضيعها ، ثمرة خطئها ، وطلبت أن يقام عليها الحد .

فلما أرجئت لحاجة ولدها إليها عادت بعد فترة ـ وقد كبر الطفل ـ وفى يده لقمة يأكل منها ، وطلبت أن يقام عليها الحد ! ! !

مثل هذه المرأة يشترى الحياة بأى ثمن إن لم يكن من أجل نفسه فمن أجل ولده .

أما هى فإن إيمانها بأن القانون القائم هو الذى يطهرها من جريرتها جعلها تجود بنفسها ، وتتقدم طوعاً لا كرهاً .

إن القانون إذا كان جزءاً من الدين كان احترامه وتطبيقه ديناً .

ومن ثم كان من العبث بقاء القوانين الوضعية إلى يومنا هذا مع أنها من مخلفات الاستعمار الصليبي ، ومن أبرز مظاهر التحدى لله ورسوله .

وقد استبحرت بحوث الفقه والتشريع فى حضارتنا استبحاراً لا يؤثر لحضارة أخرى ، وكتب الأئمة والعلماء فى ذلك أسفاراً ضخمة ، ووصلوا إلى مبادىء قانونية ، وقواعد بالغة الدقة .

ويمتاز المسلمون بأن عامتهم وخاصتهم يتدارسون ألوان التشريع فى المساجد والمدارس على أنها دين واحد . والعبادات والمعاملات فيه سواء .

فرجل الشارع فى المدينة أو الفلاح فى القرية يقصد إلى المسجد ليسمع كلاماً فى أحكام الصيام ، وكلاماً فى أحكام البيوع والإيجارات ؛ على أن هذه وتلك تعاليم الإسلام التى لابد من فقهها والعمل بها .

إن الإسلام جعل الأمة كلها أمة نظر قانونى لاأمة خيال وتوهم .

والأوربيون يذكرون أسلافهم الرومان على أنهم رجالات القانون وجهابذته ، ولعمرى إن الرومان ما بلغوا فى هذا معشار العرب .

ولكن القوم يتعصبون لأسلافهم ويحتفلون بالتافه من تراثهم .

أما نحن فالتركة العقلية الرائعة لأئمتنا العظام رمى « هولاكو » بعضاً منها فى الفرات ليصنع جسراً تعبر عليه جيوشه .

ورمى الصليبيون بعضاً ثانياً فى غرب البحر المتوسط ، ونقل عقلاؤهم ألوف الكتب إلى عواصمهم ، وكنزنا نحن بعضاً فى دور الكتب فيه المخطوط وغير المخطوط .... وحسب !!

وما تتداوله الأيدى فى ميدان الدراسة شىء محدود ، ولعله ليس أفضل الموجود .

و يمتاز التشريع الإسلامى بطابعه الدينى الجليل .

إنه يرعى المصلحة كأدق القوانين المدنية ، ثم هو إلى جانب ذلك وثيق العرى ببواعث الإيمان وأمثلته العالية .

إنه فى ميدان الحياة العملية قسيم للعقيدة وماتلده العقيدة من أخلاق وتقاليد . كذلك القانون عندنا ، إنه يسير بين خطين ثابتين من رعاية الله وتحرى رضاه ، كما ينطلق النهر بين شاطئيه لا يطغى ولا يزيغ .

و يطول بنا المقال لو ضربنا الأمثلة ، وعرضنا نماذج من اجتهاد الفقهاء وفق نصوص الدين وقواعده العامة .

و يكفى أن نثبت هنا رسالة كتبها الخليفة الراشد عمر لأبى موسى الأشعرى إذ ولاه القضاء .

وهى رسالة جمعت آداباً كريمة ، ودلت على منزع الفقه الإسلامى فى إثبات الحقوق ، و إرساء الحدود ، و إرضاء الله و إنصاف عباده .

قال :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس . سلام عليك .

أما بعد : فإن القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلى إليك ؛ فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له .

آس بين الناس فى وجهك ، وعدلك ، ومجلسك ، حتى لا يطمع شريفه فى حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك .

البيِّنة على من ادعى ، واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالا .

لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك . وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق ؛ فإن الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل .

الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة .

ثم اعرف الأشباه والأمثال ؛ فقس الأمور عند ذلك ، واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق .

واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أو بينة أمدا ينتهى إليه ؛ فإن أحضر بينته أخذت له بحقه ، و إلا استحللت عليه القضية ، فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى .

المسلمون عدل بعضهم على بعض إلا مجلوداً فى حد أو مجرباً عليه شهادة زور ، أو ظنيناً فى ولاء أو نسب ، فإن الله تولى منكم السرائر ، ودرأ بالبينات والأيمان .

و إياك والقلق والضجر[1] ، والتأذى بالخصوم ، والتنكر عند الخصومات فإن الحق فى مواطن الحق يعظم الله به الأجر ، و يحسن به الذخر ، فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه و بين الناس ، ومن تخلق للناس بما يعلم الله

---

(١) القلق والضجر : ضيق الصدر وقلة الصبر .

أنه ليس من نفسه شانه الله ، فما ظنك بثواب غير الله عز وجل فى عاجل رزقه وخزائن رحمته . والسلام .

* * *

بدأت الثقافة الذاتية للإسلام نقية لا كدر فيهـا ، وظلت أمداً طويلا وهى تخط للمسلمين طريقهم ، وتحدد وجهتهم وتمدهم بالوقود الذى يدفع قافلتهم إلى الأمام .

وقد شابها فى الأعصار الأولى شىء من الغبار الذى قد يكسو الوجـوه الـكادحة ولـكنه لا يغير ملامحها ولا تعسر إزالته .

وهـذا القدْر من الغبار الطفيف دافعه العلماء ومنعوا أذاه عن الأفئدة والأفـكار ...

إلا أن هذه الثقافة فى القرون المتأخرة داخلتها أغيار شتى ، وانتشرت تحت عنوانها ترهات وظنون واهية الصلة بالإسلام أو غريبة عنه .

ولولا أن أساس الإسلام محفوظ بعناية السماء لانقطعت حبال المسلمين بدينهم وشردوا عنه بعيداً .

إن هذه الثقافة تبدو صافية كماء المزن كلما اقتربت من ينابيعها الأولى فى الـكتاب والسنة .

وتعتكر وتربدّ كلما اختلطت بأهواء ذوى الأهواء، أو بما أدخلته الغفلة علينا من إسرائيليات ونصرانيات وإغريقيات .

والفقهاء فى الـكتاب والسنة جازمون بأن تركة العلوم الشرعية التى آلت

إلينا مثقلة بانحرافات واضطرابات شتى ، وأنها بحاجة ماسة إلى غربلة شاملة تنقيها من الدخيل الضار ـ وما أكثره ـ وتردها إلى أوضاعها الأصيلة كيما تخدم الحق وتنفع الناس ..

فى علم العقيدة ـ الموسوم بعلم الكلام ـ مباحث سخيفة خلقها الفراغ ، والسماح لفلسفة يونان أن تقتحم بأوضارها محاريب الفكر الإسلامى .

ويجب بتر هذه الإضافات ، ورجع العلم المظلوم إلى مادته الأولى ، يصور جوهر الإيمان ، وينير القلوب بكهربائه .

ونستطيع القول بأن أكثر الكتب المؤلفة فى هذا العلم لا تصلح لا لعصرها ولا لعصرنا .

وفى علم الفقه متون وشروح وحواش أغلبها من إنتاج المتأخرين ، وهى رديئة العرض سقيمة الأسلوب .

وحقائق العبادات والمعاملات مبعثرة فيها بعثرة مزعجة ، فضلا عن أن المنحى المذهبى جعل كل طائفة منها تمثل جانباً من الفكر القانونى لا يغنى عن الجوانب الأخرى .

وفى كتب السيرة والتاريخ حشد هائل من المرويات التى لا تثبت على التمحيص ، ومع أن جهابذة النقاد زيفوا كثيراً من تلك النقول المريبة ، فإنها بقيت فى مكانها دون أن تحذف وتوارى فى الثرى .

وقد هاج المسلمون فى الهند على كتاب تناول الرسول بأسلوب لا يليق ، وعندما قرأت الفقرات التى أغضبت المسلمين هناك ، وجدت جرثومتها من بعض

كتب السيرة التى لا تبالى بإثبات الهزيل والعليل ، بل الباطل المرفوض من الأخبار .

وفى كتب التفسير ـ خصوصاً ما تتداوله العامة كتفسير الخازن ـ هراء كثير وهذا الكتاب لا يصلح للقراءة إلا بعد حذف صفحات منه .

ومنهج التفسير نفسه ينبغى أن يراجع .

وهناك كتب السنة التى لابد من إعادة تبويبها ، وتهذيب سياقاتها حتى يتسنى للجمهور أن يستفيد من حكم النبوة المسجلة فيها .

* * *

إن الثقافة الإسلامية الآن ، وبعد القرون الميتة التى اجتزناها أخيراً يجب أن يعاد النظر فيها طولا وعرضاً ، لأنها للأسف لا تيسر حقائق الإسلام كما أتت من عند الله .

وليست هناك قداسة لإنتاج أحد من الخلق ، إنما القداسة للوحى الأعلى وحده

وفى مقدورنا على ضوء كتاب ربنا وسنة نبينا أن نربط الأجيال الحديثة بالإسلام عن طريق كتب تستقى من النبع الأول ، وتتحامى تخليط المخلطين ، وتنتفع بجهود ذوى البصائر من الأولين والمحدثين .

ولو أن إدارات الثقافة فى الجامع الأزهر وسائر الهيئات المشتغلة بخدمة الإسلام توفرت على هذا الصنيع لأحسنت كل الإحسان !

وقد بذلتُ جهداً قليلا فى هذا المجال .

ولا يزال الجهد الأكبر ينتظر أهله .

ثم إن الشعور يخامر الكثيرين بضرورة إصلاح الثقافة الإسلامية ودعم الجامع الأزهر الذى يقوم على رعايتها .

وفى ذلك يقول الأستاذ الزيات :

« إن من محن الإسلام حين ضعف أهله وزال سلطانه أن امتزجت به كل نحلة ، وسرت إليه كل علة ، وتراءت فيه كل حالة .

فكل امرىء واجد فيه ما يلائم استعداده ، ويناسب فهمه .

فالثورة الدينية بالمعنى الذى ذكرته ، هى تحرير العقل من الاقتداء العاجز ، والمتابعة المسلمة ؛ وتطهير السنة من الأحاديث المكذوبة ، والأقوال المشوبة ، وتطوير الفقه فى حدود ما أنزل الله ، وبلغ الرسول ، ليطابق مقتضيات العصر ، ويجابه مشكلات الحضارة ، ثم عرض هذا الإسلام الصادق الصافى على الناس فى معرض واضح ، ومظهر جاذب ، ومنهج قويم .

ذلك ما يجب أن يدخل فى تخطيط الجمهورية للسنين العشر القادمة .

فإن النص فى الدستور على أن الإسلام دين الدولة لا يحقق معناه إلا إذا كان للدين الأثر الفعال فى التربية والتعليم والتشريع والسلوك .

والأزهر بفضل مامكن الله له فى التاريخ ، وهيأ له من الموضع ، وأتاح له من الكفاية ، أقدر ورّاث النبوة على تبليغ الرسالة العظمى ، وتوجيه الأمة الكبرى إذا تسنى له أن يؤدى رسالته على المرسوم الذى رسمته الثورة ، وبالمفهوم الذى أعلنه المؤتمر العام للاتحاد القومى ، إذ قال .

« يعلن المؤتمر – إيماناً بالدور الخطير الذى يؤديه الأزهر الشريف فى معركتنا المقدسة دفاعا عن عروبتنا ، وقيمنا الروحية – تمسكه بضرورة العمل على دعم هذا المعهد الإسلامى الجليل ، حتى يستمر منارة ترسل أشعتها العلمية والروحية إلى أرجاء العالم .

وتمكيناً له من مسايرة تطورنا المعاصر .

يوصى المؤتمر بضرورة العمل على أن تؤمن للأزهر الوسائل ليكون أداة صالحة لخدمة أهدافنا الروحية والقومية من تحرير الوطن العربى ، وتحقيق وحدته الشاملة فى إطار مفهومات القومية الحقيقية » .

أما رسالة الأزهر فجماعها حفظ التراث الإسلامى ، وتنقيته من العقائد الواغلة والمذاهب الباطلة ، والبدع الضارة ؛ ثم نشره على العالم عن طريق التعليم والتأليف والترجمة والدعوة .

وسبيله إلى ذلك – فيما أرى – أن يمكن من جمع هذا التراث المتفرق المشوش فى ثلاثة أسفار :

سفر فى التفسير : تشرح فيه الآيات الكريمة على ضوء الرواية ، والعلم الثابت ، ويجمع بين ما صح من أقوال السلف ، وما صلح من آراء الخلف .

وسفر فى الحديث : يدون به مالا ريب فيه من الكتب الصحاح ، ويستعان على شرحه بعلوم التاريخ ، والاجتماع ، والأخلاق ، والفلسفة .

وسفر فى الفقه : يشمل ما تواتر من الأحكام ، وصح من المذاهب ، وسلم من الآراء ؛ ثم يوضع متنه مواد ، كالقانون ويشرح شرحاً فنياً يستوعب أصوله ويستقصى فروعه فى غير حشو ، ولا استطراد ، ولا تعمية .

هذه الأسفار الثلاثة ستكون مادة الدراسة ، ومرجع القضاء ، ومصدر الفتوى ، ثم يجرد منها مختصرات تدرس فى المدارس ، وتنشر فى الجمهورية ، وتترجم مع المطولات إلى أكثر لغات الشرق ، وأشهر لغات الغرب ؛ ثم ترسل إلى كل بلد يعرف الإسلام ، أو يريد أن يعرفه .

أما ماعدا ذلك ؛ فما كان صحيحاً بقى فى المكتبات ليرجع إليه المتخصص والمؤرخ ، وما كان زائفاً صنع به ما صنع عثمان فى كل مصحف غير مصحفه ؛ فإن الإبقاء على الزيف من الأحاديث والآراء لَبْسٌ للحق بالباطل ، وطمس للنور بالظلام ، وتعمية للطريق على السالك .

أذكر أن أحد الأساتذة الكبار عليه رحمة الله ، قدم رسالة بالفرنسية إلى « السربون » عن « حال المرأة فى الإسلام » نال فيها من خلق الرسول وشرعه وسلوكه ، فلما أنكر عليه من أنكر استدل على كل ما أدعى بأحاديث مروية فى « طبقات ابن سعد » ، وفى « الشفاء » للقاضى عياض .

ولما ردوا حجته بأن هذه أحاديث موضوعة ، قال :

وما يدرينى أنها موضوعة ، والكتب التى نقلت عنها معتمدة متداولة ؟

وأشباه هذا الأستاذ ممن ضللتهم النقول ، وخدعتهم الكتب يخرجون على الناس كل حين بالرأى المجازف ، أو الكتاب المخالف ، ثم لا ينبههم نقاد الحديث إلى أن مانقلوه منحول ، أو مدخول إلا بعد أن يكون الرأى قد سار والكتاب قد نشر .

فلو أن هذه الأحاديث المفتراة لم تكن منشورة على العيون يقرأها من لا يميز

بين ما اتصل منها ، وما انقطع لما طارت الشبه والظنون حول العقيدة .

فالثورة الرابعة غرض من أغراض الثورة ، وضرورة من ضرورات الإصلاح ، وطبيعة من طبائع الدين ، ووجيبة من وجائب الأزهر ، فإذا شبت مع الثورات الأخرى فكسحت الغثاء ، ونفت الخبث ، وطهرت شريعة الله من سموم البدع ، ونقتها من شوائب الفرق والشيع ، فوردها الناس صافية كفطرة الله ، كانت جديرة بأن تبنى للعرب المجتمع المثالى الذى يسير على صراط الله بقيادة الحق ، ورعاية العلم ، ورقابة الضمير ، فلا تجد فيه ، متى اكتمل بناؤه ، المخازى التى تقترف فى الدواوين ، ولا المآسى التى تمثل فى البيوت ، ولا المهازل التى تشاهد فى الطرق ، ولا المساوىء التى تحدث فى التعامل .

ويومئذ يغتبط المصلحون بفتح الثورة ، ويعتز المواطنون بعز الوطن ، ويفرح المؤمنون بنصر الله .

* * *

فضل العرب على علوم الحياة :

سألنى سائل :

أَكُتِبَ على الشرق التأخر والخمول ، وأن يحيا أبداً كسير النفس ، ذليل الجانب ، وكتب للغرب التفوق ، والظهور ، وأن يحيا أبداً عزيز الجانب ، أيِّد النفس ؟

قلت : من كتب هذا . . ؟

إن الدروس التى تلقيتموها ، والدعايات التى سحرتـكم هى التى روجت لهذه الأكذوبة بينـكم ـ فظننتم أن الأحوال المعاصرة هى امتداد ما مضى من تاريخ الأمم وسوف تبقى ضربة لازب ؛ كأنها تقسيمات طبيعية لا فـكاك منها .

وكأن تقدم الغرب ، وتأخر الشرق أشبه بما انقسم إليه سطح الـكرة الأرضية ، فهذه مناطق حارة أبداً ، وهذه مناطق باردة أبداً . .

ومعنى هذا أننا نحن المسلمين فى الشرق كنا وسنبقى متخلفين ، وأن هؤلاء الصليبيين فى الغرب كانوا ومازالوا متقدمين . .

إن هذه ياصاحبى أكذوبة بالغة الحقارة .

والحق الذى يعيه التاريخ أن أهل الغرب حديثو عهد بهذه النهضة ، فهى بينهم ظاهرة طرأت على أحوالهم ، لم يألفوها من قبل .

وأن كبوة الحظوظ فى ديارنا أمر موقوت ، ما كان من خلائقنا ، ولا تشبث له بأرضنا . .

ودعوى الغرب أنه ورث الحضارة كابرا عن كابر . دعوى فيها من الإفك بقدر ما فيها من الجحود .

إنه عندما ينكر أننا معلموه ، وأنه عنا تلقى أصول نهضته العلمية الحاضرة يرتكب آثاما لا تستغرب منه ، فكم للقوم من آثام ؟

إذا قالت اليابان ـ ونهضتها الحاضرة بنت ستين سنة ـ إنها ورثت هذه الحضارة من جزائرها ، لا من جيرانها الأقربين أو الأبعدين ، فهى تأفك لأنها لم تتلق عن الأجداد شيئاً ، وإنما تعلمت من غيرها ما تقدمت به فى يومها هذا . .

وليس لليابانيين القدماء مجد يُتَغَنَّى به ، ولا تاريخ يشرف أصحابه .

وإذا قالت أوربا إن عظمتها الحاضرة أثر أسلافها الصالحين ، فهى توغل فى الزور ، فتاريخ أوربا القديم صفر ، وتاريخها الوسيط هو الخرافة والبلادة ، والتعصب والضغينة .

والواقع أن عصر النهضة الذى اهتزت به أوربا لم يخلص لها إلا بعد أن انسلخت من ماضيها ، كما ينسلخ الثعبان من إهابه .

قد تقول :

وتراث يونان الفلسفى ؟ كيف نسيته ؟

والجواب ما نسيناه ، ولكن من العبث أن ننسب إليه النهوض الغربى الحاضر .

إن منطق أرسطو ـ وهو أدق أفكار اليونان ـ ما كان ولا يكون أساساً للمدنية الحديثة .

إن المدنية الحديثة نهضت على منطق الملاحظة والتجربة والاستقراء .

وصرحها العلمى قام على هذه الدعائم . وهى دعائم لم تعرف إلا من منطق القرآن الكريم ، ومن إشراقات الحضارة العربية التى انبعثت فيه .

ولولا القرآن ، ومابعثه من حياة فكرية نضَّرت العقل الإنسانى ، ومهدت أمامه السبل ماعرف عصر النهضة ، ولا نضجت على أوربا فيوض اليقظة الإسلامية التى غيرت حياتها ، وبددت سباتها .

* * *

إن أوربا التى تستقبل اليوم العام الحادى والستين بعد تسعة عشر قرناً لميلاد السيد المسيح ، سلخت من هذا العمر المديد ستة عشر قرناً وأهلها ـ على حد ماوصف القرآن بعض الناس ـ « لايَـكادُونَ يفقهون قَولاً[1] »

على حين كان أسلافنا مبرزين فى علوم الدين والدنيا ، وفى شئون الحياة العامة على الإجمال .

وقد اقتبس الأوربيون من حياتنا وعلومنا وفنوننا مادعموا به كيانهم ولموا به شعثهم .

ونحن هنا إنما نذكر شيئاً يسيرا يكشف عن هذه الحقيقة .

* * *

إن الإسلام غير أسلوب التفكير الإنسانى ، ونقله من مجرى ينتهى إلى الظنون والأوهام إلى مجرى آخر ينتهى إلى الحق واليقين .

ربط القرآن الكريم بين العقل وأدواته من سمع وبصر ، وبين مشاهد الكون المادى ، وجعل مسرح التأمل والاستنباط فى صحائف الحياة المحسوسة ، ورفض ضروب التخمين التى كان يسبح فيها المنطق النظرى القديم .

كان التفكير القديم أشبه بهيمان الشعراء فى أودية الخيال ، وكان الجهد فيه مضنياً ، وقليل الجدوى ، وبعيداً عن الصواب .

يغلق فيلسوف بابه على نفسه ويرسل أفكاره داخل حجرته تسبح فى محيط لانهاية له ، ويعود ببعض المبادىء والمناهج التى يظنها شيئاً طائلا ، وهى فى ميزان

---

(١) سورة الكهف آية : ٩٣

الحق هباء لأنها مقطوعة العلاقة بهذا الكون الذى نعيش فيه .

والتأمل الذاتى يغلب عليه أن يفرض المرء أفكاره الخاصة على ماحوله ، فهو لا يتعلم من الكون حقائق كان يجهلها بل يصبغ الكون بالآراء التى يتخيلها ، وأغلبها حدس نابع من توهم صاحبه .

لكن القرآن الكريم جرّ هذا المنطق الإنسانى النظرى إلى عالم الواقع ، وجعله وجهاً لوجه بإزاء آفاق الأرض والسماء ، وقال له : هنا فكر ، ومن هنا استنبط .

« إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتى تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ ماءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ المسخرِ بَيْنَ السَّماءِ والْأَرْضِ لآيَاتٍ لقومٍ يَعْقِلُونَ[1] »

والمنطق الإسلامى يتطلب من البشر أمرين .

أولها : أن يتدبروا ملكوت السماوات والأرض ، ويستكنهوا خواص الأشياء ، ويتعرفوا من فقه هذا الكون عظمة القائم على علوه وسفله ، وعرشه وفرشه .

والآخر : أن يسيحوا فى هذا الملكوت، ويستكشفوا المجهول منه ، وينقبوا فى البلاد ، ويكونوا من هذا الانطلاق عقلا واعياً يحسن الإدراك والحكم ، فإن الاحتباس فى مكان واحد قصور فى التصور والتصوير » .

---

(١) صورة البقرة آية : ١٦٤ .

« أفلَمْ يَسِيرُوا فى الأرْضِ فتَكُونَ لهُمْ قلوُبٌ يعْقِلون بِهَا أَوْ آذان يَسْمَعُونَ بِهَا فإنّهَا لاَ تعْمَى الْأبْصَارُ وَلَكِنْ تعْمَى الْقُلُوبُ التى فى الصُّدُور (٢) »

وقد أفلح هذا المنطق الإسلامى فى شق طريق الحياة أمام أمة عاشت على هامش الحياة دهراً طويلا ، واستطاعت هذه الأمة العربية أن تمسك أزمة العالم المادية والأدبية قرابة ألف سنة .

ونحن نعرف أن أمتنا أدركتها فترة عصيبة من الانهيار الشنيع بعد هذه المدة الطويلة ، ولكن هل معنى ذلك أن يجحد التاريخ وينسى الماضى ..؟

علام اعتمدت « أوربا » فى يقظتها ؟

أعلى المنطق النظرى القديم ، وما حوى من تخمينات وأحداث ؟

أم على منطق التأمل فى الكون ، والاستفادة منه ، واستكشاف مجاهيله وهو منطق القرآن الكريم ؟

إن قادة الفكر الغربى الحديث أعلنوا كفرهم بالفلسفات النظرية الأولى ، ونادوا بصوت جهير أن العودة إلى أحضان الطبيعة ، والتأمل فى مجالات الكون أولى بهم .

فعن من ترددت هذه الصيحة ؟ عن العرب والمسلمين وحدهم ؟

يقول الدكتور الأهوانى :

« وقد رسخ فى الأوهام من قديم الزمان ، ومنذ قامت الفلسفة اليونانية

---

(١) الحج آية : ٤٦ .

وامتدت إلى العصر الوسيط ونفذت إلى العصر الحاضر ، أن الفكرة أسمى من العمل ، وأن عالم الأفكار يمتاز بالثبات والدوام ، وأنه هو عالم الحقيقة بالذات . أى أن للأفكار وجوداً مستقلا فى عالم أسمى ، هو عالم العقل والمعقولات ، وعلى الإنسان أن يسعى إلى معرفة هذه الأفكار الموجودة وجوداً أزلياً باتباع مناهج القياس والبرهان . حتى إذا فتح العلم فتوحاته الجبارة فى علوم الفلك والطبيعة والكيمياء والحياة ، واتبع فى ذلك منهج البحث القائم على المشاهدة والتجربة ، والنظر إلى الوقائع كما هى عليه فى الوجود ، وكما هى عليه فى هذا العالم المتغير .

تنبه الإنسان إلى أن الحقائق ينبغى أن تلتمس من عالم الواقع لا من عالم أسمى من الواقع .

و إلى أن الأفكار العلمية تعتمد على الحس والتجربة ، وتستمد وجودها من تيار البيئة الحية .

وأنها لهذا السبب لا تمتاز بالثبات كما كان يعتقد المفكرون من قديم الزمان

ثم أخذت المناهج العلمية المطبقة على الفلك والطبيعة والكيمياء والحياة تغزو ذلك الجانب الذى كان يظن أنه مغاير فى طبيعته للعلوم الطبيعية .

ونعنى به عالم الإنسان ، وما يمتاز به من سلوك اجتماعى ، واقتصادى ، وسياسى ، وأخلاقى ودينى .

وبدأت علوم النفس ، والاجتماع ، والاقتصاد ، والسياسة ، والأخلاق بل الدين ، تخضع للمناهج العلمية المضبوطة ؛ وأصبحت هذه المجموعة من العلوم التى تسمى علوماً إنسانية خاضعة للتفكير العلمى الحديث ، فنزلت عن عالمها العلوى إلى هذا العالم الذى نعيش فيه »

إن أثر العرب فى تحويل مجرى الفكر الإنسانى إلى وجهته الجديدة لا يمكن إنكاره .

وفضل العرب على أوربا فى نقلها من ظلمتها الأولى إلى نهضتها الحديثة ثابت مهما مارى فى ذلك الحانقون .

وإذا كان هناك من عيب كدَّر صفو الحضارة الإسلامية ، فهو سماحها للفكر اليونانى أن يأخذ من اهتمامها قدراً لا يستحقه .

على أن الأوربيين أنفسهم لم يعرفوا تراث « يونان » مهذباً مخدوماً إلا عن طريقنا نحن العرب .

أما أسلافهم فكان التفكير الفلسفى محظورا عليهم ، بل كان احترام العقل وإكبار مقاييسه منكراً بينهم .

* * *

وقد انهارت الأمة الإسلامية الكبيرة قبل أن تصل مع منطق الفكر الإسلامى إلى نهاية الطريق ، فتسخر قوى الكون ، وتستكشف المجهول من جوانبه ، وسندرس أسباب ذلك الإنهيار المحزن بعد قليل .

ونحن نعرف أن « ألمانيا » انهارت عسكريا قبل أن تفجر القنبلة الذرية ، وأن « الأمريكان والروس » سبقوها إلى ذلك التفجير .

لكن هل من المستطاع إنكار فضل العلماء « الألمان » والبحوث الألمانية فى ذلك الميدان ؟

إن علم هؤلاء الرجال المهزومين كان حجر الأساس فيما بلغه « الأمريكان

والروس » وقد كان العلم الاسلامى إبان ازدهاره هو السبب الأول والأخير فى انهاض الغرب ، وتحريك ملكاته الخامدة .

فهل الانهزام البعيد المدى الذى أصابنا يمحو فضلنا محواً ، و يجعلنا غرباء فى ميدان المعرفة والثقافة ؟ .

إن الدعاية المكذوب تريد إفهامنا ذلك .

والاستعمار الحقود يبغى أن ينشأ مسلمو هذا العصر وهم فاهمون أن كفتهم طائشة من الأزل إلى الأبد ، وأن العرب جنس تافه ، ماقدم للإنسانية خيراً منذ وجد إلى الآن ، و بالتالى لن يقدم للإنسانية خيراً أى أنه لايستحق الحياة .

كتب الأستاذ العقاد رسالة عظيمة فى فضل الثقافة العربية وسبقها على ثقافة اليهود ، واليونان جميعاً ، وألقى فيضاً من الأشعة على هذه الحقيقة التى تتضافر القوى المضللة على نكرانها . وقال :

فيحق العجب ممن يجهل هذه الحقيقة التاريخية المسجلة بالكتابة منذ ألوف السنين ، بل بالحروف التى سبقت الكتابة والكتاب .

إلا أن الأشاعة الموهومة كثيرا ماتطغى على الحقيقة المسجلة ، ولاسيما الاشاعة التى تحتمى بالصولة الحاضرة وتملأ الآفاق بالشهرة المترددة .

وقد أشاع الأوربيون فى عصر ثقافتهم وسلطانهم أن أسلافهم اليونان سبقوا الأمم إلى العلم والحكمة .

واختلط على الأوربيين كما اختلط على غيرهم قدم « التوراة » بالنسبة إلى « الإنجيل » و « القرآن » ، وقدم « الإسرائيليين » بالنسبة إلى « المسيحيين » و « المسلمين » .

فتوهموا أن « العبرانيين » سبقوا العرب إلى الدين والثقافة الدينية ، وكتابهم نفسه صريح فى حداثة إسرائيل وحداثة « إبراهيم » من قبله بالنسبة إلى أبناء البلاد العربية .

وليس أعجب من الجهل بالحقيقة التى تظهر هذا الظهور .

ليس أعجب من هذا الجهل إلا أن تكون الأوهام المشاعة بهذه القوة عند أقوى الأمم وعند أشهرها بالعلم والثقافة .

فلو لم يكن فى الصفحات التالية إلا أنها تكشف هذه الأعجوبة فى ناحية من نواحيها لكان ذلك حسبها من سبب يوجب علينا كتابة هذه الرسالة .

فهى تفصيل لما فى هذه الأسطر القليلة من إجمال ، وأيسر تفصيل كاف فى مجال كهذا المجال .

ثم يقول بعد شرح لابد من الاطلاع عليه :

ولعلنا فى نهاية هذا المطاف قد اتضح لنا المقصد الذى توخيناه وأجملنا بيانه فى كلمة التمهيد لهذه الرسالة .

فهو تصحيح الأوهام الشائعة بين الغربيين عن تخلف الأمة العربية فى ميادين الثقافة ، والحكم عليها أبدا، وفى جميع الأحوال، بأنها تبع مسبوق يقتدى باليونان فى ثقافة الفكر ، و بالعبريين فى ثقافة العقيدة ؛ وليس للأمة العربية سابقة من سوابق الفضل يدين لها أولئك اليونان وأولئك العبريون .

وقد لج الأوربيون فى هذه الدعوى لجاجة بغيضة تتكشف عن سوء نية ، ويبدو عليها كأنها تتعسف فى البحث عن أسباب التجنى والإنكار فتخلقها

خلقا وتحيد عن الطريق السوى حيدا ، لـكى تنتهى من ذلك إلى قدح فى الطبيعة العربية ، وتمجيد لطبيعة من طبائع الأمم سواها ، حيثما تـكون .

فقد يترخصون أحياناً فى نسبة الفضل القومى أو العنصرى إلى سلالة هندية ؛ لأن الأوربيين يدخلون فى الجامعة الهندية الجرمانية ، إذا دعت الضرورة .

وقد يترخصون فى نسبة الفضل القومى أو العنصرى إلى سلالة صفراء أو طورانية ؛ لأنهم قد يعادونها اليوم ولـكنهم لم يرثوا من أجدادهم عداوة لها من عصبيات القرون الوسطى .

وقد يترخصون فى نسبة الفضل القومى أو العنصرى إلى العبريين ولو كان المترخصون ممن يعادى اليهود فى المنافسات الاقتصادية أو العملية ، لأنهم لا يعدمون بينهم و بين هؤلاء اليهود صلة قديمة حين كانوا يوماً من الأيام شعب التوراة ! .

أما الأمة العربية فلا رخصة معها من هذه الرخص التى يصطنعها أعداؤها المتعصبون عليها ، بل تختفى كلها و يحل محلها عداء الميراث التاريخى ، وعداء الاستعمار ، وعداء الجهل ، وعداء الأنانية التى تغرى الجماعات أحياناً بالتحزب والأثرة ، كما تغرى الآحاد من الناس . فليس أيسر من تصديقهم لـكل فرية تفترى عليها ، وليس أسرع من إنكارهم لـكل محمدة أو سابقة من سوابق الفضل تنسب إليها .

هذه اللجاجة البغيضة هى التى نريد أن نقضى عليها ونقضى على آثارها فى أذهان المتأثرين بها من صرعى المذاهب الأجنبية بيننا نحن الشرقيين ، وهم ــ للأسف الشديد ــ غير قليلين .

ولكننا لا نريد أن نقضى عليها ونضع فى مكان الخطأ المنكر خطأ آخر من قبيله .

لا نريد أن نمحو فضلا لصاحب فضل ، ولا أن نبخس حقاً لصاحب حق ، ولا أن نبطل احتكار المزايا الإنسانية على أناس لكى ننقل هذا الاحتكار إلى أناس آخرين .

كل ما نريده أن ندفع شبهات القصور الأبدى المفترى على أمة عريقة حية ، كان لها فضلها العميم على الإنسانية ، ويرجى أن يكون لها فضل مثله أو يفوقه على أجيالها المقبلة ، وهى فى مقامها الأوسط بين القارات، وبين العقائد والثقافات .

ولقد كان نصيب الأمة العربية من تلك الشبهات « نصيب الأسد » إن صح هذا التعبير ، فأصابها منها أكبر نصيب تصاب به الأمم ، منذ أيام الشعوبية إلى أيام الاستعمار والتبشير والآرية والشيوعية ! .

كان يقال عن العرب ! إنهم بعثوا بالدين ولم يبعثوا بالدنيا .

وكان يقال : إنهم لا يصلحون فى دولتهم وفى غير دولتهم إلا محكومين .

وقالوا : إن العرب لا يحسنون من أعمال المعاش غير ما تعودوه فى البادية من رعى الإبل والماشية ، ولولا ذلك لما غلبهم طراق بلادهم من الغرباء على أسباب المعيشة .

وكل أولئك الدعاوى الكبار أضعف من أن يثبت على النظر المتأمل لحظات ، فضلا عن الثبات فى مجرى التاريخ .

فمن هم أصحاب الدولة الذين داموا فى مستعمراتهم أطول من دوام العرب ؟ أو تركوا بعدهم أثراً أبقى على الزمن من آثارهم ؟

أهم الرومان سادة الاستعمار القديم ؟ أم هم البريطان سادة الاستعمار الحديث ؟

إن الرومان خرجوا من كل وطن دخلوه ، ولم يستطيعوا أن ينشروا دياناتهم فى أمة حكموها ، بل كانوا هم الذين انقادوا آخر الأمر لديانة المحكومين .

أما الإنجليز فقد خرجوا من الولايات الأمريكية بعد أن سكنها منهم معظم المهاجرين إليها .

وقد خرجوا من الهند بعد أن استقروا فى كل بقعة من بقاعها أكثر من قرنين ، ولم يمكث سادة الاستعمار القديم ولا سادة الاستعمار الحديث فى مستعمراتهم كما مكث العرب فى الأندلس .

والإنجليز ما تركوا من آثار الحضارة والثقافة أثراً يقارب الأثر الذى أبقاه العرب فى الأندلس وفى القارة الأوربية على الإجمال ، ومنه أثرهم فى عصر النهضة وعصر الإصلاح .

وقصور الحمراء والزهراء وما يماثلهما من القصور التى ما قامت فى الشرق على نماذج الفن البيزنطى جواب ماثل للعيان لمن ينكر على الذوق العربى فناً جميلا غير فن القصيد .

فكل هذه القصور مميزة بذوقها العربى على القلاع القوطية والأواوين الفارسية والعمائر الرومانية أو اليونانية ، منذ نشأتها الأولى إلى قيام الدعوة الإسلامية .

وطابع الذوق العربى هو طابع النخلة العربية بقامتها الهيفاء ، وفروعها التى تتلاقى فى عقود المربعات كما تتلاقى الأركان والأعمدة فى هندسة البناء ، حيثما

طبعته بطابعها على الرغم من قيام البنائين أو المهندسين عليها من أبناء الأمم الأخرى .

وليس أبعد من البعد بين البحر والصحراء .

ولكن العرب ركبوا البحر فقبضوا بأيديهم على زمام الملاحة بين الهند وفارس وسواحل أفريقية الشرقية .

فسمى البحر كله باسم بحر العرب .

وسمى الشاطىء الشرقى من سواحل أفريقية باسم السواحل حيث يتكلم الإفريقيون الآن باللغة السواحلية كما يسميها الأوربيون .

والتجارة من أسباب المعيشة ، فمن الذى بلغ بها ما بلغه العرب فى الهند وأندونيسية وأفريقية الوسطى ؟

إنها بلغت على أيديهم أن تكون فتحاً فى عالم الروح ، ولم تكن فتحاً فى عالم المال وكفى ، إذ أصبح فى تلك البقاع قرابة مائتين من الملايين من المسلمين لم يعرفوا دينهم من غير أولئك التجار الناجحين .

هذه الوقائع تصحيح بين لدعوى العصبيات الجنسية يرشد العقل البشرى إلى الصواب فى مسألة من أخطر المسائل العالمية ، ذات الأثر المتشعب إلى كل زاوية من زوايا العالم ، وكل علاقة من علاقات بنى الإنسان .

نعم . هى تصحيح للعقل البشرى يأتى فى أوانه وليس قصارى الأمر فيها أنها دفاع عن العرب أو تبرئة لهم من أقاويل دعاة العصبية المستعمرين والشعوبيين والمرددين لأصداء الغابر المهجور .

والرأى الجلى فى هذه الدعاوى العصبية إذن أنها من قبيل « الإشاعات » التى تروجها المصالح إلى حين» .

ويؤسفنا أن نصارح بأن التعصب المسيحى الذميم من وراء هذا الإنكار المستغرب لدور العرب فى بناء الحضارة الإنسانية ، ونصيبهم الضخم فى إعلاء شأنها.

وقد ألف العلامة « غوستاف لوبون » كتابا قيما عن حضارة العرب ، نوه فيه بما أسدوه للغرب من أياد لا يسوغ جحدها قال فيه :

« ولقد قال « بارتلمى سان هيلير » ـ وهو من العلماء المتدينين ـ فى كتابه فى القرآن :

تدمثت نفوس قساة الطباع من سادة القرون الوسطى ، بملابستهم العرب وتمازجهم بهم ؛ وعرف الفرسان بدون أن يفقدوا شيئاً من شجاعتهم شعوراً أرق وأشرف وأعرق فى الإنسانية من شعورهم . ومن المشكوك فيه أن تكون النصرانية وحدها ـ على ماحملت من المنافع ـ هى التى ألهمت فى روعهم ما ألقت ؛ . . . وبعد هذا النظر . ربما تساءل القارىء :

ولماذا غمط اليوم حق العرب وتأثيرهم ، وأنكر حسناتهم علماء عرفوا باستقلال أفكارهم ، وكانوا بحسب الظاهر بمعزل عن الأوهام الدينية ؟ .

وهذا السؤال قد سألته نفسى :

وأرى أن لاجواب عليه غير ما أنا كاتب ؛ ذلك أن استقلال آرائنا هو فى

الواقع صورى أكثر مما هو حقيقى ؛ ونحن لسنا أحراراً على ما نريد فى خوض بعض الموضوعات ، وهذا لأن فينا أحد رجلين :

الرجل الحديث الذى صاغته دروس التهذيب، وعملت البيئة الأدبية والمعنوية فى تنشئته .

والرجل القديم المجبول على الفكر بخميرة الأجداد ، و بروح لا يعرف قراره يتألف من ماض طويل ؛ وهذا الروح اللاشعورى هو وحده الذى ينطق فى معظم الرجال ، و يبدو فى أنفسهم بمظاهر مختلفة ، يؤيد فيهم المعتقدات التى اعتقدوها ، و يملى عليهم آراءهم ، وتظهر هـذه الآراء بالغة حداً عظيما من الحرية فى الظاهر فتحترم .

« لاجرم أن أشياع محمد كانوا خلال قرون طويلة من أخوف الأعـداء الذين عرفتهم أوربا ، فكانوا بتهديدهم الغرب بسلاحهم فى عهد «شارل مارتيل» ، وفى الحروب الصليبية ، و بعد استيلائهم على «الآستانة » يذلوننا بمدنيتهم السامية الساحقة ، و إلى أمس الدابر لم تنج من تأثيراتهم .

ولقد تراكمت الأوهام الموروثة المتسلطة علينا ، والنقمة على الإسلام وأشياعه عدة قرون ، حتى أصبحت جزءاً من نظامنا . وكانت هذه الأوهام طبيعة متأصلة فينا ، كالبغض الدوىِّ المستتر أبداً فى أعماق قلوب النصارى لليهود .

« و إذا أضفنا إلى أوهامنا الموروثة فى إنـكار فضل المسلمين . هـذا الوهم الموروث أيضاً النامى فى كل جيل ، بفعل تربيتنا المدرسية الممقوتة ، ودعوانا أن جميع العلوم والآداب الماضية أتيتنا من اليونان واللاتين فقط ، ندرك على أيسر

سبيل أن تأثير العرب البالغ فى تاريخ مدنية أوربا قد عم تجاهله .

ويرى بعض أرباب الأفكار أن من المذل على الدوام الذهاب إلى أن أوربا النصرانية ، مدينة لأعداء دينها بخروجها من ظلمة التوحش .

وهناك أمر يحمل فى مطاويه ذلا كثيراً فى الظاهر لايقبل تحمله إلا بشىء من العنت .

وذلك أنه كان للمدنية الإسلامية تأثير عظيم فى العالم ، وتم لها هذا التأثير بفضل العرب ، بل بصنع العناصر المختلفة التى دانت بالإسلام .

وبنفوذهم الأدبى هذبوا الشعوب البربرية التى قضت على الإمبراطورية الرومانية .

وبتأثيرهم فتحوا لأوربا عوالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية ، وهذا ما كانت تجهله ؛ وعلى ذلك كان العرب ممدنينا وأساتذتنا مدة ستمائة سنة .

وقال فى حاشية هذا الفصل :

إذا استحكمت الأوهام الموروثة وأوهام الثقافة فى رجل ، يعمى مع اتساع معارفه عن تفهم أسرار المسائل ، ثم ينطوى بعد ذلك على بغضين :

بغض الرجل القديم الذى أنشأه الماضى .

وبغض الرجل الحديث الذى هو ابن الملاحظة الشخصية ، ولا يلبث أن يأتى من التعبير بأفكار غريبة فى تناقضها .

ويجد القارىء مثالا من المتناقضات فى محاضرة فى الإسلام ألقاها فى جامعة

السر بون كاتب مبدع عالم ، « عنيت السيد رينان » حاول أن يثبت عجز العرب ، فنقض بيده كل مزاعمه !!! فقد ذكر مثلا .

أن ارتقاء العلم كان بفضل العرب خلال ستمائة سنة ، وأبان أن التعصب فى الإسلام لم يظهر كل الظهور إلا لما خلفت العرب عناصر منحطة كالبربر والترك ، ثم جاء يؤكد أن الإسلام طالما اضطهد العلم والفلسفة ، مدعياً أنه قضى على العقل فى الأقطار التى افتتحها !!!

ولكن باحثاً ذكياً « كالسيد رنان » لاينام على رأى مخالف لأصول التاريخ الظاهرة . فما إن تزول الأوهام فيه حيناً حتى يتجلى فيه العالم فيضطر إلى الاعتراف بفضل العرب فى القرون الوسطى ، وبما بلغته العلوم من الرقى فى أسبانيا مدة استظلالها بظل سلطانهم .

ومن الأسف أن الأوهام اللاشعورية تتغلب عليه حالا فيدعى على وجه أكيد أن علماء العرب ليسوا عرباً بأصولهم ، بل هم أخلاط من أهل سمرقند وقرطبة وإشبيلية الخ .

وبديهى أنه لايتيسر النزاع فى أصل الأعمال التى خرجت بفضل طرائق العرب ؛ ولعمرى هل من الميسور إنكار أعمال علماء الفرنسيس ؛ بحجة أن من تمت على أيديهم كانوا من عناصر مختلفة كالنورميين والسلتيين والإكتين وغيرهم ممن كونوا فرنسا بتمازجهم ؟ .

وقد يكتئب هذا المؤلف العالم أحياناً من الأسلوب الذى جرى عليه فى إساءته للعرب ؛ وينتهى الصراع بين الإنسان القديم والإنسان الحديث فى

نفسه إلى هـذه النتيجة التى لم تـكن متوقعة منه ؛ فيتأسف لـكونه لم يخلق مسلماً قائلا :

« وما دخلت مسجداً قط إلا عرانى خشوع يمـازجه أسف ، على أنى لم أكن مسلماً » . اهـ

أسباب انهيار الحضارة العربية :

عندما كانت أوربا ترمى أسمالها القديمة ، وترتدى ألواناً زاهية من البحث والمعرفة كانت الحضارة العربية ترتعش إعياء وتضطرب خطواتها هنا وهناك دون وعى ودون هدف .

والـكتابة فى العلل التى أصابت الأمة الإسلامية ، وأذوت حضارتها ، وجعلتها تنسحب من ميدان الحياة تاركة العمل فيه لحضارات أقوى ـ لاتغنى فيها صحائف موجزة ، إنها تفتقر إلى أسفار مبسوطة الأطراف .

وأظن أن نهضتنا الحاضرة لن توقَّى العوج وتُحمى المزالق إلا إذا استبانت مصاير الذين سبقوها ، وأسرار الانـكسارات التى أصابتهم .

ونحن فى هذه السطور نومىء إلى بعض عللنا التاريخية متوخين القصد تاركين الشواهد والتفاصيل لمقام آخر .

١ ـ أسباب عقلية :

(ا) فساد الثقافة الذاتية للمسلمين .

الزاد التقليدى من المعرفة ، الذى تنمو به الأمم كما تنمو الأجسام ، عراه

ما يشبه التسمم فأصبح تناوله يهزل ولا يسمن ويضر ولا ينفع .

كان المسلمون أول أمرهم يفهمون دينهم بسهولة وسرعة ، ثم يعملون به عملا وافياً دقيقاً .

وعلى مر القرون تحولت العلوم الدينية إلى صناعات عقلية كثيرة التقاسيم والتفاريع والاصطلاحات .

ثم بدأت تفقد طابعها الأول رويداً رويداً حتى صارت الآن شيئاً معقداً ممجوجاً تغيب روح الإسلام عنه ، ويختلط فيه الدقيق والجليل .

أما العمل بهذا كله ، فقد أصبح فاتراً واهياً ، أو موصولا بالقشور دون اللباب .

وأغلب الكتب الدينية الآن يصرف القراء عن الفهم والاستيعاب ، ولا يقدم لهم الإسلام خلاصة واضحة مغرية .

ولابد من إعادة النظر فى علوم الإسلام ، وكتابتها من جديد أقرب إلى أسلوب القرآن والسنة وأبعد عن طبائع القرون التى مضت .

(ب) انتشار الخرافات والبدع والتخامين فى أرجاء الحياة الإسلامية .

وغريب أن الأمة التى نوه كتابها بالحق فى مئات المواضع ، عزت مصادر الحق فى جنباتها ، وأمسى الأفراد والجماعات يعيشون فيها وهم يعتنقون أفكاراً ويتبعون مذاهب لا أصل لها من دين ولا سناد لها من عقل .

ومعروف أن فى الأديان ناحية غيبية يستكين فيها المؤمنون لربهم ولما جاء من عنده .

وليس أخطر على الأديان وأتباعها من توسيع هذه الدائرة .

إن هذا الاتساع قد ينشأ بادىء ذى بدء من غلو المتعبدين ولـكن امتداده لا يتم إلا على حساب النشاط الإنسانى المحترم ، إذ تشيع فى ظله الشعوذة والأراجيف والأهواء على أنها طقوس دينية ، وهى مساخر ودجل .

ومن المؤسف أن الأمة الإسلامية كانت أوائل هذا القرن فى ليل دامس من البدع والخرافات التى ظنوا أنهم يعبدون بها الله وما يعبدون إلا الشيطان .

ولما كان الإسلام ديناً شاملا لأنواع السلوك الفردى والجماعى ، فإن دائرة الابتداع فيه مروِّعة ، وكان أصعب شىء على المصلحين ردَّ هؤلاء المسلمين إلى دينهم الصحيح ...

(حـ) ضعف إقبال المسلمين على شئون الحياة وعلومها ضعفاً شنيعاً ، وسدوا المنافذ التى يُطلون منها على آفاق الدنيا .

وزعموا التفوق فى الزراعات والتجارات والصناعات وسائر المهن والفنون نافلة لا يُحرَص عليها ، أو زعموا ذلك من فضول الدنيا التى لا ينبغى للأتقياء الاستكثار منها .

وكان هذا الجهل بالدنيا مضارعاً للجهل بحقائق الإيمان .

و بديهى أن يفضى بهم ذلك إلى المتالف ، وأن يفقدهم معاشهم ومعادهم معاً .

(د) شيوع التقليد و بلادة الذهن والجمود على الموروثات مهما كانت قيمتها . وهذه سيرة منكرة لأتباع دين يغالى بقيمة العقل الحر ، و يبنى الإيمان على أساس اجتهاد الفكر واتجاه الإرادة .

إن فريقاً من علماء المسلمين يرون إيمان المقلد لا وزن له ، و يقولون إذا كان

من عدل الله ألا يعاقب من لم يرتكب وزراً فمن عدله كذلك ألا يثيب من لم يصنع شيئاً !! يقصدون أن المقلد لم يكسب بجهده الفكرى أو النفسى ما يستحق عليه أجراً ..

ودين يرتفع بقيمة العقل إلى هذه القمة كيف يقبل الموتان الأدبى الذى ألفته جماعة المسلمين فى عصور الاضمحلال ، وما زال ينحدر بها من هاوية إلى أخرى حتى صحيت وهى تحت أقدام الغزاة المستعمرين ؟

والاستهانة بقدر العقل بلاء عم مصابه ، حتى إنك لتجد المسلمين فى بعض الأقطار أهلا لأن يقال لهم ما قيل فى الجاهلية الأولى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾[1] .

٢ — أسباب نفسية :

(ا) الغرور الدينى ، وهو داء عرفه اليهود والنصارى قبلنا ، يوم ادعوا أن لهم بالله صلة خاصة تجعله يحابيهم مهما اقترفوا .

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ . قُلْ : فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ﴾[1] .

وهذا السفه انتقل إلى المسلمين ، وزين لهم أن مجرد انتمائهم إلى الإسلام ، وانتسابهم إلى دعوة التوحيد ينزلهم عند الله مكانة لا تدانى ، ويغتفر لهم كل ما يسلفون من خطيئة وتفريط .

---

(١) المائدة آية . ١٠٤ .

(٢) المائدة آية : ١٨ .

واعتبار الدين عقيدة لا ترتبط بعمل ، أو لا تدفع إليه ، والاستهانة بمكانة العمل الصالح بعد ذلك سقوط لا ينجى من غوائله شىء .

وقد وجد فى المسلمين قديماً من يرى العمل نافلة ، أو يرجئه عن الإيمان ، ولكن هذا المذهب حورب من خاصة المسلمين وعامتهم حتى انقرض .

بيد أنه للأسف عاد للحياة مرة أخرى بين جماهير من العامة والخاصة !!

ويستحيل أن تحيا أمة أو تبقى حضارة بهذا التصوير السخيف للإيمان .

(ب) الاكتفاء فى أحوال كثيرة بصور العبادات ، والتعويل عيها فى تقويم الأفراد ، ورسم الدرجات .

وهذا خطأ ، فليس كل من يرتدى لباساً براقاً يكون نظيف البدن .

والإسلام يعتمد قبل كل شىء على سلامة القلب وصحة الضمير .

وكل طاعة تصدر عن قلب مغشوش فهى حابطة الأجر وإن راجت بين الناس فى الدنيا .

ونحن نلفت الأنظار إلى خطورة التدين الفاسد ، تدين الظواهر التى تخالف السرائر ، إما عن قصور فى تزكيتها ، أو هو الاكتفاء بالتشر الخادع عن اللب العليل ...

والأمم التى تقوم على الدين ينبغى أن تحذر هذا الاضطراب ، فإن الشهوات النفسية الذميمة هى هى سـواء أخذت صورة معصية فاجرة ، أم توارت وراء ركوع وسجود لا يصلان الفؤاد بالله .

وقد وجدت ـ فى تجاربى ـ أناساً من العامة والخاصة ، أعنى ممن يحسنون القراءة الدينية وممن لا يحسنونها يدورون حول أغراضهم الذاتية بوسائل شتى ،

بعضها عبادات و بعضها عادات ، فحركات الصلاة فى منطقهم لا تزيد عن خطوات المريب إلى حيث يشتهى ، وذاك سر نعى القرآن على أمثالهم .

﴿ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ﴾[1] .

والحضارات الدينية يُطعن عليها دائماً بمسالك هؤلاء الذين يسبحون الله بألسنتهم ولا يعرفونه فى أعمالهم وأحوالهم .

(ح) انفراط عقد الجماعة وانسياق كل امرىء فى سلوكه الخاص دون تقيد برسالة تُخدَم ، أو جماعة تُلزَم ، حتى ليخيل للإنسان أن هـذا الإسلام أصبح ديناً لا أصحاب له ، ولا أوصياء عليه .

فإذا كان ينطلق بنفسه فلينطلق ، و إلا فـكل مسلم معنىٌّ بشأنه وحسب . وهذه حالة لا تستمسك بها حضارة ، ولا تستوثق بها مدنية ، خصوصاً حضارة دين عام يجب أن تتساند القوى والمواهب والملـكات لخدمته ، و إنجاح دعوته ، و إعلاء رايته .

إن العامل الأول فى قيام الحضارات و بقائها ، وحدة الغاية والجماعة ، فإن الحضارات ليست صناعة فرد ، ولا جهد قوم مبعثرين .

(د) أفتك العلل التى أودت بالمسلمين وحضارتهم شـيوع فلسفة الجبر بين الجماهير ، ورواج كسلها واستسلامها وعجزها فى أنفسهم وصفوفهم بعنوان « القدر » .

والإيمان بالقدر واجب ، ولـكن ما هو القدر ؟

---

(١) البقرة آية : ٢١٣ .

أهو الزعم بأن الإنسان ريشة فى مهب الرياح لا قدرة له ولا إرادة ؟
وأن ما يلقاه فى الحياة لا دخل له فيه ، ولا كسب ولا اكتساب ، وإنما هو مكتوب لا مهرب منه ولا حيلة فيه ؟

هـكذا فهم المسلمون القدر فانحطت هممهم وماتت أنفسهم ، وشلهم العجز والقعود على حين ساح غيرهم فى البر والبحر كأنهم جنّ لا يقدر عليهم أحد .
والقدر بهذا التفسير أكذوبة ، وصدُّ الناس عن الإيمان به دين .
ولن تصح الأذهان ، ولا القلوب ، ولا تستقيم للناس معيشتهم ولا آخرتهم ما دام هذا الاعتقاد المجهول ساريا فى أوهامهم .
وقد ساعد التصوف على نشر خرافة الجبر أو القدر بهذه الدلالة العمياء .
كما ساعد على ذلك الجهلة من القُصّاص والمدرسين .
ومع أن المسلمين اضطرتهم الليالى القاسية إلى أن يصححوا أفهامهم فإن خطر الانتكاس فى هذه المأساة قائم ، مابقيت كتب الثقافة الدينية تعج بضروب من اللغو الذى يجر إلى القعود والإعياء .

٣ ـ أسباب اجتماعية :

(١) تدهورَ وضع المرأة خلال القرون الأخيرة تدهوراً تنكره تعاليم الإسلام.
وانتهى أمرها إلى أن أصبحت كائناً محصور النشاط فى نطاق المتعة الحيوانية والحضانة الغريزية .

وحرمت من فنون العلم وأسقطت عنها ـ تقريباً ـ أنواع العبادات من صلاة وحج وزكاة وجهاد أدبى أو مادى ، إلى عبادة واحدة هى خدمة بيتها ورجلها .

وهى عبادة كانت تؤديها الأداء الذى يستطيعه مخلوق جاهل ضرير .

ومن تكرار القول أن نؤكد بعد هذه الحالة عن الإسلام ، ومنافاتها لوظيفة المرأة كما تفهم من كتاب الله ومن سنة رسوله .

ونحن نرى الغيرة المتطرفة عند بعض الناس سر هذا العوج ، وهى غيرة ظهرت أعراضها على بعض الناس ولم يكترث لها الشارع .

ففى آيات الملاعنة تحدث عبادة بن الصامت أنه يقتل من يراه فى بيته يبغى السوء ، والله ورسوله أغير على العباد منه ، ومثل هذه النزعة الباطشة لم تغير الحكم الباقى أبد الدهر ، وهو الملاعنة عند وجود مقتضيها ، بالأسلوب الذى أثبته القرآن .

وقد كره ابنٌ « لعبد الله بن عمر » أن يخرج النساء إلى المساجد .

لكن « عبد الله » شتم ابنه لهذه الكراهية وقرر الحكم الشرعى دون اكتراث لعواطف الابن الكاره .

بيد أن الغيرة المجنونة مضت بأصحابها تراغم تعاليم الإسلام حتى نسب لرسول الله ـ كذباً ـ أنه قال :

« لاترى المرأة رجلا ولا يراها رجل » !

وسنت بعد ذلك قانون الحجاب الذى قضى على المرأة أن تنكمش وتتلاشى وتقضى حياتها ، وهى شىء أشبه بسقط المتاع .

وقد حدث رد فعل محزن لهذه المشكلة ونشأت نهضات نسائية أغلبها رجس من عمل الشيطان .

ولاتزال الحاجة ماسة إلى حركة نسائية مؤمنة عاقلة .

والغريب أنى قرأت ـ وأنا أكتب هذه السطور نبأ استقدام وزارة الصحة لفوج آخر من الراهبات الأجنبيات للقيام على رعاية مستشفياتنا الفقيرة إلى العطف والحنان !

وقد أخبرنى من أثق فى دينهم أن هؤلاء الراهبات يؤدين أعمالهن بمهارة وأدب عاليين .

أين من هؤلاء خليعات الحركات النسائية ؟

وأين من هؤلاء قعيدات البيوت للثرثرة والنوم ؟

(ب) وكما انحرفت أمتنا فى إحكام وظيفة المرأة ، انحرفت فى قضية الرق ، وأنا أعلم أن الرق احتضنته اليهودية والنصرانية ، ولم تصنعا له من الناحية النظرية شيئاً ، ومن الناحية العملية رزحت الألوف المؤلفة من العبيد تحت وطأة ذل هائل فى أوربا وأمريكا حتى القرن الماضى .

لكن الإسلام له موقف آخر كان ينبغى أن يستصحب فى علاج هذه المشكلة .

فإن نزعة الإسلام إلى التحرر والتحرير ، وعدم وجود نص للاسترقاق فيه مع وجود نصوص كثيرة بالإعتاق كان ينبغى أن يصفى المجتمع من مآسى العبيد ذكراناً كانوا أم إناثاً .

إن هناك نفوساً إماء بطبيعتها ، مهما رفعتَها اتضعت .

وهناك نفوس حرائر مهما وضعتها ارتفعت . وما يمكن إخلاء المجتمع من هؤلاء وأولئك .

وقد كان الرق ، وربما بقى عقوبة زاجرة لمن يحشُون قدرة شديدة تفقدهم

الاتزان فيحملون السلاح لفتنة الآخرين ، ولمنعهم من الاستمتاع بحرية العقل والضمير .

والرجل الذى يستكثر الحرية على غيره ، ويستخدم القوة فى حرمانه منها ، ربما كان جزاؤه أن يفقد هو حريته ، وأن يبقى حيناً من الدهر فى وضع يعلمه الأدب والعدالة .

والإسلام قَبِل وجود الرق أول الأمر لملابسات شتى منها ماذكرنا .

لكن هذا القبول الموقوت لايعنى التشريع الدائم لأسر من العبيد تتوارث الخدمة والهوان ، فيكون منها الخصيان وأشباه الحيوان . والعجب العاجب أن بعض البلاد الإسلامية لاتزال بها أسواق نخاسة !!

إن سرقة الأحرار خصومة متبجحة لله رب العالمين .

والتجارة فى هذه البضاعة البشرية من أنكر ماشهده تاريخ الأرض .

وقد عرف هذا الاختطاف على نحو واسع فى « الاستعمار » الغربى لإفريقية

أجل ، عرف على نحو جماعى منظم تقوم به الدولة الساطية ، ويباركه رجال الدين ، وعرف على نحو فردى فى بلادنا ، وقامت أسواقه مراغمة لأحكام الإسلام ومواريث النبوة . وسكت المتاجرون بالفقه عنه ، ولم يؤدوا واجبهم فى محاربته كما أمر الله ورسوله .

وهذه إساءة شديدة للإسلام بل طعنة نافذة فى صميمه .

من أجل ذلك لايزال الإنسان يتميز غيظاً لبقاء النخاسة تجارة مألوفة فى البلاد السعودية !!

حكى السيد محمد حسنين هيكل القصة الآتية نذكرها دون تعليق ، ففى سرد أحداثها ما يكفى . قال :

« بين جمهورية مالى و بين المملكة الليبية ، إشكال من نوع غريب ، لعله أغرب ماسمعت فى عمرى .

ولو لم أسمع المناقشة فيه بين السيد عبد القادر العلام وزير خارجية ليبيا ، و بين الشيخ محمد مهدى عضو وفد مالى الرسمى فى مؤتمر الدار البيضاء لتصورت أن الحكاية كلها حكاية خرافية ، لم تكن ولم تقع .

كانت المناقشة تدور حول رجل .

والرجل من رعايا مالى ، ولكنه الآن يقيم كلاجىء فى ليبيا .

ـ لا يمكن أن نتنازل عن طلب تسليمه ، إن وزارة الخارجية فى مالى كتبت المذكرات تلو المذكرات إلى وزارة خارجية ليبيا ، ولكن وزارة خارجية ليبيا لم ترد !

وقال وزير خارجية ليبيا :

إننا لا نعرف له مكاناً فى ليبيا !

وزاد الشيخ مهدى إصراراً ، وزاد كذلك إلحاحاً ، وقال :

— الناس كلهم يعرفون أنه هناك ، إنه يقيم فى بيت كبير ، ولديه السيارات و بمقدوره وسائل الترف ، ولكن رجلا مثله لا يجب أن يعيش .

لا بد أن نأخذه لننفذ فيه حكم القضاء . . . إن القضاء أدانه . . .

واستطرد الشيخ مهدى :

— إن جريمته لم يسمع بمثلها قط فى القرن العشرين !

وكان لابد للمناقشة أن تثير فضول الواقفين يسمعون الأخذ فيها والرد وقال الشيخ مهدى ، وهو يلتفت إلى الواقفين من حوله ، ومن حول وزير خارجية ليبيا ، والسؤال ملء عيونهم :

« إسمعوا ماذا فعل الرجل » ؟

كان رئيس قبيلة فى مالى .

وذات يوم قبل الاستقلال بقليل راح يدعو قبيلته إلى أن تذهب معه جماعة لأداء فريضة الحج فى مكة .

واستجاب له كثيرون، بينهم عدد من الرجال ، وعدد أكبر من النساء حملن معهن أطفالهن فى رحلة الإيمان إلى بيت الله الحرام .

و بعد المشاق ، وصلوا جميعاً إلى مكة ، وسكت الشيخ محمد مهدى . . . ينظر إلى وجوه المحيطين به يتطلعون إليه فى انتظار عقدة القصة . .

وقال الشيخ مهدى على الفور :

باعهم . . . باعهم جميعاً إلى بعض تجار الرقيق . . . باع الرجال والنساء والأطفال إلى بعض تجار الرقيق ، وسلمهم فى مكان قصىٍ ذهبوا إليه وراء زعيمهم .

ثم قبض ثمن . . . . ثمن أهله وعشيرته . . . . ولم يعد بالطبع إلى مالى ، و إنما أخذ ثروته الجديدة وذهب إلى ليبيا . . . . و بدأ يشتغل بالتجارة .

وعرفت قبيلته فى مالى بما فعله زعيمها ، فقد تمكن أحد أفراد « البضاعة » من الكتابة إلى القبيلة بما حدث ، وكان أن قدم الرجل إلى المحاكمة ، وقضت المحكمة عليه .

ثم جاءت الأخبار بأنه فى ليبيا . . . . وتأكدت .

ثم بدأت المذكرات رحلتها بين وزارة الخارجية فى مالى ، و بين وزارة الخارجية الليبية دون نتيجة حتى الآن !

قصة غريبة ؟؟؟!!! . . . .

وفى القرن العشرين . . . .

هل يصدق أحد ؟؟؟!!!

(حـ) ومن المفاسد . التى شاعت فى أمتنا التطاول بالأنساب ، وتمزيق عرا الأخوة الجامعة بمزاعم مستغربة تجعل هذا سليل دوحات شرف وذاك سليل نكرات تافهين .

وتبع هذا تنابز بالألقاب . واحتقار لجملة من الأعمال والحرف ، وتقاليد تصم قوماً بالحسب الذاكى ، وآخرين بالمعدن الخسيس .

ولايزال ناس من البدو فى بلادنا يستعلون على الفلاحين ، و يرفضون الإصهار إليهم ، ور بما قتلوا بنتهم إذا رضيت بالزواج من قروى كادح .

والتفاوت بين البشر حقيقة لاريب فيها .

لكن هذا التفاوت لايورث فى سلاسل من الأعقاب لانهاية لها ، حتى يقال بيت فلان و بيت فلان .

فرب مغموص الشأن ولد الملوك .

ورب مملك على مفرقه التاج رُزق من الخلال مايجعل السوقة أكرم منه وأرقى

وكان خيراً لأمتنا أن تحذف أشجار النسب التى يحتفظ بها البعض، وأن تحترم مقياساً واحداً للأصالة والوضاعة هو المقياس الذى أثبته القرآن ولم يثبت غيره .

(د) لم يعرف المجتمع الإسلامى الرهبانية ، ولم يقم على الكبت الجنسى ولا الحرمان المادى .

وليس ذلك لأنه ـ من الناحية الجنسية مثلا ـ أباح الاختلاط الفاجر المأنوس فى الغرب ، كلا ؛ فالمجتمع الإسلامى ـ من ناحية مثله العليا ـ لايعرف هذا الاختلاط اللعين ، ولا يقر ماينتهى إليه من انحلال عام .

ومن الناحية العملية آثر أغلب المسلمين التطرف فى حجب كلا الجنسين عن الآخر ، وجاروا على تعاليم الإسلام وحقوق المرأة .

إلا أنهم مع ذلك كانوا عمليين فى فهم الطبيعة الجنسية فجعلوا الزواج المبكر حلا سريعاً لمشكلاتها و يسروا التعدد الذى بلغ بهذه الغريزة حد الإشباع .

وذلك عكس الحاضر الإسلامى الذى لم ييسر الحلال كما فعل الأولون ولم يقبل الحرام بطبيعة مواريثه الروحية فنشأت الأجيال الجديدة نشأة معقدة كئيبة .

وكما فعل المسلمون الأوائل فى إجابة الغريزة الجنسية مشوا مع منطق الإسلام فى استباحة الطيبات ، فعرفوا ألوان الطعام ورصّعوا موائدهم بالكثير منه .

والمأخوذ على الأمة الإسلامية فى هذا الجانب المادى أنها لم تلزم الاعتدال الذى وقفها الشارع عنده ، بل تجاوزته إلى السرف والترف ، مما أثر فى وفائها لرسالتها الكبيرة .

(هـ) وبديهى أن يعرف المجتمع الإسلامى الغنى والفقير ، وأن يعانى فى تاريخه الطويل هزات أسيفة مرجعها الخلل الاقتصادى .

خصوصاً إذا شاع الترف فى طبقات أسعفتها الحظوظ ، إن ذلك مستتبع حتما الشظف فى طبقات أخرى .

ولولا أن العقيدة الإسلامية تقيم كيانها على المواساة والبذل ، وتكلف المؤمن مع إيمانه بالله أن يعين الفقير لكان المجتمع الإسلامى قد تحول إلى الشيوعية من قديم .

إن طبيعة الدين الذى ساد هذه البلاد جعلت الأفراد الواجدين ، ومستورى الحال ، يرون لزاما عليهم مساعدة غيرهم ، كما أن أولى الثروة والجاه كانوا يرون من تمام وجاهتهم بذل الفضول لقصادهم ، ومن ثم نجت البلاد الإسلامية من نزق الثورات المتطرفة ؛ ومن الإلحاد المسلح الذى عرفته أوربا وغيرها .

إلا أن المأخوذ على الحضارة الإسلامية أنها لم تحكم نظام الزكاة إلى اليوم ولم تتبع ثغرات الجماعة بالاستقراء الشامل لتسدها ، سواء بإتاحة العمل للقادرين ، أم بإتاحة الأعطية للقاعدين .

(و) وعرف المسلمون التجمعات الفكرية والعبادية والجهادية ، وإن كانت لم تأخذ شكل الأحزاب السياسية المعهودة اليوم فى البلاد الديمقراطية .

وفى مطلع القرن الرابع عشر للهجرة كانت جماهير المسلمين منتظمة تقريباً فى الطرق الصوفية ، وهى طرق أخرت كثيراً ونفعت قليلا .

ومن المهم أن تتاح للأمم فرص التجمع الحر ، على أن يكون هذا التجمع محكوماً بمنطق العقل والمصلحة ، وعلى أن يبتعد عن دواعى التعصب والتعسف ، وعلى أن يدخل فى إطار الوحدة الدقيقة للأمة .

والمؤسف أن الأمة الإسلامية تحولت فيها هذه التجمعات إلى كتل متنافرة

متنا كرة ، وأنها لم تستهدف المصلحة العليا بل غلبت عليها النزعات الخاصة .

وقد شاهدنا ـ ونحن غلمان ـ المساجد الكبرى تقام فيها عدة جماعات للصلاة الواحدة فى الوقت الواحد تبعا لاختلاف الفقه المذهبي ! !

وهذا منكر قبيح .

ومن المآخذ علينا إقرار هذه الفرقة :

٤ — أسباب سياسية :

إذا كان انهيار الحضارة العربية يرجع إلى ماذكرنا من أدواء فكرية وخلقية واجتماعية ، فإن هذه كلها تعد عوامل محدودة الشر بالنسبة إلى الفساد السياسى الذي صدع بناء هذه الحضارة كما يصدع الزلزال دعائم القصر الأشم .

كان هذا الفساد أسرع شىء إلى حضارتنا ، بل كان الكهف الذى آوى جراثيم المفاسد الأخرى ، وتركها تنهش باطنها وظاهرها ، وتصارع أسباب الصحة والنماء لتعجل بحتف هذه الحضارة العظيمة .

وبدأ هذا بجذع الحكم ، وأصله الأول ، أعنى : الخلافة ، فالمفروض عقلا ونقلا أن يختار المسلمون خليفتهم من بين أعظم الكفايات فيهم ، إلا أن سطوة العصبيات وغلبة الشهوات هدمتا هذه القاعدة فإذا الخلافة ميراث شخص يتركه والد لولده .

ولو أن الخلافة نوع من السلطان يشبه الملك الزمنى لأمكن مع الترخص والإغماض أن يفهم هذا الوضع ، وأن يحاط بالضمانات التى تسدده .

لكن الخلافة نيابة عن رسول الله فى مصالح الدين والدنيا ، أى أنها زعامة

روحية وعقلية ومدنية وعسكرية ، فكيف يمرق مخلوق من بطن أمه ليتلقفها وهو يبول فى مهده ، وكيف تكون الخلافة حكراً فى بيت من البيوت يموت ربه ، فينالها من بعده ابنه ؟ ؟

إن الذين يركبون أى سيارة فى مدينة القاهرة ما يطمئنون إلى الجلوس فيها والانطلاق بها إلا إذا كانوا على ثقة من أن السواق يحسن القيادة .

فإذا كنا لا نعطى رخصة القيادة إلا رجلا مدرباً كى نأمنه على مصير عدد من الناس قليل ، فبأى منطق يملك رجل من الناس قياد أمة هائلة ، لا لشىء إلا لأنه ابن فلان !

وما فلان هذا الآخر ؟ إنه مثل الأول ، شخص لو اشتغل بمواهبه قد يصلح حمالا أو ممثلا ، أو بقالا أو إسكافاً ، لكنه لا يصلح لشىء من مهام الحكم .

ولو صلح بمحض الصدفة ، فليس يصلح للخلافة عن رسول الله .

لكن هذا الهزل هو الذى ساد بلاد الإسلام دهراً ، بعد أن طويت أعلام الخلافة الراشدة ، وقضى عليها معاوية بن أبى سفيان .

إن توريث إمارة المؤمنين الذى ابتدعه معاوية مقلداً المجوسية الفارسية ، والصليبية الرومانية كان بداية الشرر الذى تحول على مر الليالى حريقاً مستعرة دمرت الأخضر واليابس فى الحضارة الإسلامية المظلومة .

* * *

والخلل السياسى الذى ولد على جسم الأمة « رأساً » من هذا الطراز سرت عدواه إلى الشبكة الإدارية التى تعاونه فى العمل .

فأهمل ميزان الكفاية ، وأمسى اختيار الأعوان منظوراً فيه إلى مرشحات

كثيرة . وربما كانت المهارة والمقدرة آخر المسوغات التى تقدم أصحابها لما يستحقون .

و بدأت الأطماع الشاذة تضطرم فى هذا الجو .

وظاهر من ملاحظة تاريخنا السياسى أن الفساد استشرى بعد مدة من ميلاد هذا النظام الوراثى .

وذلك أن الجبابرة الذين قضوا على سنة البيعة فى اختيار أمير المؤمنين . سوغوا بقاءهم فى نظر العامة والخاصة باحتضان المثل العليا للجماعة والحماس فى خدمتها ، فسيروا ألوية الجهاد شرقاً وغرباً ، وتظاهروا بكل ما يعطى بقاءهم صفة مشروعة .

إلا أن هذه السيرة موقوتة ، معلولة ، وسرعان ما تنتهى بعد استقرار الأمور للبيت الحاكم بأمره ، وعندئذ تنكشف السرائر على ما بها من دخل ، فلا يعنى هؤلاء الحاكمون إلا بامتيازاتهم الخاصة .

ولا يكون الحكم إلا استدرارا للمنافع وافتياتا على الجماهير، واضطهاداً للأمة والعلماء .

انظر أحد طلاب الحكم يقول :

إذا لم تكن لى فى الولاية بسطة يطول بها باعى وتسطو بها يدى

فلا كان لى حكم مطاع أجيزه فأرغم أعدائى وأكبت حُسَّدى

عجباً ، أهذه وظيفة الحاكم ! أم هى جنون السيطرة ؟ أهذه مصالح الرعية أم هى رغبة الانتفاخ والانتفاش ؟

ثم انظر كم ترى البون بعيداً بين هذا السعار فى طلب الإمارة و بين تجنيب عمر ولده ولاية الأمر من بعده مشفقاً أن يكون فى آل الخطاب أكثر من واحد يُسأل عن شئون المسلمين ؟

كانت الخلافة الراشدة ـ شأن أى حكم تتمثل فيه إرادة الأمة ـ ترحب بالنقد والنصح ، لـكن النظام الملـكى يرد الأيدى فى الأفواه إن حاولت النطق بكلمة .

وقد قتل عثمان وهو يرفض إصدار أمر بمقاتلة الجماهير التى حاصرت قصره على حين يرى أولئك الحاكمون قتل الألوف فى سبيل التمـكين لأنفسهم .

ولن يخطئك منظر الدماء التى صبغت صحائف شتى أيام العرب والترك على سواء .

وقد ضاق الفقهاء والأدباء بهذا الانحراف السياسى والإدارى ، وكادت الوحشة بين علماء الدين ورجال الحـكم تـكون طابعاً عاماً لهذا التاريخ .

وكأن أبا العلاء المعرى كان يصور رأى الأئمة من رجال الفقه والتربية حين قال :

مُلّ المُقام فـكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

ويقول أبو الطيب :

وإنما الناس بالملوك وما تُفلح عرب ملوكها عجم
لا أدب عندهم ولا حسب ولا عهود لهم ولا ذمم
بكل أرض وطئتها أمم تُرعى بعبدٍ كأنها غنم

يستخشن الخزُّ حين يلمسه وكان يُبْرَى بظفره القلم

وليست المشكلة كما يصورها المتنبي مشكلة عرب وعجم ، فهذا منه شرود عن الجادة ، والمتنبي ترك سيف الدولة العربى إلى كافور العجمى قائلا :

قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا

ويقول فى مدحه :

أبا كل طيب لا أبا المسك وحده . . .

وإنما المشكلة . فساد الطريقة التى يصل بها الناس إلى المناصب الكبيرة ، وفقدان الضوابط التى تحرر المصلحة العامة من العبث ، وفقدان الموازين التى ترجح بها الكفايات وتطرح بها النفايات .

وإذا كانت رياسة الولايات . بعد رياسة الأمة جمعاء تتبع نوازع الهوى ، فإن سائر الوظائف لن تعدو هذه السياسة الطائشة .

والأمم تحيا وتموت وفق أحوال الدولة التى تقوم على شئونها .

تُهدَى الأمور بأهل الرأى ماصلحت فإن تولت فبالأشرار تنقاد

إذا تولى سراةُ الناس أمرهم نما على ذاك أمر القوم فازدادوا

فما يكون المصير إذا تولى أمور الناس ضعاف الرأى والخلق ، وإذا أضحت الوظائف نجعة الطامعين وهدايا للمقربين .

جاء فى كتاب الفخرى .

« أن وزارة الخاقانى بلغت من الفساد مبلغاً كبيراً ، وولّى الوزير فى يوم واحد تسعة عشر ناظراً للكوفة وأخذ من كل واحد رشوة فانحدر واحد واحد حتى اجتمعوا جميعهم فى بعض الطريق فقالوا : كيف نصنع ؟ فقال أحدهم :

إن أردتم النصفة فينبغى أن ينحدر إلى الكوفة آخرنا عهدا بالوزير فهو الذى ولى ولاية صحيحة لأنه لم يأت بعده أحد فاتفقوا على ذلك .

فتوجه الرجل الذى جاء أخيراً نحو الكوفة ، وعاد الباقون إلى الوزير ففرقهم فى عدة أعمال ، وهجاه الشعراء ، فمما قيل فيه :

للدواوين مذ وليت عويل ولمال الخراج سقم طويل
يتلقى الخطوب حين ألمت منك رأى غث وعقل ضئيل
إن سمنتم من الخيانة والجو ر فللارتفاع جسم نحيل

* * *

نحن إذ نقارن ماوقع من المسلمين بما يجب عليهم لابد أن نفرق بين المجتمع والدولة ، ذلك أن المجتمع الإسلامى حرص على إنفاذ تعاليم الإسلام جهده .

فكان الناس فرادى وجماعات يتحرون مرضاة ربهم ، ويقاربون من الغاية إن لم يبلغوها .

وكانت الفجوة عميقة بين الأئمة المتبوعين والعلماء الراسخين وأهل الصلاح من ناحية ، والسلاطين والولاة وأجنادهم من ناحية أخرى .

إلا أن جماهير العلماء منذ صفين كانت تكره الإفتاء الذى ييسر الخروج على الحكام ومقاتلتهم ويرون العزلة أجدى حتى تتغير الأحوال من تلقاء نفسها دون ثورات قد تكون عقباها نكبة على الإسلام حكومة وشعباً . . .

وربما أعان على تسويغ هذا الموقف ماذكرناه آنفاً ، من أن خلفاء أمية والعباس فى مفتتح تملكهم كانت غيرتهم بادية على استئناف النشاط الإسلامى فى شتى الميادين .

غير أن هذه الغيرة المفتعلة لم تكن إلا سناداً للحكم الفردى حتى يستقر ، فإذا تطامنت له البلاد والعباد ، سار وفق هواه ، ونسى ما خيل به على الناس أول قيامه .

ومن ثم ضعفت الروح الدينية بين رجال الدولة ، ونبت مسالكهم عن أحكام الشريعة فى أحيان كثيرة .

والأنكى من ذلك هوان أرباب الكفايات وأولى العزم من الرجال الذين عصب النصر جبينهم فى وقعات هائلة ، أعلوا فيها قدر الإسلام ، وغرسوا أعواد التوحيد فى أرجاء الصين شرقاً والأندلس غرباً إن هؤلاء كانوا يستحقون كل تكريم

ومع ذلك فإن القائد الشاب القاسم بن محمد ، والقائد الفحل موسى بن نصير ، وغيرهما ، غمطت جهودهم ولقوا على جهادهم المبرور جزاء سنمار .

وتلك طبيعة النظم الاستبدادية والسِّير الملوكية . .

وقد تعجب إذ ترى مثلا هرون الرشيد يبعث بهداياه إلى « شارلمان » ملك الفرنجة ، أفتظنه يفكر فى إنشاء صلة مودة بينه و بين الحكم الإسلامى فى الأندلس ؟

لا ، إن العداوة بين البيت الأموى والبيت العباسى قائمة .

وعلى الإسلام وأهله أن يحملوا أوزار الخصومة بين بيتين من البيوت التى سوّدتها الحظوظ !!!

وكذلك فعل السلطان سليمان القانونى الذى عقد معاهدات ود متبادل بين الخلافة العثمانية و بين ملوك فرنسا و إيطاليا .

هل فكر الخليفة التركى فى إنجاد إخوانه المسلمين بالأندلس ، وكانوا يومئذ

يعانون حرب إجلاء و إبادة من نصارى الغرب ؟

كلا ، إن الأمر لا يعنيه كثيراً .

إن الأسرة التى تتوارث الحكم تهمها أمجادها الخاصة ، فهى تحارب لضم بلاد إسلامية تحت لوائها ، ور بما رحبت بتلاشى أسرة أخرى تحكم شعباً إسلامياً لا يخضع لها هى . . .

وهكذا سقطت دولة الإسلام فى الأندلس .

* * *

وهناك فصلان متميزان يمكن أن نفرد كلا منهما بنظرة خاصة :

الفصل الأول حالة المسلمين قبل الحرب الصليبية الأولى فى العصور الوسطى .

والفصل الثانى حالة المسلمين قبل الحرب الصليبية الثانية فى العصر الحديث ، أعنى الغزو الاستعمارى الأخير . . .

المسلمون فى الفصل الأول كانوا من الناحية الشعبية أدنى إلى الإسلام وأحرص على تعاليمه .

أما من الناحية الحكومية ، فإن النزاع ـ بين الولاة المتغلبين ، والخلفاء الطامعين ـ كان مستفحلا بالغ السوء .

ولو وُجدت حكومة شرعية صالحة ، ماوجدت هذه الحروب الصليبية البعيدة الأمد ، التى ظلت مشتعلة الأوار طيلة قرنين من الزمان .

حكومة يقظة واحدة فى أول الزحف الصليبى كانت تستطيع الإجهاز على الغزاة ، و إطعام الطير جثثهم ! !

إن هذه الحرب التى استغرقت مائتى سنة لم تكن تستغرق ، لا أقول مائتى شهر ، بل مائتى يوم لو أن الحكومة المركزية للأمة الإسلامية كانت تمثل أميرا للمؤمنين يرعى الإسلام وأهله ، وتحف به الجماهير عن إخلاص و إعزاز .

إذن لَلقّن الصليبيين درساً يروونه لأبنائهم ، لو عادت منهم بقية .

لكن الأمراء المتنازعين على السلطة تواكلوا واسترخوا وتربص بعضهم ببعض .

فكانت النتيجة أن تشبث الغزاة بالأرض التى سقطت فى أيديهم ، وتطاولت آماد القتال ، بين الأمة التى صحت على العدوان و بين المعتدين الذين أغراهم الظفر .

وانسابت جحافل أوربا من كل صوب وحدب ، وهى تأمل فى القضاء على الإسلام واجتثاث جذوره .

ومرت السنون بطيئة ثقيلة ، وذهب أجداد وجاء أحفاد .

وهذه البقاع من أرض العروبة تشهد حربا إثر حرب .

حتى انتهت المعارك آخر الأمر باندحار الأوربيين وتسليمهم جميع البلاد التى اغتصبوها ، وعودتهم من حيث أتوا خائبين خاسئين . .

وجمهرة المؤرخين متفقون على أن المجتمعات العربية كانت أعلى مستوى ، وأزكى خلائق ، وأنضر معرفة ، وأجدر بالحياة من الهاجمين الذين قصدوهم . .

ولولا أن الكيان العربى صلب العود ؛ وأن الفساد السياسى كان يمثل قشرة معطوبة فيه ، أو ثمرة فجة منه ما استطاع الصمود لهذا البلاء الماحق الذى نزل به بغتة .

لقد كان كالجسم الفتى حلت به علة فادحة فإذا هو يلقاها بكل ما ادخر من لحم وعظم ، ويقاومها بما انساب فى أوصاله من مناعة وجلادة حتى نجا من الكارثة وما كاد ـ بعد ابتلاء وتمحيص شديدين .

أما الفصل الثانى من هذا الصراع المر ، أعنى مقدمات الهجوم الصليبى الحديث فيبدأ من تسلم الأتراك مقاليد الحكم فى الأمة الإسلامية .

لقد اضمحل السلطان العربى ، وأخذ يتراجع رويدا رويدا ، وحل الترك مكان العرب فى الإمساك بزمام القيادة .

والترك جنس شجاع قوى الشكيمة ، وكان يتحلى بصفات حسنة يوم وثب إلى الصدارة فى تاريخنا .

وقد جدد قوى الإسلام بما فطر عليه يومئذ من بداوة ، وإخلاص ، وتضحية ، وببعده عن الترف المادى والعقلى الذى انغمس العرب فيه حينا من الدهر .

لكن العبقرية العسكرية للترك لم تصحبها للأسف عبقرية علمية ولا إدارية .

ولست أرغب فى النيل من أمة لها محامدها المذكورة ، ولها كذلك معايبها.

ولعمرى إن العرب فى ذلك كالترك ، لهم خصائصهم العالية ، ولهم أيضا ما يلامون عليه ، هذه العصبيات الطائشة التى لا تقطع لهم تهارشا ولا تشاجرا ، ألم تكن سر ما أصابهم وأصاب الإسلام معهم ؟ ؟

ولنعد إلى فترة السيادة التركية لنعرف منها أحوال المجتمع العربى والإسلامى إن الأتراك نجحوا فى كسب معارك عسكرية عظيمة فى البر والبحر جعلت المسلمين

أكبر قوة فى العالم ، وجعلت البحار الثلاثة : الأسود والأبيض والأحمر بحيرات إسلامية خالصة .

لـكن هذا النجاح مؤقت ، ولعل مكاسبه كانت من مدخرات الإسلام الأدبية فى قرونه الأولى .

ولم تؤت هذه الانتصارات ثماراً ذات بال ، ذلك لأنها لم تقترن بقدرة علمية ، ولا مهارة إدارية ولا بصيرة سياسية .

ولم تـكن الدولة تدرك حق الإدراك وظيفتها فى خدمة الدعوة الإسلامية ، ولم ينهض فى كنفها من الأئمة والعلماء والمربين والدعاة ما يكمل هذا النقص ، ـ وكان هؤلاء وفرة أيام السيادة العربية ـ ومن ثم تحولت فتوح الدولة إلى عبء عليها بدل أن تـكون مدداً لها .

ولو أن هذه الفتوح جلبت خيراً يذكر ، ما كان هذا الخير يساوى شيئاً إلى جانب خسارة الأمة الإسلامية نفسها ، أجل ، إن الدولة التركية ـ بقصورها الأدبى ـ خسرت رأسمالها من المسلمين أنفسهم ، فى بلادهم الطويلة العريضة ، فإن هؤلاء المسلمين أخذوا ينحدرون قليلا قليلا فى مجال العلم والعمران .

فإذا العواصم التى طالما دوّت بالدروس والمناظرات يخفت صوتها ، وتقفر عرصاتها ، وتغلق مكاتبها .

وإذا المدائن والقرى التى كانت أسواقاً للخيرات ، ومجالاً للفنون والصناعات تذوى وتضمر وتعتل .

وتتابع هذا الانهيار دون أن يجد مصلحا ينذر بسوء العقبى .

وقل عدد السكان فى أودية الحضارات العريقة مثل النيل والفرات حتى بلغ سكان مصر قرابة مليونين ونصف ، وسكان العراق أقل من ذلك كثيراً ، مع أن هذه الأقطار أيام العرب كانت غاصة بأضعاف أضعاف هؤلاء السكان .

وبهت لون الإسلام نفسه ، وفسدت مبادىء كثيرة منه ، وتحول التوحيد إلى شرك أو كاد ، وتحول العقل إلى جنون أو كاد .

وذلك كله فى وقت كان الغرب فيه يرقى صعداً فى معارج المعرفة ، وكان عصر النهضة الأوربية قد بدأ يهز الشعوب الخاملة ، وينفى الكرى عن أجفانها ، ويطلقها هنا وهناك تكشف المجهول ، وتعمر آفاقاً أخرى فى البر والبحر ...

فلما وقعت الواقعة وتحرك الصليبيون الجدد نحو العالم الإسلامى ، كانت المقاومة عبثاً .

وغاص الفاتحون فى أعماق القارات المسلمة ، دون أن يستطيع الترك أو العرب صد العدوان المسلح بأسلوب مجد .

* * *

هل أغمط المدافعين حقهم فأطوى صحائف جهادهم دون تنويه بها ؟ كلا ، إن الأبطال الذين بوغتوا بالغزو لم يستسلموا لزحفه على ضعف أسلحتهم وفتك الأسلحة التى بأيدى عدوهم .

بل إن المقاومة الفردية والشعبية بلغت حداً هو مايطيقه البشر ، وإن كانت النتائج لاترضى .

إن ثوار فلسطين ، وثوار الجزائر ، والجماعات المكافحة فى أقطار أخرى ، بذلت ولا تزال تبذل الكثير ...

ولـكن المسلمين اليوم يجنون مافرط آباؤهم ، وجهاد المعاصرين سوف يؤتى ثماره لاريب ، وربما لايجنيها إلا أولادنا وأحفادنا ...

والخسار العسكرى جزء محدود فى تقويم الحضارات .

والأمم لا تزول إذا تركت قطرا ، أو فقدت نصراً .

وإنما تزول إذا ضاعت عقائدها ومناهجها ، وتلاشت شاراتها وشعائرها ، أو كان مابيدها من تعاليم يناقض منطق الحق ، وكرامة الإنسان، ومسير الحضارة .

وهذا ـ بالنسبة لنا نحن المسلمين ـ لاوجود له .

فنحن نملك رسالة هى جوهر الحق ، ولباب العدالة ، وضمان الخير وسياج المصلحة ، لاالجنس بعينه ، ولـكن لأهل المشارق والمغارب .

ولذلك من حقنا أن نبقى ، بل يجب أن نبقى .

طريق العودة :

ليس أمام العرب عدة طرق ، يوازنون بينها ويختارون منها ..

إنها سبيل واحدة يتعين عليهم أن ينطلقوا فيها لايلوون على شىء ، تلك هى سبيل الإسلام ، الدين الذى أعز آباءهم ، وصنع حضارتهم ، وبوأهم القمم وكانوا من قبله صفراً .

ونحن نعرف أن الهزائم الأخيرة أمام الزحف الصليبى الحديث أوجدت عصابات من الساسة والقادة والـكتاب والخطباء يشـكـكون فى قيمة الإسلام بل يدعون سراً وجهراً إلى الخلاص منه كلا وجزءاً ، والإقبال على أوربا ظاهراً وباطناً .

ومع أن هذه العصابات تظاهرها قوى الغزو الغالبة ، وتساندها بالمال والجاه.

ومع أنها انفردت بزمام التوجيه فى أقاليم كثيرة .

إلا أنها فشلت فى صرف الجماهير عن دينها ، وحملها على الكفر بكتاب ربها وسنة نبيها .

وهى لاتزال دائبة السعى ، ومن ورائها الدوافع التى كشفناها ، وهيهات أن تستسلم الجبهة المؤمنة ، و إن عراها الإعياء فى بعض الأحيان .

ونحب أن نقول فى إيجاز : إن محاولة هدم الإسلام لإقامة نهضة أخرى فى بلاده قد تستغرق ـ لإتمام الهدم ـ مائتى سنة ، و بعيد أن تنجح ، فإذا حدث جدلا أن هدمت هذا الدين فقد تستغرق مائتى سنة أخرى لبناء نهضة على أسس مغايرة ، و بعيد كذلك أن تنجح !!

أى إن العراك العنيف الناشب الآن مع مبادىء الإسلام لاجدوى منه إلا تأخير الاستقرار قرابةأربعة قرون فى انتظار وهم يخامر بعض الساسة والخونة .

إن الغزاة المزودين بكل شىء ، والمتوجين بأكاليل الظفر يحاولون ـ منذ مائة سنة فى بعض البلاد ، ومنذ مائتين فى البعض الآخر ـ أن يجهزوا على روح الإسلام بعد ماقطعوا أطرافه فماذا بلغوا ؟ إن هذه الآلام لم تقتل الدين النابض القويم ، بل استثارت غرائز المقاومة التى همدت أيام انهيار حضارته ، فإذا هو يلم شعثه ، و ينفى عنه الأوضار التى شانته ، و يعطف ماتنافر من أجزائه .

وهو الآن أحسن منه من خمسين سنة ، وأعداؤه أقرب إلى اليأس من أسلافهم قبل خمسين سنة .

ومرة أخرى نقول : يستحيل بناء نهضة فى بلاد العرب تتجاهل الإسلام وتتنكر لتراثه المجيد .

والتعجيل بالنصر طريقه الأوحد سرعة العودة بالأمة إلى دينها فى كل شىء ، و إخماد الأنفاس النجسة التى تلهث وهى تقذف هذا الدين بأنواع الرجوم ، وتبذل الجهود لتضليل الأجيال الناشئة ، و بعثرة قواها وآمالها .

فإن ارتباط الخلق ـ فى المجتمع العربى ـ بمبادىء الإسلام قائم ، وارتباط المثل العليا بأهداف الإسلام قائم :

و إذا شئنا بناء أمة متينة الخلق ناضرة المثل ، فعلى دعائم الإسلام وحده يجب البناء ، و إلى غايات الإسلام وحده يجب التوجيه .

إن الأشخاص الذين حاولوا السير بأمتنا فى طريق غير الإسلام ، كانوا أشبه بالسابح ضد التيار ، أو بمن يرتب الأشياء عكس امتدادها الطبيعى .

وكانت النتائج التى حصلوا عليها هى التى يحصل عليها من يحاول إلباس العملاق رداء طفل .

أو التى يحصل عليها إنسان مريض يتولى علاجه طبيب بيطرى ..

إن هؤلاء الأشخاص لم يفعلوا شيئاً أكثر من إحداث بلبلة فى مشاعر الأمة وأفكارها .

ذلك أن أمتنا لاتستجيب إلا لدعاة الله .

صيحة خافتة لواحد من رجالات الإسلام تلتف حولها الجماهير ، وتصل إلى أعماق الضمائر .

صيحة عالية لواحد من أعداء الإسلام تنقلها الصحف والإذاعات وتضاعف

المدى الذى تتردد فيه ، ينصرف الناس عنها ، وقد يستجيب لها نفر فاتر الهمة ، سقيم الوجدان .

* * *

لماذا ؟ لأن العوض الذى ينظر الناس إليه وهم يُساوَمُونَ على ترك دينهم لايساوى فى نظرهم شيئاً ، إن لم يكن جديراً بالاحتقار الشديد .

أيدعون الإسلام للشيوعية أو للوجودية ؟ .

إن الإيمان بالله أحب إليهم ، وأدنى إلى فطرتهم .

أيدعون التوحيد إلى التثليث ؟

إن عقولهم وقلوبهم توافقت على اليقين فى إله واحد لاشريك له ولا ولد ولا صاحبة « أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ[(١)] » ؟ .

أيدعون العفاف للعهر ، والعدالة للظلم ، والاستقامة للانحراف ؟ .

إن المدنية الوافدة تمثل دائماً الجانب الأخسر ، من ناحية السلوك الفردى والاتجاه العالمى .

فكيف يترك الناس الإسلام الأثير لديهم إلى غير شىء ؟ .

* * *

يجب أن نستعد لبناء حضارتنا من جديد ، على دعائمنا العتيدة ووفق أهدافنا وحدها .

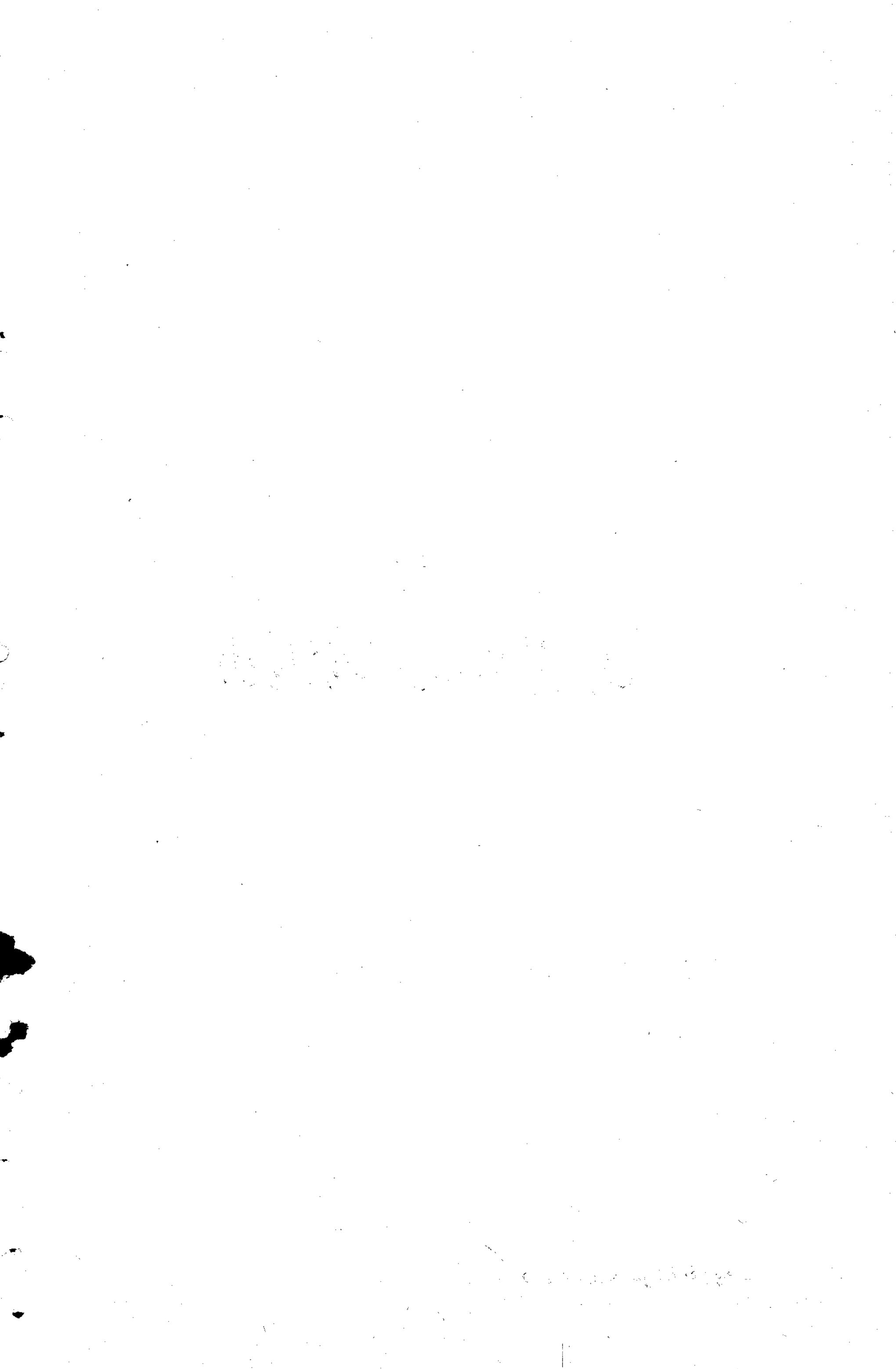
فى ظل الإسلام الذى أكرمنا الله به أولا ، ومسَّكنا بأصوله إلى يوم الناس هذا

---

(١) يوسف آية ٣٩

– ٧ –

الدولة العربية والوطن العربي



أعقب اضمحلال الأمة العربية مالم يكن منه بد ، إذ أحدق بها أعداؤها من كل جانب ، كل يبغى نصيباً دسماً من هذا الـكيان المستباح ...

كان السلطان العثمانى فى « الآستانة » مثخناً بالجراح ، والوصف الذى اشتهر به هو الرجل المريض ! والمتربصون به الوفاة كثير !

أما التركة التى يراد اقتسامها فهى أقطار العروبة والإسلام كلها .

ولم ينتظر الطامعون حتى يؤذن بوفاة الخلافة المعتلة فيلتهم كل سهمه فى الميراث الذى لاصاحب له ، بل بدأ الخطف الجرىء هنا وهناك ، وسرى العدوان على أجزاء الدولة ، وعلى أرجاء البلاد الإسلامية عموماً .

ولم تمض فترة طويلة حتى كانت دول أوربا على الإجمال قد احتلت مساحات هائلة من العالم الإسلامى ، ووضعت يدها على مفاتيح البحار ، وعلى مناطق شديدة الحساسية فى الهجوم والدفاع .

وتولى كبر هذا العدوان السافر انجلترا وفرنسا .

اغتصبت انجلترا وادى النيل كله : مصر ، والسودان ، وأوغندا ، وما يقترب من الوادى فى المناطق الحارة .

واستولت فرنسا على الشمال الإفريقى : تونس والجزائر ومراكش وما تحت هذه الأقطار .

وأخذت إيطاليا . ليبيا .

ومن قبل كانت هولندا قد استولت على أندونيسيا كما استولى الإنجليز على الهند وشواطىء الجزيرة العربية كلها من الخليج إلى عدن .

ويمكن القول بأن أوائل هـذا القرن شهد اندحاراً للأمة الإسلامية بالغ الإهانة ، فادح السوء .

ومع ذلك فإن « الرجل المريض » لم يسلم أنفاسه ، و بدا كأنه يستعد لجولة أخرى يرد بها أولئك المناوشين القتلة ، ومن يدرى لعله يسترد مافقده إبان ضعفه؟

وكان ذلك قبل الحرب العالمية الأولى إذ قرر الأتراك أن يتحالفوا مع الألمان ضد انجلترا وفرنسا و إيطاليا .

وهذا التحالف كان شيئاً لامفر منه ، بل كانت المصلحة للدولة المنكودة ، وللشعوب التى ارتبطت بها ، تفرضه وتؤكده .

فإن الألمان يرون أنفسهم أرقى من الإنجليز ، وأحق منهم بالسيادة والصدارة ، ومع هذا التفوق فإن بقية دول أوربا خرجت دونهم بنصيب الأسد من تقسيم المستعمرات ، ومن انتهاب الأمة الإسلامية !!

فلا جرم أن الألمان يحقدون على هؤلاء الجشعين المفتاتين .

وبديهى أن يرى الأتراك فى الميدان الدولى هذا الذى يشاركهم فى مخاصمة انجلترا وفرنسا فيهرعون إلى الاتفاق معه !

أليس يجمعهم شعور مشترك وصالح مشترك ؟

إن بعض الشعب فى القاهرة خرج إبان الحرب العالمية الثانية لما اقترب الألمان من « العلمين » يهتف « تقدم يارومل » .

إنه لايحب الألمان ولكنه يكره الإنجليز ومن معهم ولذلك يرحب بكل نكبة تصيبهم .

والأتراك وجدوا فى ألمانيا سناداً قوياً لهم فى حرب يستطيعون ـ لو كسبوها ـ

أن يهدموا الاستعمار الإنجليزى الفرنسى ، وأن يوقفوا سيل العدوان الذى تعرض له العالم الإسلامى ، وأن يبدأوا عهداً جديداً من الاستعمار والإصلاح .

لـكن الأمور سارت عكس مايشتهون .

ولم يـكن ذلك إلا لأن دسائس الإنـكليز أفلحت فى تأليب الأمراء العرب على السلطان التركى .

فتولى هؤلاء بأنفسهم الإجهاز على الرجل المريض ، واستعجال موته دون بصر بما كان أو يـكون . !

أهداف الاستعمار :

لم يـكن الضائقون بالحـكم التركى قلة ، بل لعل الشعب التركى نفسه من بين الساخطين على أساليب العسف والقهر التى توارث السلاطين تطبيقها .

أما العرب فإن إقصاءهم عن كل سلطة عملية ، وحرمانهم من شارات السيادة التى كفل الإسلام لهم أحفظ صدورهم ووسع الهاوية بينهم وبين الترك .

فإذا انضم إلى هذا الحقدُ الصليبيُّ التقليديُّ على الإسلام وأهله ثم مابلغته أوربا فى نهضتها الأخيرة من تفوق عسكرى عرفنا أن الدولة العلية كانت فى موقف سيء ، وأن أخطاراً ماحقة تهددها وتهدد الإسلام الذى اقترن ـ للأسف ـ بها

ولما اشتعلت الحرب العالمية الأولى دخلها الحلفاء الغربيون ضد تركيا وأملهم من ورائها بعيد المدى .

(ا) تمزيق الخلافة العثمانية ، وإجتثاث جذورها من الأصول .

(ب) تقسيم تركيا نفسها ، وسائر الأقطار التى تتبعها بين انجلترا وفرنسا وروسيا .

(ح) بعثرة الأمة الإسلامية بعثرة تنسيها ماضيها ورسالتها وتشغلها بالدفاع عن حياتها وأقواتها .

وقد عقدت معاهدة سرية بين الحلفاء الثلاثة توضح نصيب كل دولة من تركة الرجل المريض . والأقطار والشعوب التى ستجتاحها بعد كسب الحرب .

ويعرف هذا الاتفاق بمعاهدة « سايكس . بيكو » .

وعندما نشبت الثورة الشيوعية فى روسيا ، وانفصل الروس عن الحلفاء فضحوا هذه المعاهدة ، وكشفوا نيات الإنجليز والفرنسيين فى اقتسام العالم الإسلامى ، وأعلنوا أنهم قد تخلوا عن هذه الارتباطات السرية .

ومطامع الإنجليز والفرنسيين لم تكتشفها هذه المعاهدة ، فقد كانت مفضوحة من قبل ، ولكن الغريب أن يجدوا من ملوك العرب من يعينهم على تحقيقها .

* * *

والخطة التى وضعها الإنجليز مبسطة ، أن يضربوا الترك بالعرب فى أثناء اشتباكهم مع عدوهم . فإذا انهار الترك بعد هذه الخيانة أصيب الإسلام فى صميمه وسقطت الخلافة التى تمثله .

وسوف يتبع ذلك طور آخر ، سوف يكفر الترك بالدين الذى ربطهم بالعرب ، وتتكون قومية تركية لا دين لها .

ويمكن أيضاً تكوين عروبة منفصلة عن الإسلام .

ومن ثم يخرج الإسلام من هذه المحنة ، وقد وقعت الجفوة بين أتباعه وكفر بعضهم ببعض ، وكفروا جميعاً بالله ورسوله ..!

ونحن ننظر إلى عمل الملك حسين قائد الثورة على الترك فنتساءل :

أ كان هذا الرجل كافراً شنيع الكفر أم كان مغفلا شديد التغفيل ؟ .

إنه عمى أو تعامى عن كل توجيهات الإسلام فى سياسته .

ولقد زعم الزاعمون أنه كان يريد تكوين خلافة عربية .

وأية خلافة هذه التى تقوم على حراب الإنجليز ؟

الإنجليز الذين احتلوا وادى النيل ، وأعطوا عشرات الوعود أن يجلوا عنه ولم يصدقوا فى كلمة واحدة مما قالوا .

الإنجليز الذين قطعوا أوصال الإسلام فى الهند وفى غير الهند ، ولا يزال هذا الدين دائخاً من صنيعهم إلى الآن .

الله جل شأنه يقول : « وَلاَ تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لاَ تُنْصَرُونَ(١) » ويقول : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِين ، بَلِ اللهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ(٢) »

لكن الشريف الهاشمى الذى يزعم أنه ابن النبى لم يذكر حرفاً من هذا ، وكل ماذكر أنه طالب ملك .

وفى سبيل ملكه ذبح الألوف من المسلمين لحسابه الخاص .

وقد يقال : إن الرجل ما كان يدرى . ونقول : بل كان يدرى فقد عرفه جمال باشا القائد التركى بمحتويات معاهدة « سايكس – بيكو » التى تتضمن تقسيم العالم العربى والإسلامى بين الحلفاء .

---

(١) هود آية : ١١٣ .

(٢) آل عمران آية : ١٤٩ ، ١٥٠ .

وعرفه مستر « لورنس » ذلك ، وقال له محذراً : لاتثق بوعود قومى !

ولنفرض أن أحداً لم يعرفه من ذلك شيئاً ، أفكان من تقاليد العروبة أومن تعاليم الإسلام أن يغدر بالترك المسلمين ، وأن يحارب إلى جانب الإنجليز والفرنسيين ؟ .

قد يقال : إن الترك ظلموا العرب ! وحرموهم حقوق المساواة المادية والأدبية .

ونقول : فهل يعالج ذلك بالانضمام إلى أعداء الإسلام ؟ لقد سبق أن انفرد العرب بالسلطة العامة وضنوا على العجم بالمساواة فهل ذلك يكون ذريعة كفران ، يبيح للفرس أن ينضموا إلى المجوس ؟

* * *

إننا كما رأى القراء — ممن يدعون إلى حكم عربى وخلافة عربية — وقد شرحنا كيف ساءت أحوال الإسلام وأمته ورسالته فى ظل الترك .

غير أننا نرى فى ميدان التعليم والدعوة متسعاً رائعاً لمن أراد الإصلاح .

وقد حُرِم الموالى من الحكم أول الأمر ، فاتجهوا إلى خدمة الثقافة الإسلامية ، فصلحوا وأصلحوا وأسدوا إلى الحياة الإسلامية الخير الكثير ، فما الذى أعجز العرب عن ذلك أيام الاستبداد التركى ؟

إن الذى لايرى له مكاناً إلا فى دست الحكم رجل تافه ، والذى لايستطيع الإصلاح إلا فى وظائف الدولة رجل تافه .

والواقع أن حرص بعض الناس على الحكم وحده ، لا يدل على خير بقدر مايدل على شره وأثرة وصغار .

ونحن نجزم بأن السلطان العثمانى إذا كان فاسداً ، فإن الشريف الهاشمى لو أتيح له الحكم لكان أضل سبيلاً .

و إلى القارىء الكريم فصلا من الأحداث التى وقعت بين الملك حسين ، أيام كان والياً على مكة من قبل الترك ، وبين الدولة التى كانت فى حرب انجلترا وفرنسا وروسيا ثم سائر الحلفاء .

« [1]وقد أطلقت الطلقة الأولى فى ٩ شعبان سنة ١٣٣٤ ـ ١٠ حزيران سنة ١٩١٦ وأعلن استقلال الحجاز عقب ذلك بقليل ، وأذاع الشريف حسين منشوراً مسهباً بالأسباب التي جعلته يقدم على حركته ، وعدّد من جملتها تحقيق الاستقلال العربى والخلافة العربية وما كان من تصرفات الأتراك نحو العرب الخ .

وآتت الثورة ثمرتها العاجلة بالنسبة للحجاز ، حيث أمكن التغلب على القوى التركية بسرعة فى مكة ، و إن كان التغلب على بقيتها فى الأنحاء الحجازية اقتضى بعض الوقت والجهد ، غير أن سلطة الحسين قد توطدت فى مختلف أنحاء الحجاز .

وفى ٦ محرم ١٣٣٦ ـ ٣ كانون الأول ١٩١٦ بويع الحسين ملكا على العرب ، وقامت وزارة إلى جانبه لتسيير شئون الدولة وأبلغ الأمر لوزارة خارجية الحلفاء .

وقد اعترضت انكلترا وفرنسا على لقب ملك العرب ، ولم تعترفا إلا بلقب ملك الحجاز ، فكان هذا أول بادرة من بوادر المكر ومن أولى الصدمات الشديدة التى صدم بها الحسين .

---

(١) من كتاب « الوحدة العربية للأستاذ محمد دروزة »

كذلك آتت الثورة ثمرتها بعد سنتين بالنسبة لسورية . فقد تولى فيصل ابن الحسين قيادة الجبهة الشمالية التى انطوى إليها كثير من ضباط وشباب بلاد الشام والعراق ، واستطاعت القوات العربية أن تزعج القوات التركية أى إزعاج بين المدينة ومعان أولا ، حتى أجلتها عن هذه المنطقة الواسعة ، ثم انتقلت إلى منطقة معان فأخذت تزعجها فيها أشد إزعاج كذلك ، حتى كادت تسيطر على معظم المنطقة إلى حوران .

ولما انكسرت الجبهة التركية فى فلسطين فى صيف عام ١٩١٨ ، وانسحبت القوات التركية منها نحو الشام فالأناضول تبعها فيصل بكتائبه ، فظلت تنسحب إلى داخل الأناضول

وأقام فيصل بعد ذلك فى دمشق حكومة عربية شملت جميع سورية الداخلية بما فيها شرق الأردن ، وظلت قائمة نحو سنتين أى من أيلول ١٩١٨ إلى ٢٤ تموز ١٩٢٠ ، وكانت دمشق فيها مزدحم أقدام رجال النهضة العربية من شاميين وعراقيين ، وجائشة بالحركة والنشاط والآمال » .

* * *

غير أن الانكليز ظهرت بوادر مكرهم بالحسين فى المراسلات التى جرت بينه و بينهم . لقد كانوا مبيتين المكر بأهداف آثار الثورة العربية منذ البدء ، فإنهم بينما كانوا يتراسلون مع الحسين و يقطعون له العهود بالاعتراف بمملكة عربية مستقلة كبرى ، كانوا يتفاوضون مع فرنسا وروسيا على مصير الدولة العثمانية

وقد اتفقت الدول الثلاث فى مارس سنة ١٩١٦ على أن يكون نصيب روسيا القسطنطينية مع عدد من الأميال إلى الداخل على ضفتى البوسفور ثم الولايات

الأربع الشرقية من الأناضول المجاورة للحدود الروسية ، وعلى أن يكون نصيب فرنسا كليكيا من الأناضول ثم الموصل ، وجميع بلاد الشام ساحلا وداخلا باستثناء فلسطين التى اتفق على أن يكون لها إدارة دولية خاصة ، وعلى أن يكون نصيب بريطانيا جميع البلاد الواقعة بين خليج البصرة والمنطقة المخصصة لفرنسا إلى العراق باستثناء الموصل مع ثغرى ميناء عكا وما بينهما من الساحل .

ولما انسحبت روسيا من صف الحلفاء سنة ١٩١٧ بسبب الانقلاب الشيوعى فيها ولم تعد طرفاً ثالثاً ثبتت فرنسا وبريطانيا ما تم الاتفاق عليه بالنسبة للبلاد العربية ، وصار يعرف باسم « سايكس بيكو » اقتباساً من اسم المندوبين الإنكليزى والفرنسى اللذين تفاوضا باسم حكومتيهما .

ولقد كان من نصوص هذا الاتفاق أن تكون الإدارة فى بلاد الشام متنوعة فيقوم فى سوريا الداخلية التى تضم ولايات حلب والشام والموصل حكومات عربية تكون بريطانيا صاحبة النفوذ والحماية والأفضلية الاقتصادية وتقديم المستشارين والموظفين فى القسم الجنوبى الشرقى من هذه المنطقة ، الذى تقع فيه منطقة شرق الأردن الممتدة إلى حدود العراق ، وبعض أنحاء العراق الشمالية الواقعة فى نطاق الحكومات العربية ووصف هذا القسم بمنطقة (ب) .

وتكون فرنسا صاحبة مثل ذلك الامتياز فى القسم الشمالى الذى تقع فيه ولايات حلب والموصل والشام باستثناء منطقة شرق الأردن التى كانت متصرفية من متصرفات ولاية الشام والتى تظل إداريا تابعة لحكومة الشام ونفوذاً لبريطانيا ، ووصف هذا القسم بمنطقة (آ) .

وتكون منطقة الساحل الشامى التى تضم جبل لبنان وولاية بيروت مع كليكية التى تضم أدنه ومرسين ولواء اسكندرون تحت الإدارة الإفرنسية المباشرة ، ووصفت بالمنطقة الزرقاء .

وتكون منطقة العراق التى تضم ولايتى بغداد والبصرة مع ميناءى عكا وحيفا وساحلهما فى فلسطين تحت الإدارة الإنكليزية المباشرة ، ووصفت بالمنطقة الحمراء ، أما فلسطين فقد اتفق أن يكون لها إدارة دولية باستثناء حيفا وعكا وعرفت بالمنطقة السمراء .

وهكذا مزقت بلاد الشام والعراق بالمؤامرة الإنكليزية الإفرنسية أفظع تمزيق وأسوأه ، فكان من أشد الضربات التى وجهت للحركة العربية الحديثة قبل أن يجف مداد عهد الإنكليز للحسين بالدولة العربية المتحدة وحينما كان هذا يتهيأ لإعلان الثورة وضم العرب لجانب الحلفاء والحرب معهم ، وهو ماتم عليه الاتفاق قبل هذه المؤامرة وما بدئ بتنفيذه بعدها بقليل .

والإنكليز هم المجرمون الأصليون فى ذلك ، لأنهم هم المتعاقدون مع الحسين وقد أدي غدرهم اللئيم إلى ضياع ثورة العرب ودمائهم فى سبيل إنشاء المملكة العربية المتحدة الكبرى التى استهدفتها الحركة العربية الحديثة » .

* * *

أصحيح أن الإنكليز هم المجرمون الأوائل فى هذه المأساة ؟ إنهم مجرمون حقاً ! لكن الذى يبوء بالعار الأول فى هذه القصة هم أفراد البيت الذى يزعم أنه هاشمى ، إن الإنكليز لم يزيدوا عن عصابة تشتغل بالسطو .

و إذا اتفقت عصابة على سرقة بيت ما ، واتفقت مع بعض سكانه أن

يكونوا لها عيوناً وأعواناً ، فأولئك ـ لا اللصوص المحترفون ـ أولى بالإثم وأحق بالعقاب .

وقد كتب كثيرون فى الملك حسين وعدوه الشرارة الأولى للثورة العربية الكبرى .

ونحن نأبى أشد الإباء أن تولد الثورة العربية فى مهد الخيانة والغدر على هذا النحو الشائن ، ونؤكد أن العروبة لا صلة لها بناس يتعشقون الحكم وينشدونه بسلاح أجنبي وثوران يخدم كل إنسان إلا العرب والمسلمين .

وقبل أن نتحدث عن معالم الثورة العربية الصحيحة نحب أن تعرف طبيعة الوقائع التى خاضها الملك حسين وأسرته ، وطبيعة المسلك الذى اختطته لنفسها السياسة الإنكليزية وذلك من خلال سطور موجزة لكاتب حديث هو « ستيفن همسلى » .

وقد لخصت مجلة « العربى » فصولا من هذا الكتاب جاء فيها :

« إن بريطانيا التى قطعت على نفسها عهوداً للعرب ، وجدت نفسها فى خضم الحرب مضطرة إلى عقد اتفاقيات سرية مع حليفتيها فرنسا وروسيا مما جعلها تقع فى تناقض :

من ذلك معاهدة « سايكس بيكو » السرية فى ١٦ آيار (مايو) ١٩١٦ التى اقتسمت بموجبها بريطانيا وفرنسا وروسيا أملاك الإمبراطورية العثمانية .

وليس هذا هو اسمها الرسمى ، فهى « الاتفاقية السرية بين فرنسا وبريطانيا وروسيا بشأن مناطق آسيا الصغرى » .

وقد نسبت إلى « سير مارك سايكس ومسيو جورج بيكو » ، ظلما مع أنهما لم يكن لهما فيها سوى الصياغة .

وكان أول من كشف النقاب عن هذه المعاهدة السرية هو « تروتسكى » بعد نجاح الثورة البلشفية ، وذلك فى تشرين الثانى (نوفمبر) من عام ١٩١٧ .

وكان مما قاله ، بعد فضحه لهذه الاتفاقات السرية :

« إننا نلقى بكل المعاهدات السرية فى سلة المهملات » .

أما فى بريطانيا فقد كانت جريدة المانشستر غارديان « أول من نشر خلاصة لهذه المعاهدة فى عدديها الصادرين فى ٢٦، ٢٨ تشرين الثانى (نوفمبر) من عام ١٩١٧

وقد انتهز جمال باشا الفرصة فأرسل مع رسول خاص صورة من المعاهدة إلى كل من الأمير فيصل ، وجعفر باشا العسكرى فى العقبة .

ويقول ت . ى . لورنس فى كتابه « أعمدة الحكمة السبعة » المشهورة :

« لقد كان من حسن الحظ أن بحث لفيصل بوجود هذه المعاهدة قبل انكشافها كما رجوته ألا يثق بوعودنا » .

ومن الوعود التى تمت فى الخفاء ، والمتعارضة مع ماوعدت به بريطانيا للعرب ، وعد بلفور . و بلفور هو وزير الخارجية فى وزارة لويد جورج .

وقد صدر هذا الوعد عن وزارة الخارجية البريطانية فى ٢ تشرين الثانى ١٩١٧ ، أى بعد ثمانية عشر شهراً من قيام الثورة العربية ، وفيه تعد الحكومة البريطانية بإقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين ! !

ويذهب المؤرخون مذاهب شتى فى تفسير الدوافع التى جعلت الحكومة البريطانية تعطى مثل هذا الوعد ، ولعل أهمها ــ فى رأيى ــ هو أن بريطانيا

أرادت من إقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين أن تجعل من فلسطين شوكة تقض مضجع الأمة العربية ، وتشل من تقدمها . وهى سياسة كان قد صرح بها كتشنر .

لماذا هذا التناقض ؟

ترى كيف ارتضت بريطانيا لنفسها أن تقع فى مثل هذا التناقض ؟

والجواب الشافى على هذا السؤال نجده عند المؤلف : فمن ذلك أن الدول فى الحروب لا تؤمن بالأخلاق والعهود ، ولا يهمها سوى كسب المعركة .

وهذا الماريشال فوش يقول : « إن الأمر الوحيد المهم فى الحرب هو النتائج » .

ويقول « هوفارث » إن الإنجليز قطعوا على أنفسهم تلك الوعود للعرب « لأنهم كانوا فى معركة حياة أو موت » !!!

إن « تشرشل » فى الحرب العالمية الثانية حالف الروس ضد الألمان والطليان مصارحاً بأنه فى سبيل أغراضه يتعاون مع الشيطان » .

والمستعمرون فى كل زمان ومكان لا يعرفون إلا منطق المنفعة الخاصة ، فإذا انضم إلى هذه المصلحة الخاصة التنفيس عن ضغن قديم ، أى النيل من الإسلام وأمته ، فتلك هى الأمنية التى لا يسنح بمثلها الزمان .

من أجل ذلك ، استخدم الإنجليز الملك حسين والمخدوعين به فى بلوغ أمانيهم البعيدة ، ولم يبالوا أن يستميلوه بكلمات لا وزن لها ، ما قيمة رسالة يكتبها رئيس وزرائهم ؟ أو ما قيمة وعد يقطعه على نفسه عميد الاحتلال الأجنبى

فى مصر ؟ لا قيمة لهذا كله . . .

وقد خرج المسلمون من الحرب العالمية الأولى ـ نتيجة هذه السياسة ـ وقد فقدوا ما بقى لهم ـ وتقسّم بلادهم على الجملة الحلفاء الغربيون كما ابتلع الروس أغلب الأقطار الإسلامية المجاورة لهم فى آسيا وأوربا . . .

أما الحرب العالمية الثانية فقد تمخضت عن قيام « إسرائيل » قنطرة العدوان الذى يهدد الشرق كله بين الحين والحين

النهضة العربية الحديثة :

هناك إحساس عام بين جماهير العرب إنهم تخلفوا وكان ينبغى أن يتقدموا .
وأن كراماتهم جرحت جراحات عميقة ، وكان ينبغى أن يعزوا ويصانوا .
وأن خبراتهم استلبها عدوهم ، وحرمها منهم وكان يجب أن يتملكوها وينتفعوا بها .

وأن مبادىء معوجة انتشرت بينهم ، وكان يجب أن يستغنوا برسالتهم عن كل مذهب مستورد وقانون مجتلب . .

وقد اضطرم هذا الإحساس فى أفئدة العرب والمسلمين ، وكان مصدر ثورات هائلة ضد الاستعمار الجاثم على صدورهم ، ومصدر حركة دائبة لاستعادة أمجادهم التى فقدوها .

وإنك لتلمح بوادر هذا النهوض وراء النشاط العلمى والأدبى الذى اهتزت به أقطار الشرق العربى والإسلامى فى الآونة الأخيرة .

تلك الأقطار التى وصلت فى مراحل كفاحها إلى حد أقلق الغزاة وأجبرهم

على تُرك البلاد كما حدث فى الجمهورية العربية المتحدة وغيرها .

* * *

وبديهى أن تعتمد هذه النهضة الشاملة على ركائز معنوية من الدين الذى آمنت به كثرة العرب ، وارتبطت به أمام الله والناس .

إن الألوان النفسية لشتى القوميات تختلف اختلافاً كبيراً ، والثقافة كما قيل : هى الطابع التى تتميز به أمة عن أمة ، فالطائرة التى تصنعها روسيا قد نجد لها مثيلا فيما تصنعه أمريكا أو انجلترا .

أما الأغنية التى تصدر عن روسيا أو أمريكا أو انجلترا فهى تختلف فى روحها عن غيرها . لأنها نابعة من طبيعة الشعب ، معبرة عن آماله وآلامه .

وهذا صحيح ، ولذلك قلنا : إن اللون النفسى للعروبة يفردها عن سواها ويضفى عليها خصائص لا تعدوها إلى غيرها .

وكما تلتقى عدة ألوان لتكوين اللون الأبيض الناصع ، تلتقى جملة عناصر فكرية وفقهية وعاطفية وأدبية وسياسية وتاريخية ، لتكوين ملامح العروبة .

وهذه العناصر لا مصدر لها إلا الإسلام ، ولا وجهة لها إلا وجهته ولا صبغة إلا صبغته .

ولذلك فإن تيارات هذه النهضة تجرى قوية غدقة كلما استمدت من ينابيع الإسلام واقتربت من أصوله .

والحق أن العروبة يتألق جوهرها كلما اقترنت برسالتها العظمى ، واستلهمت تاريخها الأول ، وجددت مثلها العريقة .

إنها عندئذ تنبت فى مغارسها ، وتجد من أسباب الخصوبة والنماء ،

ما يقرب جناها و يؤكد ازدهارها . .

ونحن نود لو تجنبت نهضتنا عيبين : أولهما . قديم من هفوات السابقين ، والآخر حديث من التقليد الطائش للمدنية الأوربية .

نعم فمن مواريثنا تقاليد بالية انحدرت إلينا من عهود الانحلال ، ويجب أن تبرأ العروبة منها فى نهوضها المعاصر . فليس لكل قديم قداسة ، ولا كل ما ألفناه يستحق الحفاوة والحفاظ .

إن المنبع المعصوم من الزلل معروف ، والطريق الموصل إلى الحق ممهد « وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ » .

ثم فى حضارة الغرب معالم قريبة من الفطرة ، ومعارف بلغها العقل الإنسانى بعد جهاد نبيل !

هذه ـ بلا ريب ـ ضالتنا ، ونحن أولى بها من سوانا .

ولا يجوز أن يفوتنا تحصيلها ، أو نقصر فى ذلك .

أما المباذل التى انسربت إلى هذه الحضارة ، وشانتها أكثر مما زانتها ، فيحتم علينا أن نتنزه عنها ، وأن نذود فتياننا وفتياتنا عن الإلمام بها ، فإن ذلك يرتكس بنا مسافات إلى الوراء .

* * *

والإسلام الذى شاع فى كيان العروبة شيوع الضوء والحرارة فى قرص الشمس ، هو الركائز المعنوية لكل نهضة يرتقب لها النجاح .

وقد كفل هذا الدين للأمم التى تعتنقه كل المقومات المادية والأدبية التى

تحتاج إليها ، فليس هناك مكان قط لاستيراد مبدأ أجنبي ، نكمل به نقصاً عندنا .

إن هذا الاستيراد لا يفكر فيه إلا قصار الباع فى فقه التراث الإسلامى أولئك الذين ليس لهم من العروبة إلا الزعم الفارغ ، والانتساب اللصيق .

من أجل ذلك نحن نريد أن تتسع دائرة « الحياد الإيجابى » فتتعدى ميدان السياسة الدولية إلى ميدان التربية الخلقية ، والأوضاع الاجتماعية .

فكما حررنا إرادتنا من قيود الاتباع الذليل لأى جبهة عالمية يجب أن نحرر هذه الإرادة فى تكوييننا للنشء ، وتنظيمنا للمجتمع ، أى يجب أن نستقى من رحيق الوحى الأعلى ما يروى ظمأنا فى تلك الساحات كلها .

ولن نكون عرباً أصلاء ، إذا تنكرنا للثروة الأدبية الطائلة التى منحنا الإسلام إياها ، أو ارتضينا لأنفسنا التسول الفكرى والتشريعى من هنا وهناك على حين أغنانا الإسلام عن هذا كله .

السناد الروحى للنهضة إنسان مفعم القلب باليقين ، مزدان السيرة بالعفاف ، له غاية سامية يطير إليها بجناحين من جهاد النفس وجهاد الناس .

إنسان يوقر القرآن الكريم ويغالى بتعاليمه سراً وعلانية ، ويجل محمداً رسول الله ويستقيم على سننه دون مواربة .

ولن تكون نهضة ما عربية إذا عريت عن هذه الفضائل .

ونحن إنما رفضنا اعتبار ثورة الشريف حسين نهضة عربية ، لأنها دعوة تمت فى أحضان الإنكليز ، وشقت طريقها بسلاحهم ، وتنكرت لمصلحة الإسلام الأولى .

أفتظن أن هؤلاء الثائرين لو نجحوا يصدق فيهم قول الله « الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » ؟

أفتظن أن زبانية الاستعمار يصالحون مثل هذه الأهداف ؟

النهضة العربية الصحيحة تقوم أولا وآخراً على أمة وثيقة الصلات بالله وأمره ونهيه ، بادية التوكل عليه وإن خاصمت هؤلاء وأولئك .

وشىء آخر لا مندوحة من تبيانه ، إن السياسة فى منطق زعماء الغرب تكفر بالصراحة والاستقامة ، ولا تبالى بمقاييس الأخلاق ، ولا حدود الدين ، الغاية تبرر الوسيلة ، كما يقولون .

وهذا المنطق لا نألفه فيما ورثنا من شمائل ، ولا نرضاه فيما تعلمنا من دين .

الغاية الشريفة لا يوصل إليها إلا بوسيلة شريفة .

وقد تكون الوسائل الشريفة باهظة الثمن صعبة التكاليف ، وربما بدا للعين المجردة أنها مخيبة للآمال بعيدة التحقيق .

ومع هذا كله فلا يجوز لمؤمن أن يلجأ إلى وسيلة مريبة مترخصاً فى ارتكابها بسمو المقصد .

تلك خدعة الشيطان ، وكم وقع فى أحابيله الأغرار .

الوسيلة الشريفة وحدها هى الطريق للغاية الشريفة .

وعندما يزين لك الوهم اقتراف عمل ما لتبلغ به ما تريد من خير ، فاتهم نفسك أو اتهم هدفك ، فإن العمل السىء لا يجىء بخير أبداً .

ونحن إذا بنينا نهضتنا على العروبة والإسلام ، فالطريقة المثلى لجنى غراسنا

أن نلتزم الأساليب الشريفة فى عملنا ، مهما لقينا من متاعب ومضايقات .

* * *

ثم لا بأس من المصارحة بأن القومية أداة لا غاية ، إننا لا ندعو الزنوج فى إفريقية ، أو الهنود فى آسيا إلى اعتناق العروبة ، فإن أحداً لا يكلف بترك عنصره وجلدته ، وإنما يدعى أهل الأرض أجمعون إلى اعتناق الإسلام ، الدين الذى يسوى بين الأجناس والألوان ، ولا يعنيه إلا أن تزكو النفوس ، وتصفو السرائر ، ويتآخى البشر فى معرفة الله ، والقيام بحقه والتأهب للقائه ، ولا فضل لعربى على عجمى ، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى .

والدعوة إلى الإسلام تنتج من تلقاء نفسها إعزاز العروبة ، وإعلاء شأنها .

ألا ترى الروس يدعون إلى الشيوعية المجردة ، فإذا أعتنقها ناس فى أمريكا أو إفريقا نبت فى أفئدتهم الولاء لروسيا بوصفها أم المذهب ، ودعامته من غير أن يدعو الروس لأنفسهم بكلام طويل أو قصير ؟

كذلك يجب أن نطلق عقائرنا برسالة الإسـلام ، وأن نجلو عن جوهره ما ليس منه حتى يخلب بريقه البصائر .

فإذا انشرحت به الصدور فى أقصى المشارق والمغارب كان هذا ذخراً لنـا عند الله ، ونورا يسعى بين أيدينا وبأيماننا .

ثم هو إلى جانب ذلك شرف للعروبة أى شرف ، ومجد أى مجد :

« فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِى أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ (٢) » .

---

(١) الزخرف ٤٣ ، ٤٤ .

خاتمة

فى الصحائف الماضية خلاصة للمحاضرات التى ألقيتُها على طلاب كلية الشريعة الإسلامية ، فى مادة « المجتمع العربى » التى تقررتْ دراستها أخيراً .

لقد تفضل الأستاذ الكبير عميد الكلية فوكل إلىّ هذا العبء .

وكان من حديثه معى فى مطلع السنة الدراسية — أن إدارة الكلية رغبت أول الأمر جعل عنوان البرنامج « المجتمع الإسلامى » .

فذلك العنوان أدنى إلى رسالة الجامع الأزهر . أو إلى رسالة « كلية الشريعة الإسلامية » تلك الرسالة القائمة على صيانة تراثنا الفقهى ، وإمداده بعناصر الحياة والبقاء .

إلا أن مجلس الأزهر الأعلى آثر العنوان الأول توحيداً « لشكل » المادة المدروسة فى شتى الجامعات ، واطمئناناً إلى أن المدى قريب أو معدوم بين مفهوم العروبة والإسلام عند التأمل الحصيف ، وإتاحة لفرصة التوسع فى شتى الاتجاهات تبعاً للون الدراسة فى مختلف الكليات ...

وقد شكرت للأستاذ العميد هذا الشرح الصادق المخلص ، ورأيت معه أن العناية بالموضوع أسبق من العناية بالعنوان . وطمأنته إلى أن الحقيقة العلمية — التى يحرص على تقريرها وحدها — هى التى جعلتها رائدى فى العمل الذى اختارنى له .

والأستاذ الشيخ محمد المدنى له منطق العلماء وأدبهم .

وأرجو أن أكون قد اقتربت من نفسه فى إيضاح كثير من الحقائق التى كثر حولها اللغط ، وأنصفتُ الدين الذى ترادف عليه الهجوم ، وطمع فى أهله الخصوم ...

شيء واحد هو الذى سرتُ فيه وحدى ، ولا يحمل تبعته غيرى .

هذا الشيء هو مقابلة أعداء الإسلام بالمثل .

الجراءة فى مهاجمة الحق ألقاها بجراءة فى مهاجمة الباطل .

الإلحاح فى إبعاد الإسلام عن الحياة العامة ألقاه بإصرار على توكيد حق الإسلام فى الهيمنة على الحياة العامة .

الكهانة التى تلف بعض الأسماء أهتك عنها الستر لتبدو عارية فلا ينخدع بها أحد ...

إننا معشر الدعاة إلى الله نشعر بحرج وعنت بالغين ، لأن صوت الباطل جهير جداً يكاد يصم الآذان ، ويلوى الأعنّة ؛ فلا جرم أننا ننافح عن قضايا الإيمان بفكر يُطلُّ من ورائه الغضب ، وعقل تضطرم معه العاطفة ...!!

ولو تكافأت القوى أو تماثلت الوسائل لتحدثنا ونحن نبتسم ، وكم تهفو أفئدتنا للابتسام والمرح !!

بيد أن صيحات الأفاكين ليس لها من آخر ، فلا يَلُمْنا أحد إذا قابلناهم متجهمين ضائقين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

محمد الغزالى

فهرس الكتاب

للمؤلف

١ — الإسلام والأوضاع الاقتصادية .
٢ — الإسلام والمناهج الإشتراكية .
٣ — الإسلام والاستبداد السياسى .
٤ — الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين .
٥ — تأملات فى الدين والحياة .
٦ — من هنا نعلم .
٧ — عقيدة المسلم .
٨ — خلق المسلم .
٩ — فقه السيرة .
١٠ — فى موكب الدعوة .
١١ — من معالم الحق .
١٢ — ليس من الإسلام .
١٣ — كيف نفهم الإسلام ؟
١٤ — جدد حياتك .
١٥ — التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام .
١٦ — الاستعمار أحقاد وأطماع .
١٧ — ظلام من الغرب .
١٨ — كفاح دين .
١٩ — نظرات فى القرآن .
٢٠ — مع الله . . . دراسات فى الدعوة والدعاة .
٢١ — الإسلام والطاقات المعطلة .
٢٢ — فى العقيدة والشريعة (رد على المستشرقين) .
٢٣ — هذا ديننا .
٢٤ — الجانب العاطفى من الإسلام « تحت الطبع » .